

كتاب الاخلاق والدين واحكام الشريعة

تأليف
عبدالحج بن عبدالحج
مفتش أول مساجد الاوقاف

الجزء الأول

مطبعة المطبعات الحديثة

طبعة الأولى بالقيمة رقم ١٨

فهرست

الجزء الأول من كتاب الأخلاق الدينية

صفحة	رقم	الموضوع
٣	١٥	في القسم الأول من صفات النفس
	٢٠	الباب الأول في تعريف النفس وما يتعلق به
٤		وظيفة العقل والبدن
	٢١	أعوان العقل
٦		الاصول التي تنفرع عنها صفات النفس
٨	٢٤	المساوس التي تعرض للنفس
٩	٢٥	ما يؤخذ عليه الانسان من
	٢٦	المساوس وما لا يؤخذ
١٠	٢٧	في أقسام الشهوة
	٢٩	شهوة الفرج
١١		الاسباب المؤثرة لشهوة الفرج
	٣٠	النظر
١٢	٣٢	الحلوة
١٣	٣٥	حديث النفس ومساوسها
١٣	٣٨	الغذاء الدسم أو شهوة البطن
١٥	٣٩	استعمال العذائير المهيجة لشهوة الفرج
		الزنا واللواط
		شهوة المال
		تفاوت أغراض الناس في طلب المال
		مدح المال وذمه والكلام في معنى السعادة
		الاقتصاد
		ادلة الاقتصاد
		التمتع - تعريفه -
		مصادر الشح وأثاره السيئة بين الناس
		هل الشح صفة طبيعية في بعض الناس (نواذر البخل)
		الجود والسخاء
		الحرص والطمع والقناعة
		علاج انفاق المال في غير حقه
		شهوة الذرية
		تربية الأولاد

صحيحة		صحيحة
٤٠	شهوة الجاه والسلطان	٩٤
٤٥	حب المدح وكراهة الذم	٩٥
٤٦	الرياء	٩٧
٤٩	﴿ الباب الثاني ﴾ في الغضب	
	— تعريفه —	١٠٢
٥٠	درجات الغضب وحكمة خلقه في	١٠٤
	الإنسان	١٠٦
٥١	أسباب الغضب	١١٧
٥٤	العفو عند الغضب	١١٨
٥٥	علاج الغضب	١١٩
٥٧	الشجاعة والجهل	١٢٠
٥٨	﴿ أنواع الشجاعة ﴾	١٢٢
٦٥	المجدل والمراء والخصومة	
٦٨	المزاح	
٧١	السخرية والاستهزاء	
٧٢	الفحش وبذاءة اللسان	١٢٦
٧٣	اللغو	١٢٧
٧٥	— الغيبة — حد الغيبة — أنواع	١٣١
	الغيبة — حكم الغيبة —	١٣٣
٧٦	كفارة الغيبة — المواضع التي تجوز	١٣٧
	فيها الغيبة —	١٣٨
٧٧	أدلة تحريم الغيبة	١٣٩
٧٨	إفشاء السر	١٤٤
٨٠	الأمانة والوفاء بالوعد	١٤٧
٨١	منافع الوفاء والأمانة ومضار	١٤٧
	الخلف والخيانة	١٤٨
٨٢	ما يفتر من خلف الوعد	
٨٣	الصدق والكذب	١٥٢
٨٦	ما يعفى عنه من الكذب	١٥٣
٨٨	القيمة — تعريفها — أنواعها	١٥٤
٩١	علاج القيمة	
٩٣	الكبر والرجب — تعريفهما —	

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين لا إله إلا هو سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه المرجع والمآب . فنه وحده أستاذ المعونة وأسأله التوفيق واعوذ به من محبطات العمل وعوامل الزلل واستمنحه العفو والعافية في ديني ودنياي وآخرتي أنه عفو غفور رحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لتمام مكارم الأخلاق . ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم صراطاً مستقيماً . وعلى آله الأطهار . وصحابة الأبرار . ومن تميم إحسانكم وبعد ﴿ فهذا كتاب في علم الأخلاق الدينية يتضمن المهم من مباحث ذلك العلم المعروفة في كتبه المشهورة كاحياء العلوم للإمام الغزالي وغيره

على التي نهجت في وضعه نهجاً مناسباً لمقتضى حال أهل زماننا وسلكت فيه سبيلاً واضحاً لا عوج فيه . ولا إهمام في نواحيه . وأكثر ما عولت عليه في عملي كتاب الله عز وجل وسنة رسولنا الصحيحه فلم أحفل بالقصص التي لا تستند على شيء منها ولم أبال بالأحاديث الموضوعة أو الضعيفة : وكلما أوردت آية أو حديثاً شرحت منها ما يحتاج إلى الشرح والبيان . ولم أدخر وسعاً في جمع ما تفرق من مسائل ذلك العلم بأسلوب خال من التشويش والتعقيد لتكون قريبة المأخذ سهلة التناول على كل طالب . ولم أترك شيئاً من المباحث الفلسفية التي يحتاج إليها المقام وتنطبق على فوائد الدين الخفيف كي لا يفوت الطالب شيء يحتاج إليه في فهم قواعد علم الأخلاق

ولما كان ذلك العلم يبحث فيه عن أفعال المسكفين التي تصدر باختيارهم وهي لا تخرج عما يوافق

(ب)

الدين الاسلامي فيما أمر به أو نهى عنه أو يخالفه في ذلك والأول إنما يصدر عن الصفات النفسية الممدوحة التي يعبر عنها بالفضيلة ويسمى ما يترتب عليها خيراً كالآثار المترتبة على الكرم والعدل والحلم والشجاعة والفعة والقناعة ونحو ذلك مما يأتي . والثاني إنما يصدر عن الصفات النفسية المذمومة ويعبر عنها بالرديلة وتسمى الآثار المترتبة عليها شراً كالآثار المترتبة على ضد هذه الصفات من الشح والظلم والجهل والجبن والشره والدناءة والطمع وغير ذلك مما يأتي . ويتناول ذلك فعل ما يجب على الانسان من حقوق الله وحقوق عباده . فقد قسمت الكلام فيه إلى قسمين ﴿ القسم الأول ﴾ في صفات النفس وما يترتب عليها من الافعال الممدوحة والمذمومة في نظر الدين ﴿ القسم الثاني ﴾ في الواجبات الدينية سواء كانت اعتقادية أو عملية متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده مع بيان حكمها وأسرارها بقدر المستطاع وخصصت كل قسم من ذينك القسمين بجزء من الكتاب ليسهل الرجوع إليه عند الحاجة وهذا — هو جهد المقل — فإن كنت قد وفقت فذاك وإن كانت الاخرى فأرجوا أن يعفو الله عني . به وكرمه

هذا وإنني أرجوا أن أكون قد فقت بعض ما يجب على من خدمة الوعظ والارشاد في بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه مرضاة لله تعالى وشكراً له على ما شرفني به من خدمتها وأن أكون قد قدمت ما ملكت يداي من إصلاح في عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك قواد الاول ﴿ ملك مصر المعظم ﴾ أيده الله فان جلالة قد بعث في أمته روح التنافس في الإصلاح وطبع في نفوس العاملين ما حجب اليه من العمل على سعادة شعبه وإصلاح رعيته في كل شأن من شؤونها المادية والادبية خصوصاً ما يتعلق من ذلك بتهديب النفوس وتقويم الاخلاق فان عنايته الكريمة بذلك أظهر ما يكون قولاً وعملاً . فلقد غمرت نعمائوه معاهد الدين وشمل بره إصلاح طرق الوعظ والارشاد في بيوت الله تعالى فعمرت بالعلماء والمرشدين في كل أرجاء القطر . ولو شئنا أن نعدد موافقه التي هي المثل الاعلى لمكارم الاخلاق لضاق بنا المقام فهو ﴿ خلد الله ملكه ﴾ دائماً قدوة حسنة لأمته في التمسك بالفضيلة والقضاء على الرديلة ومحاربة التهلك والمجون ومطاردة الخارجين على الادب والدين لحزاه الله عن الفضيلة احسن الجزاء وإبقاء ذخراً لشعبه مؤيداً منصوراً وحفظ له حضرة صاحب السمو الملكي الامير فاروق ولي العهد المحبوب حرسه الله وسائر الانجال

القسم الاول

صفات النفس

الباب الاول في تعريف النفس وما يتعلق به

النفس والعقل والروح والقلب الفاظ مختلفة ولكنها تارة تكون متحدة المعنى فتزد ككها على شيء واحد ومعنى واحد وهو — سر الهى لا يعلم حقيقته الا الله تعالى — متعلق بالانسان تعلقاً معنوياً ليدبره في أموره ويسلك به الطريق القويم والصراط المستقيم . والى ذلك المعنى يشير قول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) فذلك السر الالهى يسمى نفساً وعقلاً وروحاً وقلباً . وتارة تكون هذه الالفاظ مختلفة المعانى فيطلق كل لفظ منها على معنى يفاير الآخر فالنفس تطلق على مجموع الشهوة والغضب وهذه هى النفس الشريرة عند الصوفية . والعقل يطلق على العلوم والمعارف . والروح تطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة وهذه يتعلق بجثها غرض الاطباء . والقلب يطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموجودة في الجهة اليسرى من الحيوان والانسان

ومن هذا يتضح لك أن لكل لفظ من هذه الالفاظ معنيين فالنفس تطلق على ذلك السر الالهى الذى لا يعلم حقيقته الا الله وتطلق على مجموع الشهوة والغضب . والعقل يطلق على ذلك السر الالهى وعلى العلوم والمعارف . والقلب يطلق على ذلك السر ويطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل . والروح تطلق على ذلك السر وتطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة . فاذا سمعت قول الله تعالى (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء) أدركت أن معنى النفس هنا هو مجموع الشهوة والغضب لانهما هما اللذان يأمران المرء بالسوء ويسوقانه الى العصيان . واذا سمعت قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) كان معنى النفس هنا ذلك السر الالهى الذى خلقه الله في الانسان ليهديه الى سواء الصراط . واذا سمعت قول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فهمت منه أن معنى القلب فى الآء هو ذلك السر الالهى لاقامة اللحم الصنوبرية الشكل وهكذا كلما ذكر القلب فى كتاب الله أو سنة رسوله فانه يراد منه ذلك المعنى الا أن يعبر بقطعة اللحم ويراد منها السر المتعلق بها

وظيفة العقل والبدن

إذا علمت ذلك تبين لك أن الانسان ليس هو مجرد الجسم المركب من الدم واللحم والعظام والعناصر المختلفة المادية لأن ذلك قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوان وإنما الانسان هو مجموع امرين أحدهما ذلك الجسم المادى والآخر معنى زائد عليه يمتاز به الانسان عن الحيوان وذلك المعنى هو السر الالهى الذى تقدم لك الكلام فيه وقد تضاربت الأفهام فى تصويره واختلف الناس فى بيان حقيقته ولكنهم حتى الآن لم يهتدوا الى بيان مستند الى دليل مادى يدل على حقيقة ذلك السر الذى به الادراك والتفكير على أن القدر الذى تستريح له النفس من ذلك هو أنه امر مجرد عن المادة متعلق بذلك الجسم المادى تعلقاً معنوياً. والمجرد عن المادة يعجز العقل عن ادراك حقيقته وماهيته وإن عرفه بخواصه ومزاياه. على أن يميزات الانسان كلها فى الحقيقة مبنية على وجود ذلك السر الذى به الادراك والتفكير فبالعقل يكون الانسان محلاً للدح والدم وأهلاً للطالبة بالواجبات الدينية والتكاليف الشرعية وغير ذلك من شؤون الحياة الدنيوية والآخروية لهذا جعل الله له سلطة كاملة على البدن فلا يعصى له أمراً ولا يخالف له نهياً فان قال للبدن تحركى فعلت وإن أمر الرجل بالمشى أجابت وإذا قال للعين اغمضى أطاعت. وإذا قال للسان تكلم فعل وهكذا سائر أعضاء البدن فانها جنود مسخرة للعقل بتصرف فيها كملك مطاع لا يرد أمره. على أن له أعواناً تساعد على تدبير مملكته الجسم على الوجه الأكل حتى يقطع مراحل الحياة آمناً من الخطر. فان أحسن تدبير مملكته وسلك السبيل التى سنّها الله له فقد نجح. وإن أساء التدبير وحاد عن جادة الصواب واستسلم لعوامل الفساد كان من الهالكين. من ذلك تعلم أن وظيفة العقل هى الهيمنة على سائر أعضاء الجسم وأن وظيفة الجسم إنما هى الطاعة العمياء للعقل فى تصرفه

أعوان العقل

تنقسم أعوان العقل إلى قسمين قسم يشترك فيه الانسان والحيوان. وقسم يختص به الانسان فأما الأول فهو ثلاثة أمور: الأول قوة الحواس كالبصر والشم والذوق واللمس والسمع. ويتبع هذه الحواس الخمس قوى مخلوقة فى الدماغ كالخيال والحافظة فان الانسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال. ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب القوى الحافظة ونحو ذلك مما لا تعلق بشرحه غرضنا الآن. ووظيفة هذه الحواس ادراك الأشياء وترقبها

الثاني قوة الشهوة والغضب . وتلك القوة من أخطر القوى على العقل لأنها تنازعه دائماً ملكته وتريد أن تغلب عليها دونه فإذا لم يستعملها فيما خلقت لأجله ضاع ملكه وخسر تقوده وعرض نفسه للشقاء في الدنيا والآخرة . ووظيفة هذه القوة التي خلقت من أجلها هي الحث على جلب النافع ودفع الضار فالذى يحث على جلب النافع إلى البدن هي الشهوة . والذى يحث على دفع الضار عنه هو الغضب .

فالشهوة تدفع أعضاء البدن إلى طاعة العقل فيما يأمر به من العمل للحصول على ما يرفع الألم ويحصل اللذة مهما كان العمل صعباً شاقاً . وكذلك الغضب يهتاج بالاعتداء على العرض والمال والنفس والدين فيدفع الأعضاء للبطش بالمعتدى ومقاومة عدوانه طوعاً أو أمراً العقل ولو لذلك هلك الإنسان كما سيأتي في باب الغضب . تلك هي وظيفة قوة الشهوة والغضب الحقيقية وذلك هو حدهما الذي يطلبه الله من الإنسان فإذا سمح العقل لها بالطغيان ومجاوزة الحد الذي رسمه الله لها فقد عرض نفسه للهلاك والرتدى وأصبح إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان فإن تغلب عليه الغضب كان شبيهاً بالحيوان المفترس . وإن تغلبت عليه شهوة البطن والفرج كانت شبيهاً بالبهايم الأخرى التي لا هم لها إلا مل بطونها وقضاء شهواتها من ذلك تنشأ الجرائم وترتكب الموبقات كما سيأتي مفصلاً فإذا فقد الإنسان حية الغضب فلم يتأثر للاعتداء على دينه أو عرضه أو ماله كان جباناً وإذا فقد الشهوة كان جماداً والكمال في أن يستعملها فيما خلقت لأجله وذلك هو الخير والسعادة في الدنيا والآخرة .

الثالث هو القدرة وهي القوة المنبثقة في سائر الأعضاء لاسم العضلات منها والأوتار ووظيفتها تحريك العضلات إلى تحصيل ما يراد منها تلك هي أعوان العقل المشتركة بين الإنسان والحيوان فإن الحيوان لديه قوة الحواس وقوة الشهوة والغضب والقدرة . فالشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلها ففتر منه كما يرى الإنسان عدوه فيحتاج غضبه فيدفع عن نفسه .

وأما القسم الثاني وهو ما يختص به الإنسان دون الحيوانات فهو العلم بالأمور الدنيوية والآخروية والحقائق العقلية والإرادة فإن ذلك من خصائص الإنسان وحده كما سيأتي فإن الحيوان مهما أتبح له من التعلم لا يستطيع أن يدرك المعاني السكية الدقيقة التي يدركها العقل الإنساني بل كل مدركات الحيوان ترجع إلى الحواس الظاهرة والباطنة فقط فلا يستطيع أن يقيس ما غاب عنه على ما حضر لديه . ولا يمكنه أن يستنتج من المقدمات النظرية شيئاً بخلاف العقل الإنساني . أما وظيفة العلوم والمعارف الدنيوية والآخروية والحقائق العقلية فهي مساعدة العقل على سلوك سبيل السعادة والبعد عن طرق الشقاء فمن تعلم ماله وما عليه في حياته وأدرك ما يضره وما ينفعه في دنياه وآخريته وعرف حقائق الأمور فوقف عند حدها فقد حصل على أكبر عون للعقل على كسر الشهوة والغضب فإن الزاني مثلاً إذا أدرك سوء مغبة الزنا من ضياع نسله وهتك عرض غيره وما يتبع ذلك من ضياع المال وتعرض للأمراض القاتلة ومن وراء ذلك عذاب الله وغضبه اطاع العقل في الكف عن الزنا وكذلك المريض الذي يعلم أن الأكل يؤذيه وقد يذهب بحياته فإنه يطيع العقل في الامتناع عن الأكل . وهكذا . وكذلك الغضب فإنه إذا احتاج وقف العلم أمامه فألزم صاحبه أن لا يخرج عن الحد الذي سنه له الدين وتطلبته منه البيئة التي يعيش فيها فلا يخرج عن

طوره ولا يدفعه الى اتيان ما يخل بمروءته وشرفه . ولا يسوقه الى ظلم أحد من خلق الله . ولا يذهب به الى مجازاة الاشرار والفجار . ولا يفضي به الى الحقد . والحسد . والغية . والنيمة وغير ذلك من الأخلاق الفاسدة التي تترتب على طغيان الغضب وخروجه عن الحد الذي خلقه الله من أجله كما استعمله في مباحث الغضب فالعلم والتفكير خير سلاح للعقل يحارب بهما الشهوة والغضب ويوقم ما عند حدتهما فلا يخرجان عن وظيفتهما التي خلقا من أجلها وهي المعونة على تحصيل الحلال الطيب من اللذات . والحث على الدفاع عن النفس . والعرض . والمال . والدين . فاذا استطاع العقل أن يفعل ذلك فقد سلبت مملكته من الأخطار وقطع مراحل الحياة آمنة مطمئنا . وعاش عيشة راضية مرضية . لا يكون لأحد عليه تبعة ولا يخاف بعد ذلك عقابا فان الله تعالى يكون راضيا عنه ومن برض عنه ربه فلن يشقى أبداً

الاصول التي تنفرع عليها صفات النفس

قد علمت أن الانسان مركب من جسم مادي وروح مجردة عن المادة وهو بذلك التركيب البديع قد اجتمعت فيه الصفات النباتية . والحيوانية . والربانية . والملكية . والشيطانية . فهو من حيث يتغذى ويتناسل نبات . ومن حيث الحس المحصوص والحركة بالاختيار حيوان — ومن لوازم الحيوانية الشهوة والغضب — ومن حيث العلم والمعرفة بحقائق الاشياء ملك ورباني . ومن حيث اجتماع الشهوة والغضب مع التمييز شيطان لأنه يستعين على قضاء شهوته بالحيلة والمكر كالشيطان . ومن هنا يتبين أن أصول صفات النفس اربعة السبعية . والبيمية . والشيطانية . والربانية فاذا غلب عليه غضبه التحق بالسباع والحيوانات المنترسة فأصبح شرسا يفعل كما تفعل السباع من العداوة والبغضاء والتعدى على خلق الله بالسب والضرب والايذاء وغير ذلك . واذا غلبت عليه شهوته التحق بالبهايم التي لا هم لها الا مل بطونها وقضاء شهواتها فأصبح شرها في ما كله ومشربه شبقا تدفعه شهوة الفرج الى ارتكاب الفواحش . واذا غلبت عليه صفة الربانية فانه ينبعث الى معرفة حقائق الاشياء والوقوف على المعلومات الدينية والديوية وتلك هي خاصية الانسان التي امتاز بها على الحيوان وشابه بها الملائكة المقربين . فالعلم هو أجل معنى يوجد في الانسان وأحسن معين للعقل على قهر الشهوة والغضب كما سبق ولولا العلم ما خاق الانسان . ألا ترى ان الله سبحانه وتعالى قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فلما علم سبحانه آدم اسماء الكائنات ومسمياتها وسأل الملائكة عنها فعجزوا عن الاجابة وسأل آدم فأجاب أدرك الملائكة أن النوع الانساني يمتاز بصفة العلم وأن من كان هذا شأنه فهو جدير بالوجود والبقاء مهما ترتب على وجوده من المضار لان منفعة العلم وحدها ترجح على كل ما يحيط بها وأفضل العلم ما كان موصلا لسعادة الدنيا والآخرة وما كان سببا في ضبط الشهوة والغضب وعونا للعقل على اتباع سبيل الدين وسلوك طريق المهتدين

على أن صفة الربانية الموجودة في الانسان لها طغيان أيضا فقد يعدو الانسان طوره وتحمله تلك الصفة على ادعاء ما هو خاص بالله وحده فيدعى الاحاطة بجميع المعلومات وينقض اذا نسب اليه الجهل في أمر من الأمور مع أن الاحاطة بجميع المعلومات مختص بها الله وحده اما الانسان فانه مهما أوتي من العلم فلا يصل إلا إلى القليل منه قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومع ذلك فقد يعجز عن إدراك أوضح الحقائق وأيسر الأمور وربما جهل ما هو بديهي عند غيره وذلك آية النقص وعلامة الحدوث فيجب أن يتنبه العقل لذلك ولا تحمله صفة الربانية على الغرور وادعاء مالا يقدر عليه ولم يخلق لأجله فاذا لم يتنبه لذلك فانه يتصف بكثير من الصفات الذميمة كالغرور وانكار الحق والجهل بكثير من الحقائق وغير ذلك

كذلك قد تحمله صفة الربانية على حب الاستيلاء على الناس وقهرهم واستعبادهم والتفرد بالرئاسة والاختصاص بالأمور الى غير ذلك مما هو مختص بالله وحده فذلك أيضا مما يجب التنبه له والوقوف عند الحد المقدور عليه للكن وترك ما هو من اختصاص الواجب ورحم الله من قال — لكل امرئ من الناس حدة وهلاك القتي جواز الحدة —

تلك هي أصول صفات النفس وينفرع عليها كثير من الصفات الذميمة فيتنفرع على طغيان صفة الشهوة اللازمة للحيوانية كثير من الصفات الفاسدة ومن هذه الصفات الوقاحة . والحبث . والتبذير . والتفتير . والرياء . والتهتك . والمجون . والعبث . والجشع . والملق . والحسد . والحقد . والشتم . ويتفرع على طغيان الغضب كثير من الصفات الذميمة أيضا ومنها التهور . وتحقير الناس . والاستخفاف بهم . والاعتداء عليهم ظلما . وإرادة الشر . وغير ذلك ويتفرع على طغيان صفة الشيطانية المكر . والخداع . والحيلة . والدهاء . والجراة . والغش . والتليس . وتضليل الناس . والتفجير بهم . وغير ذلك . وكل هذه الصفات تتعاق بالنفس وتتراكم عليها فتصير طابعا يحول بينها وبين معرفة الله تعالى وإدراك حقائق الأشياء على وجهها وإلى ذلك الإشارة بما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال « الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل فاذا انتهكت الحرمة وعمل بالمعاصي واجترأ على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا » رواه البزار والبيهقي . وذلك لأن العقل هو الملك المتصرف في جميع الجوارح والمسيطر على كل الحواس الظاهرة والباطنة فيجب أن تكون لديه الوسائل الكافية لتنفيذ أمره ونهيه والمحافظة على مملكته فاذا أهمل الوسائل التي يستعين بها على ذلك وتقهقر أمام شهوته وغضبه فان المعاصي تتراكم عليه وتنطبع فيه كما ينطبع الخاتم فيفقد الصفة التي خلق من أجلها وهي تدبير البدن والسير به في سبيل النجاة ولم يعد يعقل شيئا من واجبه الذي يجب أن يكون عليه وانعكست عليه القضية فأصبح محكما بعد أن كان حاكما . مملوكا بعد أن كان ملكا . خادما بعد أن كان سيدا ولا هم له بعد ذلك الا استنباط الحيل في مرضاة شهوته وغضبه . ولا تفكير له إلا في تحصيل ما يتطلبه منه لايبالي بنصيحة ناصح . ولا ينظر إلى موعظة حكيم . ولا يسمع لداع إلى هدى . ولقد صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال انه لا يعقل

شيء : (أن لو نشاء لأصباهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)
 أما اذا تنبه العقل من أول الأمر واستعمل العلم والحكمة في ضبط شهوته وغضبه ووقف لها بالمرصاد فلا يسمح لها بمجاوزة الحد الذي خلق له فانه يكون انسانا كاملا متصفا بأحسن الصفات وأجل الأخلاق إذ يترتب على ضبط شهوتي الفرج والبطن . العفة . والقناعة . والهدوء . والتقوى وحسن الهيئة . والحياء . والظرف وغير ذلك من مكارم الأخلاق . ويترتب على ضبط الغضب والوقوف به عند الحد الواجب من الدفاع عن العرض والنفس والمال والدين وما في حكم ذلك صفة الشجاعة . والكرم . والنجدة . وضبط النفس . والصبر . والحلم . والاحتمال . والعفو . والثبات . والشهامة . والوقار . وغير ذلك . ومثال العقل في ذلك كله مثال المرأة . وآثار الشهوة والغضب كالدهان الذي يتصاعد اليها فيطمس نورها وآثار العمل بالعلم والحكمة كالمعدن الذي يحلوها ويزيد في صفاتها والمرء إما شقي فتغلب عليه الشهوة والغضب فيكون من الهالكين . وإما سعيد فيتغلب عليه العقل والحكمة فيكون من الناجين

الوساوس التي تعرض للنفس

ومما يجب على العقل أن يتنبه له ويكون دائما على حذر منه تلك الوساوس النفسانية والهواجس الشيطانية التي تهيج بها الشهوة ويثور بها الغضب فهذه هي من أعداء العقل التي يجب محاربتها . والقضاء على أسبابها المتولدة منها فان هذه الوساوس قد تتولد بسبب الحواس الظاهرة . أو الباطنة إذا أساء الانسان استعمالها مثال ذلك في الحواس الظاهرة أن يطلق العنان لبحره في النظر إلى ما لا يحل له أو في النظر إلى المباهاة التي يترتب عاها تمنيات فاسدة ومحاولات غير مجدية كما اذا تعدد النظر إلى امرأة حسناء لا تحل له أو إلى غلام امرء جميل فان ذلك من بواعث تهيج الشهوة وإثارة الوساوس النفسانية . والهواجس الشيطانية التي قد تحمل ضعيف النفس على طاعة شهوته وقضاء لباته فيسعى وراء تلك المرأة أو ذلك الغلام ان وجد لذلك سبيلا ولا ينتقل إلى ما يمكنه الحصول عليه ليرضى شهوته الهائجة ولا يبالي بارتكاب الفاحشة وكذلك قد ينظر إلى ما يملكه غيره من القصور الجميلة والحدائق الفناء ونحو ذلك فتدخل إلى نفسه الوساوس الفاسدة وتزين له انه كان أحق بملك هذا وأن مالكها غير أهل لها فيترتب على ذلك الحقد والحسد والغيرة وما إلى ذلك من الصفات الذميمة التي تضر بالمجتمع الانساني ضررا بليغا . وقل مثل ذلك في حاسة السمع فان الانسان قد يسمع صوتا حسنا من غانية أو غلاما تهيج شهوته ويترتب عليها ما ذكرناه في المثال الاول ومثل ذلك اذا تعدد النظر إلى ما يثير غضبه وهكذا في سائر الحواس الظاهرة كلبس ما لا يحل أو شمه

ومثال ذلك في الحواس الباطنة أن الصور التي تدخل إلى النفس بسبب الحواس الظاهرة تبقى في الخيال ولو كلف عن الاحساس فتترتب عليها الوساوس التي ترتبت على نفس الاحساس وقد تهيج الشهوة

بعامل داخلي محض كما إذا أكل كثيرا أو كان في مزاجه قوة طبيعية تهيج بسببها الشهوة فان كل ذلك تتولد منه الوسوس النفسية والهواجس الشيطانية فواجب العقل بازاء ذلك أن يزجر الحواس عن كل ما يترتب عليه ذلك فلا يسمح لبصره أن يتطلع إلى ما يثير شهوته ولا ينظر إلى ما يحرك غيرته أو يثير غضبه ولا يسمح لسمعه أن يسمع ما يهيج شهوته أو يثير غضبه ومثل ذلك في سائر الحواس. وإذا قد عرفت أن الحواس الظاهرة والباطنة قد تكون سببا في الوسوس الفاسدة والخواطر الضارة فاعلم ايضا أنها قد تكون على العكس من ذلك فأنها إذا استعملت في النظر إلى مصنوعات الله تعالى مثلا وإلى نظمها وفي سماع المواعظ والحكم ونحو ذلك فأنها تفضي إلى خواطر روحانية وهواجس ربانية يترتب عليها اليقين بالله تعالى والبعد عن المعاصي والخطايا وتأييد القلب في حكم الشهوة والغضب والسير بهما في الطريق القويم والصراط المستقيم فالقلب بين عاملين يتنازعانه. وسوس شيطانية. وخواطر ربانية ولكل منهما اسباب ظاهرة واسباب خفية. فأما الاسباب الظاهرة فأنك قد عرفت ما واما الاسباب الخفية فهي الشيطان والملوك فاما الشيطان فانه يعد بالشر ويأمر بالفحشاء ويخوف من هم بعمل الخير بالفقر وأما الملوك فانه يكشف الحق ويعد بالخير ويأمر بالمعروف كما قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فمن كان سعيدا في دنياه وآخرته فانه يحارب وسوس الشيطان ووسائلها ويتردد عن نفسه ما يضعفها من عوامل الشهوات والفساد والله ولي المؤمنين

ما يؤخذ عليه الانسان من تلك الوسوس

وما لا يؤخذ

للانسان حالة قسرية لا اختيار له فيها وتلك الحالة لا يؤخذها الله عليها لأن الله تعالى لا يؤخذ العبد على ما ليس له فيه اختيار قال تعالى : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) اما الحالة الاختيارية فانه يؤخذ عليها إذا وصلت إلى حد الجزم بالفعل ولذا ذكر لك مثلا يوضح ذلك المقام . اذا نظر المكلف إلى امرأة حسناء عفوا بدون قصد فهاجت شهوته فانه لا يؤخذ على ذلك رأسا لأن النظر لم يكن باختياره وهيجان الشهوة أمر طبيعي لا اختيار له فيه أيضا فلا عقاب على شيء من ذلك فاذا أهاجت الشهوة وسوسه وتردد في أنه يتبع هذه المرأة أو لا يتبعها فانه لا يؤخذ على هذا التردد أيضا . فان جزم بذلك وهم بفعل الفاحشة ولكنه لم يفعل خوفا من الله تعالى كتبت له بذلك حسنة لأنه جاهد شهوته وقهرها بعد أن دفعته إلى أخرج المواقف أما إذا لم يفعل خوفا من أمر ديني أو لمانع آخر فانه يعاقب على ما في نفسه وإلى ذلك يشير قوله تعالى (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وقوله صلى الله عليه وسلم « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه » وهذا نص في أن

ارادة قتل صاحبه جزما كاف في العقاب فالذى يؤخذ عليه المرء من حديث النفس هو الجزم بالفعل الاختيارى اما الخواطر التى تعرض وتزول ولا تترتب عليها آثار ففى كالأخطار الاضطرارية لا مؤاخذه على شئ منها

أقسام الشهوة

تنوع الشهوة الى أنواع شتى . شهوة الفرج . شهوة البطن . شهوة البنين . شهوة المال . شهوة الأنعام . شهوة الحرث والزرع . شهوة الجاه وبعد الصيت . شهوة الحكم واستبعاد الناس . وغير ذلك ولكن أشد الشهوات خطراً وأكثرها أثراً شهوة النساء . والأموال . والأولاد والى ذلك يشير قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) الآية فذلك هى الأمور التى يجرى الناس خلفها متزاحمين ويسعون وراءها مسارعين . ففهم من يعرف القدر اللازم له فى حياته ويعرف الطريق السوى التى ينفذ منه اليها فلا يتعثر فى مشيته ولا يضل طريقه المستقيم وذلك هو الذى يغلب عقله على شهوته فلا يسمح لها بالطغيان ولا يرضى لها بالعصيان فيعيش سعيداً فى دنياه ويكون فى آخرته من الفائزين . ومنهم من يطلق لها العنان فلا يعرف لها حداً ولا يقف معها عند نهاية وذلك هو الذى تغلب شهوته عقله فيتخبط فى طريق الوصول اليها ولا يبالي أن يتعدى حدود الله التى حدها لها بل يصرف كل همه الى السعى وراءها من أى طريق والدخول اليها من أى باب ولو كان فى ذلك هلاكه وشقاؤه فى دنياه وآخرته وذلك هو الخسران المبين

شهوة الفرج

ركب الله تعالى فى الانسان شهوة الفرج تركيباً قوياً وجعل لها عليه سلطة شديدة فاذا هاجت كانت أشد الشهوات عصياناً على العقل فلا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً فاذا لم يكن قوى الارادة شجاعاً انقاد لها صاغراً وأطاعها ذليلاً . وانما جعل الله سبحانه تركيب هذه الشهوة على ذلك النحو من القوة والبأس لما يقتضيه نظام الناس ويتطلبه بقاء العمران فى هذه الحياة الدنيا فلولا قوة هذه الشهوة وشدة سلطانها على الانسان لأبى أن يحتمل ما يترتب عليها من مشاق البيوتة وتكاليف الزوجية وتربية الأولاد والكد من أجلهم والرضى بالآلام التى تتأبها اذا مرضوا أو أصيبوا بمكروه الى غير ذلك من

متاعب الترية وأنقاها . خلق الشهوة على هذا النحو من القوة من أوضح الدلائل على قدرة الخالق وكمال علمه وجليل حكمته فان الانسان مسوق الى التناسل رغم انه مقهور على احتمال كل ما يترتب عليه من العناء وهو مع هذا راض كل الرضى . وكذا المرأة فانها ما كانت تستطيع حمل عبء الولادة والحمل ومشاق تربية الاولاد وهم صغار والسهر بهم الليالي والقيام على حراستهم ودفع الاضرار المكروهة عنهم وهم اطفال صغار واحتمال ما يعتريها من الآلام وعدم الراحة لولا هذه الشهوة القوية وأيضاً فان الله قد خلق النساء على حالة من الضعف لا يقدرن معها على احتمال تكاليف الحياة ومشاق الجهاد في معتركها فسخر الله لهن الرجال يحملن عنهن كل ما يعجزن عن احتماله في سبيل حياتهن بدافع هذه الشهوة القوية ولولاها لما كان للنساء هذا السلطان على النفوس

الاسباب المثيرة لشهوة الفرج

وإذ قد علمت أن شهوة الفرج لها من القوة والتأثير هذه المنزلة وأنها إنما خلقت كذلك لحكمة يقتضيا نظام العمران وبقاء التناسل إلى الأمد الذي قدر له . فاعلم أن العقل مشغول عن تصريف هذه الشهوة والوقوف معها عند الحد الذي خلقت من أجله فلا يسمح لها بمجاوزة هذا الحد ولا يذرها تهيج بالوسائل المختلفة بل يجب عليه أن يبعد عن كل المناظر التي تحركها والاسباب التي تبعثها من مكنتها وأن يتبع معها سبيل الاعتدال فلا يفرط فيها ولا يفرط لأن الافراط في شهوة الفرج تشبه بالبهائم والتفريط فيها تشبه بالجناد والاعتدال هو خير الأمور الثلاثة بالانسان أما الاسباب التي تثير هذه الشهوة وتهيجها فهي أمور . النظر . والخلو . وحديث النفس . والغذاء الدسم الكثير . واستعمال بعض العقاقير والمخدرات وغيرها

النظر

فاما النظر إلى من لا يحل سواء أكان أمرد جميلاً أم امرأة حسناء فانه مثير للشهوة وموجب للوساوس النفسانية والخواطر الشيطانية المضعفة لقوة العقل فيتقهقر أمام هذه الشهوة ويفعل كل ما يطلبه منه ولو كان فيه هلكته وفناؤه لهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر إلى من لا يحل النظر اليه وقد ورد في هذا أحاديث كثيرة . منها ما رواه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم » ومنها ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني » إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة النهي عن النظر إلى من لا يحل النظر اليه . وليس النظر إلى الجمال في ذاته منها علة لأن الجمال دليل على عظم الصانع وبديع قدرته وإنما المحرم النظر المفضي إلى تهيج الشهوة وطفانها والتفكير في الاسباب والدواعي التي تسوقه إلى إتيان الفاحشة والقضاء على العفة ومكارم الاخلاق ولذلك لم

بانه عن أول نظرة تصادفه بدون اختياره فاذا وقع بصره على امرأة جميلة عفواً بدون قصد فانه لا يؤخذ على هذا ولو هاجت شهوته وإنما المحرم أن يتبعها بأخرى فيثير شهوته باختياره وينزل تحت حكمها ولا يبالي بحكم العقل والدين. ولذا روى عن جرير رضى الله عنه أنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال اصرف بصرك» رواه مسلم وأبو داود والترمذي فلم يرتب رسول الله ﷺ شيئاً على النظرة الاولى وإنما أمره بصرف بصره فلا يتبع الاولى بغيرها لأنه في هذه الحالة يكون قد خضع لسلطان الشهوة وتعمد إثارتها ورضى أن يتبعها فيما تتطلبه منه وفي هذا من الخطر ما قد علمته. وكما أن النظر المفضى الى اثارة الشهوة حرام على الرجال فهو حرام على النساء أيضاً فلا يحل لمن أن ينظر الى رجل بشهوة ولو كان أعمى أما النظر بدون شهوة فانه لا حرج فيه فلو نظر الى غلام أمرد جميل أو الى وجه امرأة نظراً خالياً من الشهوة واللذة فانه ليس بحرام حتى ولو أدرك معنى الجمال فان هناك فرقاً بين الانفعال الحاصل للنفس عند ثوران الشهوة وبين تكيفها بمعنى الجمال. مثلاً اذا نظر الى شجر نضر، أو نبات منسق بالأزهار المختلفة، أو نظر الى ثريات الانوار المنتظمة فانه بلا ريب يدرك معنى جملاً تتكيف به نفسه ولكن لا يبعث هذا الادراك الى المعنى الذى تتطلبه الشهوة من تقييل الأزهار أو عناقها مثلاً فالنهي على الحقيقة إنما هو عن اثارة الشهوة والاندفاع معها الى ما لا يحل. على أن الاولى للانسان البعد عن النظر الى ما عساه أن يهيج الشهوة على أى حال فانه قد يقع في شرك الشهوة من حيث لا يدري وقد يترتب على النظر بلاء وفتنة للراء لا يستطيع الافلات منها كما اذا أوقعه النظر الى الجمال في العشق والغرام ولم يكن له قدرة على الوصول الى معشوقه فانه في هذه الحالة لم يستفد سوى تعذيب القلب وشغل النفس بما لا يجديه نفعا وقد يوقعه ذلك في أشد الأخطار وأصعب المحن كما وقع لكثير من العشاق الذين هلكوا بسبب الهجران أو أضاعوا دينهم وكرامتهم مرضاة لمعشوقهم وذلك هو البلاء المبين ويعبئني في هذا المعنى قول بعضهم.

وكنت اذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتبعك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فينبى للراء أن لا يجعل بصره رائداً لقلبه فيقوده الى ما لا يستطيعه وفي هذا خطر جسيم. وبلاء عظيم

الخلوة

واذا كان النظر الى من لا يحل النظر اليه بقصد التلذذ به محرماً فالخلوة بمن لا تحل محرمه من باب أولى لان الوسواس الشيطانية تجد لها مجالاً في هذه الحالة وثوران الشهوة يجد له مبرراً فيضعف العقل عند هذا ولم يكن له تأثير على زجر الشهوة قسوة الى ارتكاب الفاحشة كما يسوق الرجل دابته المطيعة لهذا نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم» رواه البخارى ومسلم

وعن عتبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « قال إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحم قال الحم الموت » وقد فسر بعضهم الحم بأنه أبو الزوج وأخوه وعمه وابن عمه ونحوهم وقيل المراد أقارب الزوج أو أقارب الزوجة ومعنى قول رسول الله ﷺ الحم الموت أنه يموت ولا يفعل ذلك . وإذا كان فيه رواية عن نبي أبي الزوج عن الخلوة بامرأة ابنه مع كونه محرماً فما ظنك بالقريب الذي ليس بمحرم لاشك أن في ذلك منتهى الزجر عن الخلوة بالمرأة التي تشهى ولو كان لا يحل له تزوجها كأخت امرأته . وعمتها . وخالتها . وامرأة ابنه . بل وأم امرأته خصوصاً عند فساد الزمان فإن كثيراً من الناس أصبحوا عبيداً لشهواتهم وأصبحت أنفسهم ضعيفة لا تقوى على التفكير في نتائج الفاحشة وفنائتها فخير للمرء أن يتجنب الوسائل التي تهيجها وتسلطها عليه

حديث النفس ووساوسها

وأما حديث النفس ووساوسها فقد تقدم الكلام فيه وقد علمت أنه إنما يترتب على الحواس الظاهرة . أو الباطنة كالنظر . واللبس . وغير ذلك إذا أسى . استعمالها فارجع إليه إن شئت

الغذاء الدسم أو شهوة البطن

إن شهوة البطن من شر الآفات التي تجعل المرء عرضة للأخطار ومهدداً للأمراض البدنية والعقلية فهي سبب في كثير من الأمراض التي تنتاب البدن وربما أفضت به إلى الهلاك كما أنها سبب في بلاء العقل وضعف سلطانه على البدن . لذلك ورد في السنة كثير من الأحاديث التي تنهى عن الشبع وملء البطن منها ما روى عن المقداد بن معديكرب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ماملأ آدمى وعاء شراً من البطن بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلاث لطعامه وثلاث لشربه وثلاث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه وفي هذا الحديث إشارة صريحة إلى أن الغذاء الذي يحتاج إليه الإنسان في قوام حياته يسير لا يملأ تلك المعدة وأن الاقتصار عليه نافع للإنسان فإن أبي إلا أن يأكل كثيراً فيجب أن لا يزيد على ثلث المعدة لترك الثلثين الباقيين للشرب والنفس وليس معنى كونه يترك الثلث للنفس أن يتنفس من المعدة كما قد يظنه بعض العامة بل المراد أن ملء المعدة ينشأ منه مضايقة الرئتين والقلب فيضر النفس ضرراً واضحاً

وهذا من أجل الحكم وأعظمها قدراً فإن التجارب دلت دلالة قاطعة على أن معظم الأمراض التي تنتاب الإنسان مصدرها المعدة وكثرة الطعام فكلما أمعن الناس في التثني والتفنن في أنواع الطعام كلما كثرت امراضهم وتفتشت بينهم الأدوية . وكثير منهم يذهب ضحية الشره وملء البطن فلو قشست القبور لوجدتها مملوءة بضحايا كل اللحوم الكثيرة والأدهان والحلوى ونحوها وقد أجمع علماء الأبدان

(الاطباء) على أن الغذاء الزائد على حاجة الانسان شديد الضرر وأن خير علاج للأمراض الكف عن الشره وإعطاء المعدة القدر الذى تحتاج اليه من الغذاء

فاذا لم يكن فى الشره والاكل الكثير سوى ذلك الضرر المادى المحسوس لكان كافياً فى زجر النفس والوقوف بها عند الحد المطلوب منه فما بالك إذا كانت فيه غوائل أخرى تضر بالاخلاق وتؤثر فى الدين وتقضى على سلطان العقل . ومن أهم تلك العوامل أنه مشير لشهوة الفرج التى سبق الكلام فيها بل الشبع أشد تأثيراً فى تهيجها من النظر لان النظر أمر خارجى يستطيع العاقل أن ينصرف عنه بدون عناء . أما الشبع فهو أمر داخلى موجود مع المرء مادام شعبان . فاما المتزوج فقد تحمله شهوته على الافراط مع أهله فيضر بصحته ضرراً بليغاً وربما دفعه هيجان الشهوة والخضوع لمطالبها إلى ارتكاب الفاحشة مع غير زوجته شرها ولثوماً . وأما الاعزب فان هيجان شهوة الفرج عنده من أخطر الامور عليه وأشدّها ضرراً به فان سلطان العقل فى هذه الحالة يضعف وأمره ونبيه يذهبان سدى فإذا اعتدل الانسان فى غذائه واقتصر على القدر الذى يحتاج اليه بدنه ويكفى لمعدته اعتدلت شهوته واستطاع أن يوقفها عند الحد المطلوب منها

ومن مضار الاكل الكثير ثقل الجسم المفضى إلى الكسل وترك العمل المطلوب للدين والدنيا فان الاكل يزيد وزن جسمه فيثقل ويذهب نشاطه وخفته ويكثر نومه فلا يؤدى واجبه على الوجه المطلوب منه

روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت « أول بلاء حدث فى هذه الامة بعد نبينا الشبع فان القوم لما شبعوا بطونهم سمنت أبدانهم فضعت قلوبهم وجمحت شهواتهم » رواه البخارى فى كتاب الضعفاء . وقال رسول الله ﷺ « إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة » رواه البخارى ومسلم فالشره فى الطعام ضار بالابدان ضار بالعقول ضار بالدين لذلك نهى عنه الشريعة الاسلامية وحذرت الناس من شره وليس المراد النهى عن التمتع بنعم الله تعالى والطيبات من الرزق (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإنما المحرم هو القدر الضار بالابدان والعقول فالشريعة الاسلامية تنهى الناس عن استعمال وسائل الهلاك سواء كانت مادية أو معنوية وتحذر الناس تحذيراً شديداً من الافراط فى الشهوات على اختلاف انواعها وكذلك تنهى عن التفريط فيها فان الله سبحانه ما خلقها الا ليتنعم بها عباده ولكن الحذق والمهارة انما هو فى الوقوف معها عند الحد الذى خاقت من أجله ولا ريب فى أن القدر المباح من الشهوات الذى لا يترتب عليه ضرر للجسم والعقل كاف فى التمتع بل هو عين النعيم وما زاد عليه شقاء وبلاء فان الانسان إذا أكل من كل شئ مباح يشتهي قدراً يسيراً لا يضايق المعدة فانه يتلذذ لذة لا يعقبها ألم . ولا ينشأ منها ضرر وذلك هو معنى النعيم الصحيح أما اذا أفرط فى غذائه وأكثرت تناول الانواع المختلفة فقد كلف معدته حملاً ثقيلاً لا يستطيع النهوض به وكلف باقى أعضاء البدن ما لا طاقة لها به وتلك لذة من شر اللذات لان عاقبتها بلاء وسقم فواجب على العاقل أن يمنعها ويكف عنها . وكذلك الحال فى شهوة الفرج ووسائل اللذات

ومن هنا قال رسول الله ﷺ « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشققون في الكلام فأولئك شرار أمتي » رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط . وبديهي أن ذلك الحديث يتضمن نهيًا شديدًا عن الشره في الطعام والاسراف في الشهوات . وإنما النهي عن ذلك القدر الذي قرناه لك وهو الافراط في الشهوات والخروج بها عن حدها الذي خلقها الله من أجله وهو ضار بالإنسان ضررًا بليغًا خصوصًا إذا أضفت به الرفاهية التي ترك الواجبات الدينية والدينية وأصبح لا يعبئ من حياته إلا التفتن في أنواع الطعام والشراب والتفتن في الزينة واللباس والتشقق في الكلام الذي لا يفيد فانه في هذه الحالة يخرج عن معنى الإنسان ويكون أقرب شبهًا بالحيوان

استعمال العقاقير المهيجة لشهوة الفرج

من الناس من تستولي عليه تلك الشهوة وتملكه من جميع نواحيه فيصبح كالعبد المخلص لمولاه في غيبته وحضوره لا يفكر إلا في طاعته ولا يعمل إلا فيما يرضيه فترى كثيرًا من هؤلاء تسكن فيهم تلك الشهوة بسبب طبيعى فيسعون في انارتها وتهيجها باستعمال العقاقير وتعاطى المخدرات وذلك منتهى الحماقة والجنون فانك اذا سمعت ان انسانا نام عنه عدوه وانصرف عنه فاذا به يسعى لا يقاظه وإثارته عليه فانك لا تتردد في الحكم عليه بانه مجنون لا ينضبط له عمل ولا يقام له وزن . كذلك شأن من تسكن شهوته بطبيعتها فيهيجه بالعقاقير والمخدرات فاذا ما اجت اصابه من شرها في دينه وديناه ما كان في مأمن منه وفي غنى عنه وعجيب أن مثل هؤلاء لا يفكر الواحد منهم فيما يعود عليه من الاضرار التي تنشأ من استعمال العقاقير والمخدرات فوق الاضرار التي ترتب على شهوة الفرج فان تلك العقاقير ينشأ منها للبدن أضرار قد تقضى به الى الهلاك فضلا عما يترتب عليها من التأثير على العقل ومخالفة الدين فشهوة الفرج اذا طغت وخرجت عن الحد الذي خلقت له تجر وارءها من البلاء والأذى ما لا يقف عند حد . فيجب على المرء ان يجعل للعقل سلطانا كاملا على تلك الشهوة فلا يصرفها الا حيث يأمن غائلتها في دينه وبدنه وماله فليس من الحكمة ان تسوق تلك الشهوة الى تعاطى الحشيش والمخدرات والسموم التي يظن انها مثيرة لها فيقضى بذلك على عقله وبدنه وماله ودينه وكرامته وعند ذلك يندم حيث لا ينفعه الندم ولا تغنى عنه تلك الشهوة شيئا

الزنا واللواط

وشر مضار شهوة الفرج على النوع الانساني الزنا واللواط ولهذا قد ورد النهي عنها في كتاب الله تعالى وسماها سبحانه فاحشة قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) وقال تعالى في توبيخ آل لوط (ان اتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الآية وقد حرم الفواحش صريحا بقوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولقد وردت في النهي عن الزنا

والمواط أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وكفى بذلك زاجراً للزاني لأنه في حالة زناه ينزع الله منه الإيمان كما ورد في حديث آخر رواه أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة فإذا اقلع رجع إليه الإيمان » فالزاني الذي لا يتوب من جريمته ولا يتدم على فعلته لا يعود إليه إيمانه ولا يحسب في عداد المؤمنين الذين يرجون رحمة الله تعالى ورضوانه . وكذلك اللواط فقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة منها ما رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سمواته وردد اللعنة على كل واحد منهم ثلاثاً . ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه . قال ملعون من عمل قوم لوط . ملعون من عمل قوم لوط . ملعون من عمل قوم لوط . ملعون من عمل قوم لوط . ملعون من أتى شيئاً من البهائم . ملعون من عقى والديه . ملعون من جمع بين امرأ أو ابنتها ملعون من غير حدود الأرض . ملعون من ادعى إلى غير مواليه » إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة زجراً شديداً عن هاتين الجريمتين . وما كان الله تعالى ورسوله ليحرما على الناس لذة من اللذات إلا لما يترتب عليها من المضار والمفاسد التي تلحق النوع الإنساني فتؤذي ماديها أو أدبيها . ولا ريب في أن مضار الزنا المسادية والأدبية لا تخفى على أحد من العقلاء . ولكن سلطان تلك الشهوة الفاسية يلهمي الزناة عن تلك المضار وينسبهم عظمة الله الواحد القهار الذي نهاهم عن اقتراف تلك الجريمة وأوعدها عليها شر العقاب وسوء المصير . ولو قام العقل بأداء واجبه واستعرض المضار التي تترتب على الزنا وزجر تلك الشهوة البهيمية وحذرهما عاقبة الزنا وشره في الدنيا وعذاب الله في الآخرة لوقفت عند الحد الذي خلقت من أجله وأمن الإنسان شرهما . فمن مضار الزنا وآثره السيئة في المجتمع الإنساني ضياع النسل والجناية عليه فالزاني والزانية لو أدركا ما قد يترتب على زنيتهما التي تقضي على الفور من الآثام لكان عليهما أن يفنيا من هذا الوجود ولا يرتكبا تلك الجريمة فقد يترتب على عملهما وجود ولد قد تتخذه تلك العاهرة في مهده . وقد تسقطه جنينا . وقد تلده إنسانا كاملاً ثم تنبذه بالعراء معرضاً لمحن الحياة ومصائب الأيام . لا يعرف له أمأً تحنو عليه . ولا أباً يرحم طفولته ويحفل بتربيته وقد تقذف به الأقدار في حضنة من يريه على غير دين أبويه أو على أخلاق فاسدة فينشأ عضواً ضاراً بالمجتمع الإنساني وذلك بلاء عظيم وضرب مبین . فإذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنابتها أعظم فإنها تدخل عنصراً غريباً بين أبنائها تغش به زوجها وقد يكون في آخر أمره نكبة على الأسرة بتمامها فإنه قد ينزع إلى أيه الحقيقي ويتبعه في أخلاقه وقساده

قد يقول بعض الفساق إنه يمكن اتقاء خطر هذا باستعمال الوسائل التي تمنع الحمل والولادة وتلك لعمر الله أشد ضرراً على المجتمع الإنساني وأكبر جناية على العمران فإن هذه البدعة إذا فشت في أمة انقرضت جميعها في وقت قريب لأنها تكون قد قضت يدها على ذريتها ونسلها وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدراكاً من الحيوانات التي تناسل وتتوالد لبقاء العمران إلى الأبد الذي أراده الله . وأي جناية أكبر من أن يصبح الإنسان لاهماً له في هذه الحياة الاتقاء شهوة بهيمية

لا يعرف لها غاية . ولا يدرك لها ثمرة مع انها لم تخلق الا للتاسل وبقاء النوع الانساني . فاذا وجد بين الناس ذنب من الذناب او بهيمة من البهيم لا يقدر ذلك ولا يحفل به فاذا يصنع في الاعتداء على اعراض الناس وافساد اخلاق نسائهم وبناتهم وأهليهم بل افساد اخلاق نسائه وبناته واهله في آخر الامر وای وسيلة يتق بها ذلك الخطر الا يظن أن الجناية على الاعراض اشد ضررا واسوأ اثرا من الجنايات على الاموال فان الرجل يسهل على نفسه ان يضحى ماله في سبيل المحافظة على عفاف زوجه او بنته او اخته او اهله بل كثير من الناس يهون عليه الموت والفناء في سبيل ذلك . فليتصور الزاني والزانية قبل الاقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف وأن الزوج أو الأخ أو الأب داهمهما وهما على تلك الحالة فاذا يكون موقفها حينئذ . هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان بمن داهمهما او تخور عرائسهما وتنخلع قلوبهما وتكاد ارواحهما تزهرق ولا يبقى للشهوة في تلك اللحظة اثر كأنها لم تخلق فيهما من قبل ثم ليتصورا ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين او الاب او الاخ او القريب الذي يتعير بتلك الفاجرة افلا يهون عليه في هذه الحالة ان يضحى بكل ماله ولو خير بين ضياع المال وهذه الحالة لا اختار ضياع المال بلا نزاع وكثير من الناس يطيش له من هول ذلك المنظر فيقتلهم ثم يقتل نفسه وهو لا يدري . وليس ذلك من باب الفرض والتقدير وانما هو أمر كثير الوقوع بين الناس وقد تكرر غير مرة . وهذا يدل دلالة محسوسة على فظاعة تلك الجريمة وصعوبة اثرها على نفوس من لهم علاقة بالزانية فما بال الزناة لا يقدررون ذلك حق قدره ويعلمون أنهم ان نجحوا في الدنيا من الفضيحة فأنهم سيفتضحون في الآخرة وأنهم سيؤدبون ثم ذلك لأصحاب الحقوق غالبا يوم يسأل الظالمون عن اعمالهم ولا يجدون لهم ولها ولا نصير افساقون الى جهنم وبئس المصير . ألا يعلمون أنهم ان ستروا أنفسهم عن اعين ولاية امر الزانية فان الله مطلع عليهم وانه خير بأعمالهم وانه لن يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها من حسنات هؤلاء المجرمين ان كانت لهم حسنات او يحملهم سيئات ارباب الحقوق ان لم تكن لهم حسنات ثم يساقون الى العذاب الاليم . فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعميت بصائرهم واصبحوا لا يبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ولا يحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا افلا ينبغي لهم ان يحسبوا حساب نسائهم وذريتهم فان الزاني لا بد ان يهجر زوجه ان كان متزوجا فيحملها ذلك على البغاء مثله ويكون هو وزوجه مثالا سيئا لذريتهما وفي ذلك من فساد الاخلاق ما فيه وقد ورد ما يشير الى ذلك في السنة المطهرة فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا نساءكم» رواه الطبراني باسناد حسن . ومعنى هذا أن العفة تجعل الرجل قاصرا على زوجه فتستغنى به عن غيره ومتى كانت المرأة ذات عفاف والرجل صالحا ذاعفة . نشأ من بينهما أبناء صالحون وذرية تقتضى أنهما وتقتدى بهما وذلك هو الأدب ومكارم الاخلاق التي يدعو اليها دين الاسلام ويأمر بها الناس في كل حركة وسكون . فاذا وجد فريق من الناس لا يبالى بنسل ولا يحفل بعرض ولا يعنيه أن يفسد نساءه وذريته كما لا يضره فساد نساء الناس وذرائعهم فذلك مالا يصح اقتناعه لأنه يكون قد انحط عن درجة حمار الوحش والقردة وغيرهما من بعض الحيوانات التي تغار على اثائها فاذا فشت هذه الروح في أمة من الأمم — وهي روح الاباحة

والفوضى — فانها تزول سريعاً . وتنقرض عاجلاً . ولا يبقى لها ظل في الوجود . وأظن أن ذلك كاف في زجر النفس عن الزنا فلا حاجة إلى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التي تترتب على اختلاط الزناة ببعضهم ذلك الاختلاط الممقوت منها اتخذوا من أساليب الحيلة والحذر فان ذلك الاختلاط لا بد أن يكون له أثره على أى حال ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات فانك ترى كثيراً من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة وأصبحوا لاقيمة لهم في الوجود وترى كثيراً منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء أشلاء بسبب هيامهم بزانية وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى فمن أجل ذلك حرمة الشريعة الإسلامية تحريماً شديداً وقرنه الله تعالى بالشرك والموبقات الكبيرة في قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب)

أما اللواط فانه رذيلة من أسوأ الرذائل وخصلة من شر الخصال التي لا تليق بالإنسان فان الله قد خاق الإنسان من ذكر وأنثى وجعل الأنثى محلاً لقضاء تلك الشهوة ومكاناً لذلك العمل الخاص فهو مسوق بفطرته إلى ذلك المعنى ومخلوق بحسب نظام الكون على تلك الحالة . واللواط خروج غريب عن النظام الفطرى واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الإنسان لانه يقلب الذكر أنثى ويجعل الرجل كالمرأة في أخص أوصافها التي خلقت لها وذلك شر وبيل وفساد كبير . ومن أجل ذلك يقول الله تعالى توبخا لآل لوط (أنأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) ويؤخذ من تلك الآية الكريمة أنهم أول من خرج عن طبيعة الإنسان في ذلك فدفعتهم شهواتهم الفاسدة إلى تغيير خاق الله وقلب نظام الطبيعة فسفوا تلك العادة الشائنة وجعلوا الرجال محلاً للشهوة التي اختصت بالنساء وبجيب أن نرى عدوى تلك العادة تنتقل من هؤلاء الأشرار — الذين خسف الله بهم — إلى غيرهم من النوع الإنساني مع أنها لم تسجد توجد في الحيوانات الأخرى . فانك لا تسجد تجد حيواناً من الذكور يأتي ذكراً مثله في دبره اللهم إلا قليلاً نادراً كيعض الحر الأهلية على أن من الحيوانات من يشعر بعار تلك الخصلة ويحس بما يحق بالمفعول به من الذلة والهوان . كالجل فانه إذا أريد إذلاله يؤتى له بحمل آخر يركب فوقه ويحاول إثباته ومتى فعل معه ذلك يصبح مكروباً ذليلاً . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة فانه تعالى يقول لهم إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين والعالم كل ما سوى الله فيشمل الإنسان والحيوان

وإذا كان الإنسان تسوقه شهوته إلى أن يفعل ما ناباه نفوس الحيوانات العجاء فإذا يكون حاله . أليس من أكبر المصائب أن تحط درجة الإنسان في شهوة الفرج عن درجة الحيوان . اللهم إن في ذلك من الخزي والعار مالا نطقه النفوس الكريمة . ولا تحتمله الطباع السليمة فإذا لم يكن في رذيلة اللواط سوى ذلك لكفى بها ذماً بصرف عنها الناس ويزهدهم فيها ولكنها فوق ذلك يترتب عليها من المضار والمفاسد ما يؤذى المجتمع الإنساني وينافي طبيعة العمران . واليك البيان . أولاً إذا فسدت تلك العادة في أمة من الأمم وأصبحت داء خلقياً فيها لا تلبث أن تتعرض للقضاء بانقراض

نسلها ولو بعد حين لأن الرجال فيها تنصرف لاحتالة عن النساء فيقل النسل تدريجاً وتقرض الأمة في وقت ما . ثانياً أن اللواط يستغنى بالله كره المرأة فإن كان متزوجاً يمل زوجه فيعرضها للخنا والفساد . وإن كان أعزب لا يفكر في الحصول على زواج أبداً وإذا عمت اللواط أمة استغنت رجالها عن نساها وأصبحت النساء ضائعات لا يجدن موثلاً . ولا يظفرن بمعين يرحم ضعفهن وفي ذلك من الخطر الاجتماعي والعمراني ما فيه .

لعل بعضهم يقول إن النساء كالرجال يمكن استعمالهن كذلك فالحاجة اليهن مستمرة . ولكن المعروف عن اللواط أن داء يبعث إلى الذكور خاصة . فداء اللواط مآله الانصراف عن النساء على أي حال . ومع ذلك فإن إتيان النساء في غير محل الولد عادة مردولة يترتب عليها ضياع النسل كما قد مناه لك آتفاً . ثالثاً إن اللواط لا يبالي أن يستهوى الأحداث الذين لا يدركون العار ولا يعرفون الفضيحة فيمرنهم على فساد الاخلاق ويولد عندهم ذلك الداء فاذا ما بلغوا حد الرجولة وجدوا أنفسهم منغمسين في الرذيلة فيضيع الحياء من وجوههم ولا يباليون بارتكاب الجرائم الاخلاقية ولا يتعففون عن المحرمات الدينية ويكون وزر ذلك في عنق هذا اللواط الذي عمل على إفساد أخلاقهم وكان سبباً في نزع ماء الحياء من وجوههم وذلك عظيم عند الله تعالى ومن يفعله يضاعف له العذاب يوم القيامة لأن عليه وزرين ووزر ذلك العمل الشائن ووزر إفساد الغلام الذي لم يكلف فسحاً لتلك الشهوة الفاسدة التي تخلف وراءها ذلك البلاء المبين والعار المبين

رابعاً أن داء اللواط قد يوقعه في الغرام بغلام لا يستطيع الوصول الى اتيانه فيكون ذلك سبباً في تهتكه وضياع شرفه ودينه وعرضه ومروءته وقد يفضى به ذلك الى ارتكاب الجرائم الاخلاقية جميعها بدون مبالاة فيموت قلبه ويضيع حياؤه ويصبح عضواً فاسداً لا يخشى فضيحة ولا يخاف عاراً وقد يكون ذلك سبباً في هلاكه في الدنيا وله في الآخرة سوء العذاب

ذلك بعض مضار اللواط وهي كما ترى لها من الأثر السيء في أخلاق الناس ما يؤذى المجتمع الانساني ويضر بطبيعة العمران . ومن أجل ذلك قال الله تعالى لآل لوط (بل أنتم قوم مسرفون) وقال لهم في موضع آخر (بل أنتم قوم تجهلون) فانهم حقاً يجهلون نظم الطبيعة ونواميس العمران ويجهلون فوق ذلك ما يترتب على ذلك العمل من المضار التي تؤذى المجتمع الانساني كما علمت آتفاً ولقد غضب الله على آل لوط غضباً شديداً فلم يؤخر عذابهم الى يوم القيامة بل عذبهم في الدنيا فطبق عليهم مدائنهم التي كانوا يسكنونها وجعل عاليها سافلها ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . فرحم الله امرأة أثرت في نفسه العظاات وزجرته الزواجر فلم يجعل للشهوات الفاسدة القاتلة عليه سلطاناً . وقاتل الله من اتبع غيه وهواه وانقاد لتلك الشهوة الذميمة حتى صار كالأنعام بل هو أضل سبيلاً

شهوة المال

تفاوت أغراض الناس في طلب المال

تختلف طباع الناس وأغراضهم في طلب المال اختلافا عظيما كاختلافهم في كل ما يرون فيه السعادة والنعيم فمنهم من يقدس المال في ذاته ويعتبره مقصدا من المقاصد التي يجدى في الحصول عليه اكبر لذة ويرى في المحافظة عليه أكبر نعمة وإن لم يصل به الى أى غرض من أغراض الحياة ماديا كانت أو أدبيا بل همه منحصر في كثره وادخاره وهؤلاء هم البخلاء الذين يحرصون على القليل منه كما يحرصون على الكثير ويبخلون على أنفسهم وأهليهم بما قد يكون ضروريا للحياة ولا ريب في أن طبائع هذه الفئة قد انعكست وأحوالهم قد تبدلت فهم يعيشون عيشة الفقراء ويحاسبون حساب الاغنياء ولقد ورد في ذم هؤلاء كثير من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه في مبحث البخل

ومن الناس من يطلب المال لينفقه في سبيل شهواته سواء أكانت حلالا أم حراما ضارة أم نافعة وهؤلاء هم المبدرون الذين يجعلون المال وسيلة للشهوات الفاسدة واللذات القاتلة وهم أشد ضررا على أنفسهم وعلى المجتمع الانساني من فريق البخلاء لأنهم سرعان ما يقضون على مالههم ويعيشون عالة على أمتهم فضلا عما تجره شهواتهم ورادها من الشرور والمفاسد

ومن الناس من يحصل المال ليكون ذا عظمة في أعين الناس ومكانة في أنفسهم كي يتصدرهم في مجالسهم ويرأسهم في محافلهم ويتقدمهم في الشؤون العامة والخاصة وسيطر عليهم في احوالهم ويكون له السلطان التام . وهؤلاء قسمان قسم يظن أن المال وحده كاف في ذلك فيحب العظمة من غير بذل والسيطرة من غير اتفاق وهذا الفريق ينعكس عليه الغرض فان حب العظمة مع الشح سبب في السخرية والاستهزاء ويعجبنى قول بعضهم

عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن * لكنه يشتري مدحا بمجان

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وقسم يبذل المال ليكون عظيما ذا نفوذ وسلطان وهذا الفريق اذا هذب مقصده وحسنت نيته فإنه ينتفع بهذا الخلق انتفاعا عظيما فإنه اذا أنفق الفضل من ماله في أعمال البر والاحسان مرضاة الله تعالى فان الناس يعظمونه بطبيعتهم ويحلمونه بفطرتهم والانسان أسير الاحسان وقد قيل

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فليس في حاجة الى أن يشتري العظمة والجاه بالمال وإنما هو يشتري ما عند الله من الرضى والثواب وذلك وحده كاف في حصول غرضه الذي يريده «ولنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نواه»

أما من جعل المال وسيلة للعظمة والكبرياء واستعباد خلق الله واذلالهم فلا يزال أن يرشى الحاكم ليستبدله بمن يريد ولا يزال أن ينفق المال في اغراء الأشرار على ايداء من يحب ايداءه ولا يزال أن ينفق المال في التكيل بخصمه ظلما وعدوانا فذلك مفتون بما له فتنة شديدة نعوذ بالله من شرها لأن المال في هذه الحالة يكون شرا ويلا على صاحبه يفضى به لا محالة الى غضب الله وعقابه الشديد وذلك هو الحشران المبين

ومن الناس من يطلب المال ليستعين به على خيري الدنيا والآخرة فيربي به ابناءه تربية سالحة تنفع المجتمع الانساني ويصل به رحمه ويواسي منه الفقراء والمساكين وينفق منه على أعمال البر والاحسان ويحفظ به كرامته ويصون به عرضه ويستمتع منه بما أباحه الله له من الحلال الطيب من غير تبذير ولا تقتير ينفق منه ما فرضه الله عليه وهو قرير العين منشرح الصدر . فذلك هو الموفق الذي يكون المال له مطية للآخرة وسفينة للنجاة ينفعه في حياته وبعد مماته ويخلد له ذكرى سالحة في الدنيا وله عند ربه أحسن الجزاء

مدح المال وذمه

والكلام في السعادة

أما وقد علت تفاوت أغراض الناس في جمع المال وتباين مقاصدهم ونزعاتهم في الحصول عليه فانه يمكنك أن تمدحه وتذمه باعتبارين مختلفين فكلما كان الغرض شريفاً والرغبة صحيحة كان المال بمدوحاً وبالعكس . وكذا الحال في جميع أحكام الشريعة الاسلامية وقضاياها فانها إنما تنظر إلى جلب المصالح ودرء المفاسد كما تقدم .

فيمدح المال إذا كان طريقاً للخير ووسيلة للسعادة الحقيقية وهي النعم الدائم الذي لا ينفى والملك المقيم الذي لن يزول . وذلك هو نعيم الجنة في الحياة الآخرة . ومن أجل ذلك قال الله عز وجل (وأما الذين سعدوا ففى الجنة) الآية أما ما عدا ذلك من لذات الدنيا ونيعمها فان الحصول عليه ليس سعادة حقيقية لانه مقترن بالنناء . والجهل . والعجز . والفقر . والسعادة إنما تتحقق بالبقاء الدائم . والعلم الكامل . والقدرة بلا عجز . والغنى الذى لا يراحمه الفقر . ولن يكون هذا إلا فى الدار الآخرة حيث يكون النعيم الدائم والملك المقيم

واقدر جعل الله سبحانه سعادة الآخرة مرتبطة بوسائل في هذه الحياة الدنيا لا تدرك إلا باتباعها ولا تنال إلا بالحصول عليها قال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) الآية فإذا سميت وسائل السعادة سعادة كانت جذيرة بهذه التسمية

أما وسائل السعادة فهى أمور منها الفضائل النفسية . والأخلاق الدينية الكريمة التى حث الدين على التخلق بها . وأصول هذه الفضائل أربعة أشياء . الأول العقل وإنما يكمل العقل بالعلم . الثانى العفة وإنما تكمل بالورع . الثالث الشجاعة وإنما تكمل بالمجاهدة . الرابع العدل والانصاف

ومنها المال الحلال اذا أنفق في طريق حلال . ومنها الصحة . والعافية اذا استعملت في طاعة الله . فذلك أهم وسائل السعادة الآخروية وما عداها تابع لها ومتفرع عليها فيجب على العاقل أن يسعى لاستكمال فضائل نفسه فيتعلم العلم النافع الذي هو أكبر عون للعقل على سلوك الطريق القويم وأن يتخلق بخلق العفة كي يقف مع الشهوات عند الحد الذي خلقت من أجله فلا يذرهما تطفئ عليه . وأن يتورع عما في أيدي الناس من متاع الدنيا ولذاتها بما لا يحل له . وأن يكون شجاعاً يناضل عن الفضيلة . فيقول الحق . ويفعل الحق . ويدفع عن المجتمع الانساني كل ما يضره في دينه وماله . وعرضه . وأن يعدل في قوله وفعله فينصف الناس من نفسه ومن غيره وأن يعمل على ما يحفظ صحته ويصونها من الضعف فلا يفرط في الشهوات الضارة ببدنه ولا يعمل ما يؤذي به كي يقوى على أداء الحقوق الدينية وأن يسعى لتحصيل المال من طريق حلال كي يستعين به على أداء الواجبات الدينية والحقوق الانسانية من حج . وصدقة واطاعة لمهوف . واعانة باتس . وخدمة وطن . بإنشاء الأعمال الخيرية من مساجد . ومعاهد . وملاجئ . يأوى إليها اليتيم والمضطرب الى غير ذلك من أعمال البر والاحسان فان المال هو الذي يستطيع به مرید السعادة أن ينفقه في كل هذه الأمور وقد يساعد المال على تحصيل الفضائل النفسية أيضاً فان صاحب المال يسهل عليه الحصول على العلم والعفة ووسائل الصحة أكثر من غيره فمن فعل ذلك وهو مؤمن فقد أطاع الله تعالى وسعى للآخرة سعيها فكان سعيداً موفقاً فمن هذه الجهة يكون المال ممدوحاً كل المدح لأنه في هذه الحالة يكون وسيلة هامة من وسائل السعادة التي يجب على كل مؤمن أن يسعى لها ويعمل للحصول عليها

من أجل ذلك سمي الله تعالى المال خيراً في مواضع من القرآن الكريم قال تعالى :
(ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) الآية والخير في اللغة ضد الشر وهو قسمان خير مطلق وهو ما كان مرغوباً فيه من جميع نواحيه كالفضائل النفسية وخير مقيد وهو ما كان مرغوباً فيه من جهة دون جهة كالمال الذي تتكلم فيه فانه قد يكون خيراً لشخص . وشرأ ووبالاً على آخر كما علمت . لهذا قال رسول الله ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد والطبراني بسند صحيح وقال تعالى يمتنأ على بعض عباده (يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين) الآية الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مدح المال . أما ما ورد منها في ذمه أو ذم الدنيا فهو محمول على ما اذا أنفق في غير طريقه . أو جاء من طريق حرام وكذلك الأحاديث الواردة في ذم الدنيا فاذا سمعت حديثاً فيه ذم للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالات المذمومة التي تنشأ من المال واذا سمعت حديثاً فيه مدح للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالة الممدوحة التي يساعد عليها المال . وذلك لأن الشريعة الاسلامية على صاحبها أفضل الصلاة . وأزكى التحية . كالطيب الخاذق الذي يصف لكل حالة علاجها ولا يتعلق له غرض بعقائير الدواب في ذاتها وانما كل همه منصرف الى محاربة المرض ونجاة المريض فكل ماتعنى به الشريعة الاسلامية انما هو تأديب النفوس وتطهيرها من أدران الشهوات وأقذارها والعمل في هذه الحياة على ما تقتضيه الحكمة وتتطلبه مكارم الأخلاق يدل على ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفق في حقه أنابه الله عليه وأورده جنته ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفق في غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة يقول الله (كلما خبت زدناهم سعيراً) » رواه البيهقي وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها ورب متخوض فيما اشتبهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات

فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن جمع المال من طريق حلال وأنفاقه في طريقه المشروعة ممدوح في نظر الشريعة الإسلامية يثاب عليه فاعله ويدخل به الجنة . أما جمعه من طريق حرام وأنفاقه في الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة على الوجه الذي يباه لك فإنه مذموم ولصاحبه النار يوم القيامة . وأشار رسول الله ﷺ بقوله خضرة حلوة إلى أن اللون الأخضر يلفت النظر لوضوحه . والحلاوة تجذب الإنسان إليها . فالدنيا مرغوب فيها بطبيعتها تجذب إليها الناس قسراً ولكن الوصول إليها محوط بالأخطار . وفي الإنسان عوامل الشهوات ودواعي اللذات تسوقه إليها سوقاً عنيفاً فالعاقل هو الذي يتقى مواطن الخطر ويحذر طرق الهلاك فلا يندفع أمام شهواته إلى تحصيل الدنيا من أى طريق لا يرضاه العقل ولا يقرها الدين بل يعمل بجِدٍّ واجتهاد في الوسائل المشروعة التي يبتغيها الشريعة وبذلك يحصل على ما قدر له وهو آمن مطمئن ولذلك يشير عليه الصلاة والسلام في الحديث بقوله « من اكتسب فيها مالا من حله وأنفق في حقه أنابه الله عليه وأورده جنته . ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفق في غير حقه أحله الله دار الهوان » وهي جهنم وبئس المصير . وقد أشار الحديث إلى الاتفاق في غير حقه بقول . رب متخوض في مال الله ورسوله . أو رب متخوض فيما اشتبهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار . فذلك هو الذي جعل المال ذريعة إلى الخوض في الشهوات . والانغماس في اللذات واستعمله فيما يؤذى خلق الله واتخذته آلة للطغيان ووسيلة للعصيان فهذا لا ينفعه ماله الكثير الذي يخوض فيه خوفاً . ولا تنفعه لذاته الكثيرة التي ينعم بها بل تضره ضرراً شديداً وتهلكه هلاكاً ميباً لأنها فانية زائلة ومن ورائها عذاب النار .

من ذلك تعلم تأويل الأحاديث الواردة في الزهد في الدنيا بما يطابق أغراض الشريعة الإسلامية وإسرارها . فإذا سمعت مارواه ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر من قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً » . فأنك تفهم منه أن المراد بالدنيا هي التي تشغله عن عمل له عليه أجر فيضيع ذلك الأجر منه ولا ينتفع بها في وجه من وجوه البر ولا يستعين بها على عمل الخير فيعوض مافاته من الأجر .

يرشد إلى ذلك معظم الأحاديث الدالة على الاجمال في طلب الرزق ونحوه فإنها ترمى كلها إلى شيء واحد وهو التحذير من الحرام . خذ مثلاً قول النبي ﷺ « يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وإن الله عز وجل يؤتي عبده ما كتب له من الرزق فأجهلوا في الطلب

خذوا ما حل ودعوا ما حرم» رواه أبو يعلى فهذا نص في التحذير عن الحرام وأنه يجب على العاقل أن لا تدفعه شهوة المال والحرص على الغنى إلى كسبه من طريق حرام وكذلك سائر الأحاديث الواردة في ذلك الموضوع فإنه يحمل تطبيقها على ما بيناه لك لأنه هو الذى يطابق احكام الدين من جميع الوجوه وجملة القول في ذلك ان كسب المال والمحافظة عليه ان كان من طريق ترضاء الشريعة الاسلامية وتحث عليه فهو ممدوح وصاحبه مأجور وان كان على العكس من ذلك بان يكسبه من طريق حرام وينفقه في لذاته المحرمة وشهواته الفاسدة ويستعين به على الاضرار بالناس ويحمله على الظلم والطغيان والعظمة والكبرياء فهو مذموم. أما من لا ينفق في هذا ولا ذاك فهو البخل ويقابله الكريم وهو عكس البخل ويتعلق بالبخل والكرم حالة أخرى وهي الاقتصاد أو الاسراف والتبذير مما يتعلق بالرغبة في المال العفة والحرص والطمع وسنقدم لكل منها مبحثاً خاصاً نذكره فيما يلي

الاقتصاد

هو ادخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة اليه . ولقد علمت فيما مضى أن للمال جهتين . جهة مدح . وجهة ذم . فاما الأولى فهو ما اذا أنفق في سبيل السعادة الآخروية التي سبق بيانها في مبحث مدح المال . ومنها الاستعانة به على حفظ العرض . والنفس . والدين . والتعفف عن الشهوات المحرمة . والزهّد عما في أيدي الناس . وكذلك الاستعانة به على أداء الواجبات الدينية من حج وزكاة . وصلة أرحام . وإنقاذ حياة انسان من الهلاك ونحو ذلك مما يوصل الى السعادة الخالدة والتعميم المقيم فانفاق المال على هذا الوجه لازم ضروري لا يتصور فيه اقتصاد ومن يضن بانفاق ماله في سبيل السعادة الخالدة فهو اما شحيح لا يعرف الغرض الصحيح من جمع المال والمحافظة عليه . واما مبدّر ينفق ماله على اللذات الفانية . والشهوات الفاسدة التي لا نتيجة لها الا الافلاس والبؤس في الدنيا والشقاء يوم الدين فهناك حالتان . ضن بالمال وشح . فلا ينفق على الواجبات الضرورية . ولا على اللذات والشهوات وتبذير . واسراف بان ينفق في سبيل اللذات والشهوات وهاتان الحالتان مذمومتان وانما الممدوح هو الوسط وهو انفاق المال في سبيل السعادة التي ذكرناها ويتبعه الانفاق على الأهل والولد من غير تبذير . ولا تقتير . أما ما عدا ذلك من زخارف الحياة وزينتها . كالقصور والرياش الفاخرة والسيارات . والبياد المطهّمة . وزيادة الخدم . والتفنن في أنواع الطعام . والشراب . واللباس . وغير ذلك من أنواع اللذات فإنه مباح مادام منطبقاً على قواعد الدين لا يخرج عن حدوده لأنه حيثئذ يكون من طيبات الرزق والله تعالى يقول (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) انما تكون حراماً إذا ترتب عليها حرام كأن ينفق في سبيلها ما لا يحتمله ماله فيفرض به

ذلك إلى الافلاس في تجارته . أو زراعته . أو صناعته . أو غير ذلك لأن ذلك هو التبذير الحرام الذي نهى عنه الله ورسوله كما ستعلمه بعد هذا . وكذلك إذا استغرق الاتفاق على هذه الكاليات كل ربحه فيضر برأس ماله فلم يستطع القيام بالواجبات الدينية أو العمرانية ولم يتمكن من ادخار شيء ينفعه عند الحاجة إليه . أو ترتب عليها ضياع مال الناس كما إذا كان مدينا لغيره فانفق ماله في تلك الزخارف واللذات . أو ترتب عليها اغراق في الرفاهية ومبالغة في التمتع فقسا قلبه بذلك وانصرف عن طاعة ربه أو تكبر على خلق الله تعالى إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي لا يقرها الدين ولا ترضيها شريعة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام

وبالجملة فأن زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها ونعيمها متى كانت حلالاً طيباً ولم يترتب عليها إسراف أو خروج عن دين الله تعالى فإنها مباحة في نظر الدين والا كانت حراماً ومن هذا البيان يمكنك أن تعرف معنى الاقتصاد ومعنى التبذير . والاسراف في نظر الدين فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « التبذير إففاق المال في غير حقه » ومعنى هذا أن المبذر يجهل بمقادير الحقوق التي تستوجب اتفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ولكن تدفعه شهواته إلى مجاوزتها ومعنى التبذير والاسراف واحد في نظر الدين لأن مآلها واحد وهو إففاق المال في غير موضعه وإن كان بينهما فرق في اللغة وهو أن الاسراف جهل بمواقع تلك الحقوق أي أنه ينفق ولا يعرف كيف ينفق بخلاف التبذير فإنه جهل بمقادير تلك الحقوق كما علمت فالأول جهل بالكم والثاني جهل بالكيفية . وروى عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد أن الاسراف هو الاتفاق في المعاصي والقتل هو الامساك عن الطاعات . وقال عون بن عبد الله الاسراف أن تنفق مال غيرك وكل ذلك يشمله كلامنا الذي أوغضناه لك آنفاً

أدلة الاقتصاد

ورد النهي عن الاسراف والتبذير والحث على الاقتصاد في كتاب الله وسنة رسوله فمن ذلك قوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ومعنى قواماً وسطاً وعدلاً . وقال تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)

فالآية الأولى حثت على الاقتصاد وهو الاتفاق الممدوح الذي يبناه لك . والآية الثانية نهت عن التبذير وهو الاتفاق المذموم الذي علمته وفيها إشارة إلى ما ينبغي الاتفاق عليه وهو أن يكون في سبيل البر والخير وقياماً بالواجبات التي فرضها الله تعالى على عباده كحقوق الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ولقد ذم الله المبذرين فجعلهم إخوان الشياطين وقرناهم في كفران أنعم الله تعالى التي

أنعمها عليهم فبدلاً من أن يشكروه سبحانه عليها ، باثتال امره في شأنها فانهم وضعوها في غير موضعها فانقلبت عليهم نعمها وكانت تتيجتها العذاب مع الشياطين . ومن ذلك ما أخرجه الترمذى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « السمات الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة » ومعنى الحديث أن هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم فينبغى الاقتداء بهم فيها . ولا ريب في أن هذه الأمور جدرة بأن تكون من أخلاق النبيين لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق وأحسن الصفات فأما السمات الحسن وهو الهيئة الحسنة فإن صاحبه يكون محبباً عند الناس لا تنفر منه طباعهم ولا تستكره أنفسهم فيقربونه منهم ويستفيدون منه ويستفيد منهم . وأما المتشد في أموره المتأني في أقواله وأفعاله فإن كل ما يصدر عنه منها يكون مأمون العاقبة لا يترتب عليه ضرر لنفسه ولا لغيره فلا يسارع في إساءة الناس ولا يستعجل في إيصال المكروه إليهم ولا يعمل ما يعود عليه بضرر أدنى أو مادي فهو دائماً حافظ لسانه ويده فلا يقدم على أمر إلا إذا درسه من جميع نواحيه ولا يدخل في مأزق لا يستطيع الخروج منه ولا يستمسك عليه أحد بذلة ولا يؤأخذه بخطأ وذلك هو العاقل الذي يزن أموره بموازين الحكمة والصواب .

وأما المقصد فهو دائماً عزيز الجانب كريم النفس لا تدفعه الحاجة إلى أن يذل لغنى يستدين منه . أو يستجديه . ولا تضطره الشهوات إلى الملق والنفاق لمن يظن أنه يسد حاجته ولا يسوقه التوسع في المأكل والمشرب والمسكن وغيرها إلى الجبن والصغار . ولا تزين له عراجل الزينة والزخرف اقتراف الحرام أو جمع المال من أى طريق . ولا تذهب به الرغبة في سكنى القصور إلى قول الزور . ولا تحمله الرفاهية على مساعدة المبطلين والتكيل بالآبرياء والمظلومين . ولا يقضى عليه ذلك النعيم الزائل بافناء ذاته وتضييع كرامته في سبيل الحصول عليه إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التي تنشأ عن الاسراف والتبذير . ويحسمها الاقتصاد . من أجل ذلك كان الاقتصاد من أخلاق النبيين وحث الله عليه في كتابه الكريم

الشح

تعريفه

الشح هو الامساك حيث يجب البذل سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال والنفقة على الزوج والعيال ونحوهم ممن تجب عليه نفقتهم . وكذلك الاتفاق على احياء نفس يتوقف عليه احيائها ونحو ذلك . او كان واجبا مروءة بأن ينفق ما يناسب حاله فلا يليق أن يكون ذامال كثير ثم ييغل على نفسه بالطيبات

من الرزق. أو يضيق على أولاده وأهله فيحرمهم من نعم الله تعالى. أو يضيق على ضيفه. أو يسقط كرامته في عين البيئة التي يعيش فيها كأن يسفل في مسكنه أو ملبسه أو مركبه أو ينحط إلى مرتبة لا تليق به في المعاملة فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ونحو ذلك. فإذا حفظ الإنسان نفسه من هذا لا يكون بخيلاً في نظر الدين أما كونه كريماً في نظر الناس فذلك تابع لحالة الرجل المالية وتفاوت انظار الناس في تقدير الكرام فمن كان ذا مال كثير أو متوسط ثم أنفق منه ما يناسبه كان كريماً في نظر الناس أما من كان ذا مال كثير فاقصر في الانفاق منه على الواجب ديناً ومروءة فإنه لا يسمى كريماً عندهم خصوصاً إذا وجد بجواره من يبذل كثيراً من ماله في سبيل البر كتشييد المدارس وتعمير المساجد وتربية الأيتام وبناء المصحات ونحو ذلك فإن الذي يقتصر في الانفاق على الواجب مع كثرة ماله يعدّه الناس في جانب هذا بخيلاً وإن ارتفع عنه ما يترتب على البخل من المؤاخذة الدينية. هذا ولا بد في الكرم من أن يكون صاحبه مدفوعاً بطبيعته كما تقدم فمن بذل المال تكلفاً بسبب قسري كأن يرغبه عليه حاكم أو لغرض من الأغراض الأخرى كالحصول على جاه أو رتبة أو مدح أو شهرته فإنه لا يكون كريماً

مضار الشح

وآثاره السيئة بين الناس

شر مضار الشح وأكبر آفاته فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواضع من بينهم وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك لأن الشح يحبس التعاون بطبيعته ولا تسمح نفسه ببذل شيء من ماله ولو سيرا لمساعدة الضعفاء فتمتلئ قلوبهم ضغناً عليه وتثور أنفسهم حسداً عليه فإذا فشى الشح في أمة كانت نتيجة فوضى الاشتراكية التي يترتب عليها سفك الدماء واستحلال المحارم لذلك يشير قول النبي ﷺ «وإياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالقطيعة ففجروا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا» من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد فعني قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا أمرهم عن الكف عن معونة الناس وقبل الشح الحرص على ما عنده غيره. والبخل الحرص على ما عنده. وكذلك قوله ﷺ «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم» رواه مسلم

فذلك صريح في أن الشح خطر اجتماعي كبير يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها لأن الإنسان بحسب تكوينه الطبيعي وفطرته التي فطره الله عليها محتاج إلى التعاون مع غيره في هذه الحياة فلا يمكنه

أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفرداً بل لا بد له من ذلك في الاستناد الى غيره والتعاون معه في كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى في التراب. وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره فتراه في حال طفولته محتاجاً الى غيره في كل شئ فاذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ولم تنقطع حاجته في البعض الآخر حتى بعد أن يبلغ أشده وتعلق به تكاليف الحياة التي تسوقه الى مزاحمة غيره في وسائلها فانه لا يمكنه أن يقطع مراحلها الا بمساعدة غيره والتعاون معه ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الانساني وبقاء العمران وكذلك التراحم بين الناس بان يرحم قويمهم وضعيفهم ويساعد غنيهم فقيرهم ويواسي صحيحهم سقيمهم فانه لازم من لوازم الانسانية والشع ينافي التعاون والرحمة جميعاً فمحال على الشحيح ان يعين غيره وهيبات ان تجود الرحمة الى نفسه سبيلاً لأن الشح يدعو الى أن يقطع ارحامه وأقرب الناس اليه واعلقتهم به فضلاً عن البعدين عنه . يدعو الى القسوة والغلظة فلا يغيب مكروبا ولا يعين ضعيفاً ولو توقفت حياته على معوته . يدعو الى أن يكسب المال من اى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام . يدعو الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شئ منه ولو كان من أبنائه وأهله وقد يفضي به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء . يدعو الناس الى كراهة صاحبه والحقد عليه وهم لا يتأخرون عن أذيته متى وجدوا لذلك سبيلاً . فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني وتقضى على صلاح العمران وهلاك الأمم لا محالة كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ومن أجل ذلك فرض الله على أرباب الأموال أن يعملوا للفقراء جزءاً من أموالهم قال تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) كما فرض عليهم التعاون على البر والتقوى قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) وقد حدث رسول الله ﷺ على التراحم بين الناس فقال « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » من حديث رواه البخاري ومسلم . وقال لا تنزع الرحمة الا من شقى رواه ابو داود وغيره الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على ضرورة التراحم بين الناس والحك على التعاون في جميع شؤون الخير والشحيح لا يبالي بأمر الله ولا بتأثر بزجر رسول الله ولا يعنيه في سبيل الحرص على ماله . أخربت الدنيا أم عمرت . أشقى الناس أم سعدوا . أضلوا أم اهتدوا وذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من الشح فقال « اللهم انا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الحيا والمات » رواه مسلم وغيره

ونحن نستعيز بما استعاذ منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنسأل الله الوقاية من الشح إنه سميع الدعاء

هل الشح صفة

طبيعة في الانسان

هو رذيله من الرذائل النفسية وصفة منحطة من أسوأ صفات الانسان تنشأ غالباً من فرط الحرص على المال والأمل في استمرار الحياة والخوف من الفاقة والفقر وهل هو صفة طبيعية لازمة لبعض الأنفس فلا ينفع فيه العلاج . أو هو صفة عارضة تأتي وتزول وينفع فيها العلاج رأيان لعلماء الأخلاق . فمنهم من يقول إن بعض صفات النفس صفات طبيعية كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعمور والصمم وغير ذلك . وبعضهم يقول إنها صفات عارضة تأتي وتزول . والواقع أن بعض صفات النفس قد تتمكن منها وتملكها من جميع نواحيها لأسباب مختلفة فتصبح لازمة لها فيتعذر زوالها . لا فرق بين أن تكون صفة مدح كالحم والكرم . أو صفة ذم . كالبخل والحسد فاننا نعلم من أحوال بعض السكرماء . والبخلاء ما يجعلنا نجزم بذلك . فمن السكرماء من لا يبالي بذهاب كل ماله وروحه في سبيل الكرم ولا يمكن أن ينثنى عن ذلك بأي حال ومن البخلاء من يضحي شرفه وكرامته ويعيش بائساً متسولاً في سبيل جمع المال والحرص عليه ولا يتحول عن ذلك بأي وسيلة من الوسائل . وإذا رأيت واحداً منهم يرغم على بذل شيء فذلك لا يناق الشح لأن السكريم هو الذي يكون مسوقاً للبذل بطبيعته فتي تمكنت الصفة من النفس أصبح زوالها متعذراً ولكن لم يكن ميؤساً من زوالها كاليأس من زوال العمى مثلاً . أما إذا لم تتمكن الصفة من النفس ولم تصبح داءً عضالاً لها فانها تزول بالعلاج والوسائل الفعالة . وذلك مشاهد أيضاً . فانك ترى بعض الناس يخل زماناً ثم يتصدق في نهاية أمره بجزء عظيم من ماله . وبعضهم يكون كريماً ثم يعرض له الخوف من الفقر فينقلب شحيحاً . فالذي يظهر أن الانسان ليس مفطوراً على صفات نفسية خاصة بل كل صفات النفس مكتسبة إلا أن بعضها قد يتمكن من النفس فيصبح ملكة لها يتعذر زواله وبعضها لا يكون كذلك فيسهل علاجه على أن الناس متفاوتون في الاستعداد لقبول المرض والبراء منه

نوادير البخلاء

وللبخلاء نوادر غريبة نروى بعضها عن الامام الغزالي . منها أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً شديد البخل وكان له نسيب بائس فقال له بعضهم أنت منه بهذه المنزلة واثوابك عمرة

فقال إني لأقدر على إبرة أخيطها بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوءاً إبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه إبرة ليخيطوا بها قميص يوسف الذي قد من دبر مافعل . فقال صفل مائدته قال هي فتر في فتر وصحافها من حب الحشخاش ولا يأكل معه إلا الذباب ولا يحضره إلا الكرام الكاتبون . ومنها أن مروان بن أبي حفصة كان لا يأكل اللحم حتى تشتد شهرته اليه فاذا اشتهاه أرسل غلامه فاشترى له رأساً . فقيل له لماذا لاتأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء . فقال لآنتي آمن عليها فلا يستطيع أن يأخذ أحد منها شيئاً ومع ذلك فآنتي آكل منها ألوانا كثيرة . وخرج مرة للقاء أمير المؤمنين فقالت له واحدة من أهله إذا أعطاك جائزة فاذا تعطيني منها قال إن أعطاني مائة ألف أعطيك درهما فاعطاه ستين ألفاً فاعطاها أربعة دنانير . ومنها أنه كان بالبصرة رجل موسر بخيل فقدم له بعض أصدقائه طعاماً اذيداً فأكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ وأصابه كرب شديد فوصف حاله لأحد الأطباء فقال له يتقيأ فأبى أن يتقيأ ذلك الطعام اللذيذ وقال الموت ولا ذلك .

واننا نشاهد بيننا أمثال هؤلاء كثيرين لم نر حاجة إلى التطويل بذكرهم .

الجود والسخاء

ذكرنا لك أن الشح من الأمراض النفسية المردولة التي يجب على العقلاء علاجها وتطهير أنفسهم منها لما يترتب عليها من المضار الاجتماعية والعمرانية . ويقابل الشح الكرم ويسمى الجود والسخاء وهو من الصفات النفسية الممدوحة التي يسود بها صاحبها ويكون له السلطان الكامل على نفوس الناس والمكانة الرفيعة في قلوبهم . وقد علمت مما تقدم أن القوانين الشرعية تجعل لانفاق المال حدوداً فيجب مراعاتها وعدم الخروج عنها حتى يتمكن الانسان من قطع مراحل الحياة آمناً مطمئناً قادراً على أداء الوظائف المطلوبة منه بدون انقطاع فلا يقتر ولا يسرف عملاً بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) فانه اذا بخل حمله البخل على الكف عن أداء الحقوق والواجبات . واذا أسرف نقد المال فاعجزه ذلك عن القيام بتلك الحقوق . فالنتيجة في الحالتين واحدة وهي عدم أداء الحقوق والواجبات إن عاجلاً أو آجلاً إلا أنها في البخل أشد ذماً واغش أنراً لأنه متمكن من الأداء قادر على الوفاء ولم يفعل ضناً بالمال . أما المبذر الذي ينفد ماله ولم يحمد مايقوم به من الحقوق فهو وإن كان ملوماً محسوراً إلا أن لومه أقل وذمه أهون . وقد بينا أن الشح هو الامساك حيث يجب الانفاق كالامساك عن الانفاق على الواجبات الدينية والتفقات الشرعية كالنفقة على الأهل والزوج والولد والنفقة على ما يحفظ الكرامة والعرض والدين فكل ذلك ضروري . وكذلك بينا أن التبذير هو أن ينفق المال في غير موضعه فيضيعه

في شهواته الفاسدة ولذاته المحرمة ويصبح محتاجاً بآثامه . أما الاقتصاد فهو التوسط في الأمور بان ينفق في الواجبات والحقوق ويدخر شيئاً من ماله ينفعه عند الحاجة إليه كما تقدم .
وأما الكرم والجود فهو أن ينفق ما تقتضيه الواجبات والحقوق وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع . وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الجود . منها قوله ﷺ :
« ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور » رواه الطبراني وغيره واسناده صحيح .
فالكرم يحبه الله تعالى لأنه صفة من صفاته كما يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . فالكرماء محبوبون من ربهم ومن أحبه الله فقد أمن غوائل الحياة الدنيا والآخرة وأصبح ظافراً بسعادة الدنيا والآخرة . وكذلك حال الكرماء فانهم لن يمسهن سوء في دنياهم فانك ترى الناس يقصدونهم ويسعون في مرضاتهم وخدمتهم . ويبادرون الى إنقاذهم مما قد يصيبهم من مكروه لأن آثار إحسانهم تدفع الناس الى ذلك بدافع الرغبة الطبيعية وتحثهم على احترام الكرماء واجلالهم واحلالهم أرفع محل وأعظم مكان . ذلك في الدنيا . وأما في الآخرة فانك قد علمت أن اتفاق المسال في الواجبات الدينية والحقوق الشرعية من أكبر وسائل السعادة الآخروية . والكرم لا يحجم عن الاتفاق حيث يجب الاتفاق فهو محبوب لله عز وجل من أجل ذلك وله الجنة خالداً فيها جزاء كرمه وطاعة ربه وهذا جزاء المحسنين

وقد يبلغ الكرم من النفوس مبلغاً عظيماً فيملأها من جميع جهاتها ونواحيها . ولهذا أمثلة كثيرة ونوادير لا تحصى عند حد مذكورة في كتب الأدب والتاريخ وأغلبها منقول عن العرب فانهم كانوا يتعشقون صفة الكرم ويرونها من ضروريات الحياة . ومن ذلك أن عبد المطلب جد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يطعم الطير والوحش مبالغة في الكرم ورغبة في الاتفاق . وقد حذا حذوه ولده هاشم فكانت له مائدة مستمرة لا ترفع شتاء ولا صيفا وكذلك حاتم طي . فان نوادره في الكرم مضرب للأمثال . وغيرهم كثير . كعن بن زائدة الشيباني ونحوه .

أما كرم رسول الله ﷺ فانه لا حد له فيوصف . ولا نهاية له فيعرف قال أنس « إن رسول الله ﷺ لم يسأل عن الاسلام شيئاً إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جيلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلوا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » رواه مسلم . وفي هذا الحديث دلالة على أن الكرم له من السلطة على نفوس الناس ما ليس لغيره من الأمور فقد فعل في أنفس هؤلاء ما لا تفعله السيوف من تغيير العقيدة التي كانوا يقصدونها على أنه ينبغي أن يلاحظ القانون الشرعي المأز ذكره في الاتفاق وهو عدم التبذير والاسراف ومجاوزة الحقوق والواجبات لأن في هذا نفاذاً للبال الموجب للعجز عن أداء الحقوق والواجبات والاحتياج الى الناس وهو شر عظيم على المرء لأنه يذله ويضيع كرامته ويسقط مروءته وكل هذا لا يرضاه الدين ولا يقره العقل ولهذا قال الأعرابي إن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة وقد كان ﷺ آمناً من شر الفاقة عالماً بان الله تعالى لن يخزيه فكان ينفق على ذلك الحساب ﷺ

الحرص والطمع

والقناعة

لأنواع في أن المال مرغوب فيه بطبيعته ومحجب إلى الناس على اختلاف أحوالهم وتباين أغراضهم كما تقدم في بحث مدح المال وذمه وقد ذكرنا هناك بعض الأحاديث التي تشير لذلك وسند كرك لك هنا بعضاً آخر . فمن ذلك ما رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح عن أبي واقد الليثي قال « كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناؤه يعلننا بما أوحى إليه فجئته ذات يوم فقال إن الله عز وجل يقول أنا أنزلنا المال لأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون إليه الثاني ولو كان إليه الثاني لأحب أن يكون إليهما الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » وما رواه مسلم وغيره من أن النبي ﷺ قال « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » والحديث الأول يشير إلى الغرض الذي من أجله خلق الله المال وهو أن يستعين به الناس على أداء الواجبات الدينية والحقوق الشرعية وينفقونه في سبيل السعادة والبر . فمن كل عقله واستنارت بصيرته فإنه لا يندفع بعامل الحب الطبيعي للمال إلى الشح به في مواطن الحقوق والواجبات كما لا يلقى به أن تدفعه الشهوات والمذات إلى الإسراف فيه وانفاقه في غير حقه فالحديث الشريف يشير إلى ما قد تستلزمه الرغبة الشديدة في المال من الشح به . أو التبذير فيه ويقول إنه ما خلق من أجل هاتين الحالتين وإنما خلق لينفق في الواجبات الدينية والانسانية التي يقرها الدين . وكذلك يحذرنا الحديث عن كسب المال من طريق حرام ويلفتنا إلى أنه لا ينبغي أن يدفعنا حبه إلى الشره وجمعه بأي وسيلة ولو لم تكن شريفة مشروعة . فمن غلبه حب المال إلى شيء من ذلك فيجب عليه أن يتوب ويندم ويعمل بما أمره الله به فإن الله يتوب على من تاب . وأما الحديث الثاني فهو نص في أن حب المال يستمر قويا في الإنسان حتى في حال هرمه فإن المرء يهرم وحب المال يبقى شاباً فيه لا يضعف ومثله طول العمر . وقول رسول الله ﷺ بيان لأمر طبيعي صحيح لا شك فيه والغرض منه لفت الناس إلى ما يترتب على ذلك الحب القوي والرغبة الشديدة من الخروج عن حدود الدين فلا يذهب به إلى الشح والحرص والطمع وهي من الرذائل المذمومة في نظر الدين وقد ينال لك ما في الشح من المفاسد والمضار . وأما الحرص على تحصيل المال فإنه من أسباب هلاك المرء ونقصان مروءته فقد يقوده الحرص إلى أن يلقى بنفسه في المخاطر ويزج بها في المآزق التي لا يستطيع الإفلات منها كأن يزين له الحرص التزوير . أو النصب والاحتيال فيوقعه في العقاب الدنيوى والاخروى . أو يحسن له الغش والكذب أو يدفعه إلى

مزاحمة من هو أقوى منه فيسعى في هلاكه فضلاً عما يستلزمه الحرص من الذل والخضوع لمن هو أدنى منه قدراً متى استطاع أن يأخذ منه درهما . وقد يفضي الحرص بالمرء إلى أن لا يبالي بعرضه ودينه في سبيل الحصول على المال وذلك نهاية الانحطاط وغاية الضعة وأن من يفعل ذلك لا يصح أن يكون في عداد الانسان بل هو إلى الحيوان أقرب شها من الانسان .

وأما الطمع فصاحبه مرذول عند الناس ثقيل على أنفسهم محقر مهان ناقص القدر والقيمة في نظرهم لأنه يطمع فيما لا حق له فيه ويريد أن يراحمهم فيما كسبه بمجدهم واجتهادهم وما كان له أن يقف وهم سائرون ويتكسل وهم مجدون فذلك شر وييسل بجر إلى الفاقة والفقر والانصراف عن العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والطمع فإنه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه » أخرجه الطبراني في الأوسط فضلاً عما يترتب على الطمع من الرذائل التي تترتب على الحرص كالذلة والهوان واسقاط المروءة وغير ذلك من رذائل الصفات فلا غرو إن حثت الشريعة الإسلامية على القناعة ونهت عن الحرص والطمع فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » متفق عليه . وقد تقدم في مدح المال . فليس الغرض من الحياة أن يجمع الانسان المال من أى طريق مهما ترتب على ذلك من الضعة والانحطاط والذلة والهوان إنما الغرض من الحياة أن يعيش الانسان فيها كريماً لا يسخر منه عظيم ولا يحقره غنى لتعففه عن الناس وتمسكه بالوسائل الشريفة في جمع المال . وذلك أحسن الأدب وأفضل التربية وأجل النصائح لمن كان له قاب أو القى السمع وهو شهيد

فالقناعة بما أتبح للانسان في هذه الحياة من مال ومتاع هي خير ما يحرزه من وسائل الكرامة والعزة وأفضل ما يذخره ويكنزه ليستغنى عن الناس عند الحاجة ومن استغنى عن الناس فقد عز وعلا . قال عون بن مالك الأشجعي « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله ﷺ قلنا أو ليس بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله ﷺ فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قاتل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا . وأمر كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئاً قال فلقد كان بعض أولئك نفر يسقط صوته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه » ومعناه النهى عن سؤال الناس ما لا يستحق . أما المعونة بالناس في أمور الحياة فهو لازم متى كانت بالوسائل المشروعة ولكن هؤلاء الذين بايعوا النبي ﷺ قد بالغوا في تنفيذ بيعته عليه الصلاة والسلام واحتاطوا في ذلك إلى أبعد مدى وهذا شأنهم رضوان الله عليهم في الحرص على تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك به من جميع النواحي والجهات وقد ورد في ذلك آثار كثيرة فلتقتل لك منها شيئاً .

قال عمر رضي الله عنه إن الطمع قمر وإن اليأس غنى وإن من يئس بما عند الناس استغنى عنهم رواء هشام بن عروة عن أبيه . وكتب بهض بنى أمية إلى أبي حازم سلمة بن دينار الأعرج يعزم

عليه إلا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجي إلى مولاي فسا أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت . وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما استحل من مال الله عز وجل جلباني لشنائي وقبظي وما يسعني من الراحلة لحبي وعمرتي — أى الراحلة التى يركبها ليحج عليها — وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفهم ولا بأوضعهم ووالله ما أدرى أيحل ذلك لى أم لا . فقد حملته العفة والزهد فى أموال الناس إلى أن يشك فى أن هذا القدر زائد عن حاجته أم لا وليس بغريب أن يصدر مثل ذلك عن سيدنا عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه . وقال أبو محمد الزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رأى بسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتها وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدنى .

إذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ماؤه * ويكفيك سوات الأمور اجتنابها
ولا تلك مبذالاً لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجنبك عقابها
أخرجه ابن أبي الدنيا فى أخبار الخلفاء وقال بعضهم :

إذا أعطشتك أ كف اللثامسة * تلك القناعة شيعاً ورياً
فكن رجلاً رجله فى الثرى * وهامة همنه بالثريا
فإن إراقة ماء الحيا * ة لدون أراقه ماء الحيا

وقال عبد الله بن سلام لكعب الأحبار ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ومعنى ذلك أن تلك الصفات لا تجعل للعلم ثمرة فإن الطمع وشره النفس وطلب الحوائج تجعل صاحبها أسيراً لمن يطمع فى ماله . أو يطلب منه حوائجه فيتبعه فى هواء حيث كان فلا يحفل بما يقتضيه الدين . ولا يبالي بما يوحى به العلم فيصبح العلم ضائعاً بضباع آثاره وثمراته إذ لا فائدة للمعلومات التى يشغل بها الإنسان رأسه إذا لم يعمل بما تقتضيه من نصرة الحق والفضيلة . وخذلان الباطل ومحاربة الرذيلة . وخدمة المجتمع الإنسانى وتربيته تربية صالحة فهذا هو ما يتطلبه العلم الصحيح وما يقتضيه الدين الحنيف . ولكن الحرص على المال والطمع فى لذات الحياة وزخارفها وشره النفس فى طلب الحاجات يقضى على ذلك قضاء مبرماً ويجعل العالم شراً من غيره لأنه يحاول أن يبرر موقفه فيقلب الحقيقة ويجعل الحق باطلاً والباطل حقاً وبذلك يكون حرباً على العلم والدين يهدم فيهما بمعاول الشره والطمع وحب المنصب والجاه والمال . وتلك هى فتنة المرء فى دينه ومروءته .

نسأل الله تعالى الوقاية من شرها إنه سميع الدعاء .

علاج اتفاق المال في غير حقه

بيننا لك في مبحث الشح أن الباحثين اختلفوا في صفات النفس فمنهم من قال إنها فطرية غير قابلة للزوال كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور ونحوها . ومنهم من قال إن كل صفات النفس قابلة للزوال وأن الانسان في هذه الحياة مستعد للانتقال من حسن إلى سيء ومن سيء إلى حسن . فانا نرى كثيراً من الناس ينتقلون من جبن إلى شجاعة ومن شجاعة إلى جبن ويتحولون من بخل إلى كرم ومن كرم إلى بخل بحسب ما يكتسبهم من العوارض والأحوال . الا أن بعض النفوس أكثر استعداداً لقبول الصفات من البعض فتتمكن منها . ويعسر زوالها وقد قدمنا لك ما نراه في هذا الموضوع هناك فارجع إليه إن شئت انما الذى نريد أن نقوله هنا هو أن الشريعة الاسلامية تدعو الناس جميعاً إلى مكارم الأخلاق وتحث كل فرد من أفراد المكلفين على التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل وذلك يؤيد الرأي الثانى لأنه لا فائدة من تكليف الأعمى بإبصار الغنمة مادام العمى غير قابل للزوال كما لا فائدة من تكليف الشحيح بالكرم مادام الشح غير قابل للزوال أيضاً وهكذا . ولا يصح أن يقال إن الشريعة جاءت بالتكاليف العامة بالنظر للغالب من أحوال الناس فإذا وجد من غير الغالب من كان مفطوراً على صفة لا يمكن التحول عنها فهو غير معتبر في التشريع . لانا نقول إن كل فرد من الأفراد مأمور بالفضائل منهى عن الرذائل فلو كانت الرذيلة صفة طبيعية فيه فانه لا يصح تكليفه بازالتها والعمل على غيرها . فمن أجل ذلك ينبغي للمسلمين أن يعالجوا أنفسهم من أمراضهم الباطنة وأن يتأمرؤا بالمعروف ويتناهؤا عن المنكر ويتواصلوا بالحق والصبر عملاً بقول الله تعالى (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه أقسم بصلاة العصر — لما لها من الفضيلة وسمو المنزلة عند الله تعالى — ان الانسان لفى خسران في مساعيه في حياته الدنيا مادام لا يتوصل بها الى السعادة الأبدية فلا ينفعه مال ولا تفيد له لذة ولا تغنى عنه تجارة ولا غيرها من عذاب الله شيئاً الا المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويعملون الصالحات كما أمرهم الله تعالى ونهاهم فانهم هم الذين ربحوا في تجارتهم وظفروا في مساعهم وهم الذين يوصى بعضهم بعضاً بالحق قولاً وفعلًا فلا ينطق الواحد منهم الا بالحق ولا يحكم الا بالحق ولا يعامل الناس الا بالحق وعليه أن يغضب من أجل الحق

وان يذلل كل ما استطاع من جاه وسلطان لتأييد الحق وحق الحق هو الثابت الذي لا يصح انكاره فيشمل الايمان بالله تعالى ورسوله وكتبه والأعمال الصالحة. وكذلك الذين يوصى بعضهم بعضا بالصبر عند المصائب حتى لا يستنزفهم الجزع الى الخروج عن حدود الدين . والصبر على نوائب الزمان حتى يتغلبوا على حادثاتها فلا تلعب بدينهم ومروءتهم . والصبر على لقاء الأعداء الذين يريدون استدلالهم واستبدادهم . والصبر على شهوات النفس ولذاتها فلا تتغلب عليهم ثورتها فتقودهم الى ما تريده من المفاسد والموبقات. والصبر على علاج الصفات الذميمة التي عقلت بالنفس كالشح والعجب والكبرياء وغير ذلك فان على المرء أن يعالجها حتى تبرا نفسه منها وتطهر من شرها . الى غير ذلك . كل هذا داخل تحت التواصي بالصبر وهو معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو خير علاج لتفشي الذنوب والموبقات فان الصفة الذميمة لا تترتب عليها آثارها السيئة مادام الناس يتأمرون بالمعروف وينتاهون عن المنكر ولا يرضون عن المجرمين الذين يقتربون السيئات . ومن أجل ذلك لعن الله الذين لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية

فلو أن الناس قضا فروا على استنكار الرذائل وتناهوا عن اقتراف المنكرات بتلويب صادقة وعرائم ثابتة لقضوا عليها قضاء مبرما وأصبحت الفضيلة سائدة بينهم محبة اليهم . وانزوى المجرمون وأصحاب النفوس الخسيسة ولم يعد لهم أثر بينهم ولا وجود في بيئتهم وذلك أحسن العلاج الذي كان المسلمون به مستمسكين في أوائل أمرهم فلم يكن للرديلة فيهم مقام ولأجل هذا مدح الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وسيأتي الكلام في هذا في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ان شاء الله تعالى .

فالشحيح الذي لا ينفق على الحقوق والواجبات يجب على الناس أن ينهوه عن ذلك قولاً وفعلًا . فاما القول فان على المرشدين أن يبينوا له مضار الشح وآثاره السيئة في المجتمع الانساني وأن يفهموه أن الشح يأتي بعكس المطلوب له من الزيادة في المال لأن الشحيح ينصرف الناس عن معونه فلا يقبلون على معاملته ولا يتعاونون معه في تنمية ماله وأن يبينوا له أن الغرض من المال انما هو الانتفاع به في هذه الحياة والا كان مثل الحجر الملقى على الأرض فانه نوع من الحجر جعله الله وسيلة للتعامل وقضاء الحاجات فليس من العقل أن يكنزه الانسان وهو محتاج اليه ويعيش في هذه الحياة فقيراً محروماً من لذائذها وطيبات رزقها ثم يكون في الآخرة مسؤولاً عن ماله معذباً على ما فرط من أداء الحقوق والواجبات . وذلك هو الخسران المبين

فان كان قد اكتسب الشح من المعاشرة والمخالطة فيجب أن يزهده في معاشره الاشياء ويرغبوه في معاشره الكرماء ومطالعة أخبارهم وشرح ما كسبه من الحمد الخالد والثناء الدائم وما مدحوا به أمتهم من الاتفاق على دور العلم وترقية الأخلاق . وغير ذلك مما يبقى ثوابه مستمراً وأجره لا ينقطع حتى بعد المات .

وأما الفعل فإنه يجب على الناس أن لا يجملوه في أمورهم وأن يظهرُوا له الاشتمال من عمله وأن لا ينزلوه في معاملته منزلة الكريم . وأن يبذلوا في احترام الكرماء وخدمتهم والحفاوة بهم في حضرة الشحيح كي تبعثه الغيرة إلى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وقد تكون الثرية بذلك من أحسن ما ينفع ويفيد . وما قصة الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بخافية على أحد فلقد عوقبوا بمقاطعة إخوانهم إياهم مقاطعة تامة في كل أمر من أمورهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . ثم تاب الله عليهم كما قصه الله تعالى في كتابه العزيز .

أما المبدّر الذي ينفق المال في غير حقه فإنه يجب أن يحذره المرشد عاقبة الاسراف والتبذير من افلاس يقوده إلى الاحتياج إلى الناس ويذهب به إلى المذلة والهوان . ويُرْهده في الشهوات التي لا نتيجة لها إلا القضاء على صحته وكرامته . وإن كان الاسراف حاصلًا عنده من المعاشرة والمخالطة فإنه يجب عليه أن يرْهده في معاشرّة المبدّرين الذين لا همّ لهم إلا القضاء على أنفسهم وأموالهم في سبيل الشهوات واللذات وأن يضرب له الأمثال بمن قضى الاسراف على مجدهم وكرامتهم فأصبحوا أذلة بعد أن كانوا أعزة وعبيداً بعد أن كانوا سادة وإن في ذلك لأكبر زاجر للنفوس عن تقليد المترفين في ترفهم والاقتداء بهم في التوسع في الماء كل والمشرّب والمسكن ومباراتهم في اللذات والشهوات بدون حساب لما يترتب على ذلك من نفاد المال والرجوع إلى شظف العيش وذل الحاجة وربما لا يجد بعد ذلك قوتاً ضرورياً فيصبح بائساً يتكفف الناس أو يصبح عالة على غيره وقد تدفعه تلك الحالة إلى الهلاك كما وقع لبعض من لا خلاق لهم ولا عزيمة عندهم . فإن التوسع في الشهوات قد أفضى بهم إلى الافلاس فكبر عليهم الرجوع إلى خشونة العيش وشظفها فقتلوا أنفسهم ظلماً وعدواناً ظناً منهم أن القتل يريحهم من التعاسة والشقاء وهؤلاء يكادون يكونون غير مؤمنين لأنهم لو استيقنت أنفسهم الدار الآخرة واطمأنوا لها لعلموا أن الانتقال إليها على هذه الحالة إنما هو انتقال إلى شقاء دائم وعذاب ألِيم لا يقاس عليه شيء من بؤس الدنيا وشقاؤها مهما اشتد أمره وزاد خطره فينبغي لمن وقع في تلك المصيبة أن يقابلها بالصبر والشجاعة وأن يحتمل ما يترتب عليها من خشونة العيش وبؤس الحياة وأن يرجع إلى الله تعالى ويتوب بما كسبت يده وأن يوطن نفسه على أن يعمل كل ما يتاح له عمله في هذه الحياة مادام ذلك العمل مشروعاً . فلعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمراً . وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)

شهوة الذرية

لا ريب في أن الإنسان مفعور على حب البقاء بل البقاء الدائم لديه ولكنه يعلم أنه هالك لا محالة وأنه لا بد لوجوده من نهاية ينتهي إليها سواء أكانت قرية أم بعيدة وذلك ما يحزنه ويكدر صفوه في هذه الحياة فمن أجل ذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل له في نسله وذريته بعض العوض عن ذلك فإنه يرى بقاءه مستمرا في ولده فلا يندم على جهاده في معترك الحياة ولا يأسف على ما بذله من مجهود في ترقية العمران . ولا يحزن على مفارقة ما حصل عليه بكده من مال ومتاع لأنه يعلم أنه تركه لولده وهو جزء منه فكأنه هو الذي يستمتع به وكأنه باق لم يدركه الفناء تلك نظرية بدئية يجدها في نفسه الذكي والنبي ويدركها العالم والجاهل فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاءه مستمرا ويعلم أنه خليفته في هذه الحياة الدنيا وإن كان بعض الناس لا يحسن التعبير عن ذلك

وأیضا فإن كل واحد يشعر بحاجة إلى معين مخلص يحمل عنه بعضا من متاع الحياة وأعبائها ويكون عدته عند نوائب الزمان ومحن الأيام ومن عساه أن يكون أحق من الولد وأجدر بثقة الوالدین . فشهوة الذرية وحب الولد وإن كانت عواملها تتفاوت عند بعض الناس ولكنها من أقوى الشهوات عند المجتمع الإنساني من حيث هو فمن أجل ذلك يقول الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) كما ذكرناه لك آنفا

وإذا قد علمت ذلك فاعلم أن هذه الشهوة هي كسائر الشهوات تارة تكون مدحوة وتارة تكون مذمومة فاما المذمومة منها فهي أن يفتتن المرء بأولاده وذريته فلا يبال أن يرتكب من الجرائم ويقترب بسببهم الموبقات والآثام . يشتهي الأولاد والذرية من أجل أن يجمع لهم مالا حراما ويظلم خالق الله ويستسهل في سبيلهم الفسوق والعصيان . يشتهي الأولاد وهو لا يقدر على تربيتهم تربية صالحة فيذرهم أعضاء عاطلين يضررون المجتمع الإنساني ويؤذون الناس بشهرهم . يشتهي الأولاد ولكنه لا يعدل بينهم فيفضل ذكورهم على إناثهم أو يفضل بعض ذكورهم على بعض مع أن النبي ﷺ رغب في المساواة بين الذكور والإناث في المعاملة فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال «من كانت له أنثى فلم يدهنها حية كما كان يفعل في الجاهلية - ولم يهناولم يؤثر ولده - يعنى الذكور - عليها أدخله الله الجنة» رواه أبو داود والحاكم وقال الحاكم صحيح الإسناد وبالجملة فإن شهوة الأولاد إذا كانت تنفضى إلى المظالم وانتهاك الحرمات وتعدى حدود الله تعالى فهي شهوة مذمومة وفتنة شديدة وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)

وأما الممدوحة منها فهي ان يشتغل الأولاد ليكمل بهم نظام العمران وينتفع بهم المجتمع الانساني فيعلمهم العلم النافع ويربهم على الأخلاق المرضية التي تنتج ذلك الغرض الجليل ويستعين بهم على عمل البر والخير فينتفع بهم في حال حياته ويكون بقاؤه مستمرا فيهم بعد وفاته فلا ينقطع ثواب عمله كما قال عليه الصلاة والسلام «إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث» فذكر منها ولدا صالح يدعو له وبالجملة شهوة الأولاد الممدوحة هي التي تقضي الى الخير ونفع المجتمع الانساني وبناء العمران ولهذا رغب النبي ﷺ في تكاح الولود ونهى عن نكاح العقيم فقد روى عن معقل بن بشار رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقال يا رسول الله انى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال الا أنها لاتلد أفأتزوجها فنهاه ثم اناه الثانية فقال له مثل ذلك ثم اناه الثالثة فقال له تزوجوا الودود الودود فاني مكاثر بكم الامم» رواه ابوداود والنسائي والحاكم والمفتي له وقال صحيح الاسناد

تربية الأولاد

تربية الأولاد فرض لازم لا يصح اهماله فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» رواه ابن ماجه فهذا الحديث يأمر بمراقبة الأولاد بمراقبة دقيقة وتاديبهم احسن الادب فواجب ديننا على الوالدين أن يقوموا بتلك المراقبة كل واحد منهما بدوره في داخل المنزل وخارجه فيمرناهم على القدر النافع له من الشهوات ويحبوا اليه العمل الصالح بقدر ما يستطيع ادراكه . وأول ما يغلب على الصبي شهوة الطعام والشره في الأكل فمن الضروري أن يراقبوا في ذلك مراقبة دقيقة ويمرناهم على الغذاء القليل الذي لا يضر معدته ويحول بينه وبين تناول كل ما يشتهيه من اصناف الطعام المختلفة التي لا تستطيع المعدة هضمها فيتعرض بذلك للالام والامراض ويشب على الشره وكثرة الأكل فيتعلم الكسل والبلادة ويكون همه بطنه وقد نهى الدين عن ذلك كما تقدم لك في الكلام عن شهوة البطن . وكذلك ينبغي مراقبته عند ما يراهق فلا يسمح له بمصاحبة الاشرار ومخالطة الفجار فاسدى الأخلاق وناقصى التربية كما لا يسمح له بغشيان دور الفساد ومحال اللهو والخلاعة والمجون ويجب اليه العمل لدينه ودنياه بحيث يصرف كل همه الى تعلم العلم النافع وما يلزم له في قوام حياته من صناعة وزراعة وتجارة وأن يؤدي الفرائض الدينية ولا يهمل شيئا منها ويجب أن يترك له وقت يروض فيه نفسه حتى لا يسأم العمل وأن يفضى عما يفرط عنه من بعض المخالفات التي لا تضرب بالأخلاق اذا فعلها خفية وكان ينجل من اظهارها على ان يكون كل تأديبه بالترغيب والحجة المناسبة لعقله فيفهم ان العمل النافع ينفعه في حياته العاصرة والمستقبلية وتضرب له الامثال بالعاملين النافعين الذين رفعهم العمل الى الدرجات الرفيعة وبالجهلة وفاسدى الأخلاق الذين ساء حالهم بسبب ذلك وانحطوا الى الدرك الاسفل ويرغبه في أن يكون مثل الاولين ويحذره عن أن يكون مثل الآخرين وبما يجب التنبيه له انه يجب على الوالدين

أن ينفذا الخطة الصالحة التي يرسمها لاولادها عمليا بأن يلزموها في تنفيذها ملازمة تامة كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فانه عليه الصلاة والسلام يقول الزموا اولادكم . فلا يكفي مجرد الترغيب بالقول وضرب الامثال . أما الضرب والتخويف فقد ينتجان عكس المطلوب ويتركان أثرا سلبيا في نفس الولد يصرفه عن المقصد النافع ويزهده في عمل البر ويجعله حريصا على ما منع عنه من الفساد فيلج في طلبه ويتنهر الفرص ليعمله خاسرة فضلا عما يتركه الضرب والتخويف في النفس من الجبن والخيالات الفاسدة التي قد تصاحب الانسان في حال كبره أيضا فيشرب على الجبن والخوف من الخيالات الكاذبة وقد تنأثر أعصابه بهتيج كاذب من غير فائدة تعود على التربة والأخلاق وذلك شرو وبال نعم اذا تأكد المرء من أن طبيعة التلذذ لا تصاح الا بالزجر والتخويف فانه يصح أن يستعمله في الموضع المناسب له بحيث لا يفرط فيه فترتب عليه تلك الآثار السيئة وبالجملة فالمرء كالطبيب الماهر الذي يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها ولكن لا بد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية التي يشير اليها الحديث على أي حال

فاذا بلغ الغلام حد شهوة الفرج فيجب على والديه أن يحولاه بينه وبين عناصر الفساد وما يثير هذه الشهوة ويراقبوا في ذلك مراقبة دقيقة فان هذه الشهوة من اشد الشهوات خطرا وأبعدها اثرا إذ قد تقضى على مستقبل الشباب وتفسد عليهم حياتهم المادية والأدبية وتوردهم موارد الهلكة لانها تعرض أبدانهم للأمراض المادية وعقولهم للأمراض المعنوية وفي ذلك بلاء مبین . وأحق علاج تعالج به تلك الحالة هو القيام بعمل الواجب الذي تقوم عليه حياة الشباب في مستقبله وصرفه عن كل ما يثير تلك الشهوة ويهيئها من مكنها فاذا درج على ذلك سهل عليه قطع ذلك الدور آمنا على صحته وعقله والا فقد يقع في أشد البلاء وأصعب الأخطار

شهوة الجاه والسلطان

هذه شهوة طبيعية في الانسان فهو مفتور على أن يكو ذا جاه محب اليه أن يكون ذا سلطان يطاع أن أمر أو نهى وسيطر على قلوب الناس ويستولى عليهم في كل الأمور ولقد علمت مما تقدم أن الانسان منتصف بصفات الربانية لأن روحه أمر رباني كما وصفها الله تعالى بقوله (قل الروح من امر ربي) ومعنى كونها ربانية أنها سر من الأسرار التي لا يقيس الوقوف على حقيقتها فهو من هذه الجهة ميل بطبيعته الى العظمة والكبرياء ومحبة الجاه والسلطان . وهل شهوة الجاه أقوى أو شهوة المال . والجواب أن التفاضل اذا كان بينهما في ذاتها فلا شك فيه أن شهوة الجاه أقوى من شهوة المال لان المال في ذاته كالحجر لا يضر ولا ينفع أما اذا كان التفاضل بينهما باعتبار الافراد الذين يتصفون بهما فذلك ينبغي أن يكون فيه تفضيل وذلك لان شهوة الجاه اوان كانت طبيعة في الانسان كما ذكرنا ولكنها تتفاوت عند الافراد بالقياس الى شهوة أخرى فمن الناس من تتحقق عنده هذه الشهوة بأقوى معناها وهذا الفريق هو الذي يفضل عنده حب الجاه على حب المال لان شهوة الجاه عنده هي الباعثة على

حيثئذ . ومن الناس من يقدس المال في ذاته كما هو الحال عند البغلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ويمحرون أنفسهم وأهلهم منافع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق حتى أنك ترى أحدهم يلبس الخاق من الثياب ويطوى من الجوع ويمرض نفسه لكل مذلة ومهانة واحتقار من أجل دربهات يسيرة مع كونه ذا مال كثير وقد اسلفنا لك ذلك في الكلام على شهوة المال

وأيضاً فقد ينصرف المرء عن شهوة المال والسلطان لشغفه بشهوة أخرى تعارضها كما إذا منى بالشغف بشهوة الفرج فانهقاد تفضي به إلى الذلة والهوان والخضوع إلى من يشتهي وقاعها ولو ذهب كل سيطانه وضاع كل جاهه وقد يترك ما يملكه خضوعاً لتلك الشهوة فالتفاضل بين الشهوات الطبيعية يختلف باختلاف طبائع الناس واستعدادهم للتأثر بها . فمنهم من يغلب عليه حب المال . ومنهم من يغلب عليه حب الجاه . ومنهم من يغلب عليه حب النساء . ومنهم من يغلب عليه شره الطعام . ومنهم من يغلب عليه حب الزينة واللباس والتناول في البنيان وهكذا . وقد يستدل على كون الجاه أحب من المال بأن التوصل إلى المال بالجاه أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . ألا ترى أن الرجل العظيم الذي يسيطر على القلوب ويكون له مكانة فيها يتيسر له أن يجمع المال بسهولة لأن القلوب تبذل المال لمن تعتقد فيه الكمال عن طيب خاطر أما الرجل الذي الخسيس الذي يعتز على كثر مثلاً فانه لا يتيسر له بالمال أن يسيطر على النفوس وتكون له مكانة في القلوب . وذلك الدليل ياتج إذا كانت البيئة صالحة تقدر الفضيلة وتحقر الرذيلة أما إذا فسدت البيئة وأصبح الانسان عبداً للمادة فإن صاحب المال يكون له الجاه والسلطان وقد يستدل لذلك بأدلة أخرى خطائية لاحاجة لذكرها

إذا علمت ذلك فاعلم أن شهوة الجاه والسلطان اذا اتجعت النفوس اليها ولم تعارضها شهوة أخرى كانت من أقوى الشهوات وأبعدها مدى لأنها لا تقف عند حد ولا تنتهي عند غاية فان صاحبها يشتهي أن يمتد سلطانه وينبسط نفوذه ويسرى جاهه في كل واد وعلى أهل كل قطر حتى ولو لم يذهب اليه في حياته لما علمت من أن النفس نزاعة إلى حب السلطة والجاه بطبيعتها .

ولا ريب في أن شهوة الجاه كغيرها من الشهوات تارة تكون بمدوحة وتارة تكون مذمومة . فاما المدوحة منها فهي أن يحب الجاه ليكون ذا تأثير على قلوب الناس فيما يصلح حالهم في الدنيا والآخرة فيأتمرون إذا أمرهم بمعروف وينتهون إذا نهاهم عن منكر لا يحب ذلك إلا الله تعالى وابتغاء رضوانه لا يدفعه لذلك سمعة أو رياء ولا يسوقه اليه حب مدح الناس أو كراهية ذمهم فان من يتأثر بأعماله بالناس يكون تابعاً لأهوائهم فيها ومن المحال أن يكون الحق تابعاً لأهواء الناس وشهواتهم . الجاه المدوح هو ما يترتب عليه نصرة الدين وصلاح نفوس المسلمين وما يقصد صاحبه بكل أعماله مرضاة الله رب العالمين .

ومن ذلك حب الرئاسة والحكم فان من أحب شيئاً منها ليقم العدل بين الناس وينصر الحق في مواضعه ولا يفتقر بسلطة فيتكبر على الناس ويحقرهم ويظعن عليهم بل يجعل كل همه في عمل لإصلاح الذي يرضى عنه ربه ويسعد به خلق الله الذي سخره لخدمتهم وأكرمه بالعقل الراجح منهم فان ذلك يكون بمدوحاً في نظر الدين . وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الحاكم العادل

منها ما روى عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم — والمقسط هو العادل — ومعنى الحديث واضح فيما ذكرنا لأنه صريح فى مدح صاحب السلطان الذى يعدل بين الناس ووعد به بالجنة التى وعد الله بها عباده المتقين .

ومنما ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق » رواه الطبرانى فى الأوسط . ومنها ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » رواه الترمذى والطبرانى . وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة فى حث كل ذى سلطان على العدل واستعمال سلطته فيما ينفع الناس ويصلح حالهم فكل ذى جاه أو سلطان يستعمل سلطانه وجاهه فى سبيل الخير كما ذكرنا يكون له على ذلك أحسن المثوبة وأفضل الجزاء .

وأما المذمومة من شهوة الجاه والسلطان فهى ما كان على العكس من ذلك لا يقصد منها خدمة المجتمع ولا إصلاح الدين وإنما يقصد بها خدمة شهواته وسدأ أطماعه والناس فى ذلك مختلفون . فمنهم من يكون همه الاستيلاء على القلوب بأى وسيلة من الوسائل سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة فينتحل لذلك الصفات التى من شأنها جذب القلوب والتأثير على النفوس كذباً وزوراً فظوراً يظهر لهم بمظهر العابد المقرب من الله تعالى المحبوب منه فإذا دعاه أجابه وإذا استعان به أعانه وأنه هو خير وسيلة بين الناس وبين الله فى قضاء الحاجات وإجابة الدعوات . وطوراً يظهر بمظهر الزعيم الذى يتحرق قلبه أسفاً على مصالح العباد والغيور الذى تكاد تذهب نفسه حشرات من أجل صلاحهم وإسعادهم . وطوراً يظهر بمظهر العليم الذى يعرف مخبات الأمور . وخفايا الأسرار . وإن الله قد اختص بمزايا الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من الصفات التى تتأثر بها القلوب وتركن إليها النفوس وهو فى الواقع خال من كل فضيلة ولا هم له إلا اصطيداد القلوب ليسخرها فى شهواته ويتنفع بها فى لذاته . ومثل هذا الفريق من الناس شر عظيم على المجتمع الانساق وعدو مبين للإنسانية لأن همه يكون منحصرأ فى المحافظة على جاهه الباطل فيسوقه ذلك إلى اتباع الناس فى أهوائهم التى لا يقرها عقل ولا يرضاها دين كى لا ينفضوا من حوله فيزين لهم الباطل ويشوه لهم الحق ويقرهم على الحرام ويقبح لهم الحلال يفعل كل ذلك وهو عالم به ولكنه يخشى على جاهه أن ينصرم وعلى سلطانه أن يزول . وفى ذلك بلاء عظيم على نفسه وعلى خلق الله الذين أضلهم عن سبيل الحق وأقرهم على الباطل وزين لهم أهواءهم وأفسد عقولهم وذلك هو الحسران المبين .

لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إرضاء الناس بما يسخط الله عز وجل نهياً شديداً فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من أسخط الله فى رضا

الناس يحفظ الله عليه وأحفظ عليه من أرضاه في يحفظه ومن أرضى الله في يحفظ الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أحفظه في رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه « رواه الطبراني بإسناد جيد قوى . وروى عن عبد الله بن عصمة بن مالك قال قال رسول الله ﷺ من تحبب إلى الناس بما يحبه وبارز الله تعالى لقي الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » رواه الطبراني فكل من يخاف على جاهه وسلطانه فيحيد عن الحق ويتبع الناس في أهوائهم فهو داخل تحت ذلك الوعيد الشديد

وهناك فريق من الناس يكسبون الجاه والسلطان بصفات حقيقية فيهم من علم أو صدق غريمه أو حسن تدبير أو شرف نسب أو نحو ذلك ولكنهم يحبون الجاه والسلطان ليكون لهم بذلك منزلة في النفوس تحفظ لهم أنفسهم وأهلهم من الضيم واعتداء المعتدين ويسهل لهم قضاء ما يحتاجون إليه من ضروريات الحاجات بدون أن يكون لهم غرض في خدمة المجتمع الانساني أو استعمال ذلك الجاه في نصرة الدين . أو تأييد الفضيلة . أو إنقاذ المظلومين . أو إغاثة المكروبين إلى غير ذلك من الأمور التي يمدح من أجلها الجاه والسلطان . وهذا الفريق إذا دعت ضرورة دينية إلى استعمال جاهه كأن رأى منكراً عليه أن يغيره بجاهه فلم يفعل فهو بذلك آثماً فاسقاً . وكذلك إذا توقف على جاهه إغاثة ملهوف . أو إغاثة مكروب . أو إنقاذ إنسان من الهلاك ونحو ذلك فلم يفعل فانه يكون يكون آثماً مذموماً . فقد قال رسول الله ﷺ « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرن على أن يغيروا ثم لا يغيروا الا يوشك أن يعصمهم الله بعقاب » رواه أبو داود وغيره ومثل ذلك كثير في السنة الصحيحة وسيأتى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما الأحاديث الواردة في إغاثة الملهوفين وقضاء حوائج المسلمين فهي أكثر من أن تحصى . وسيأتى ذكرها في موضعه . ونذكر منها هنا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فترى فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبراني بإسناد جيد .

أما إذا لم تدع ضرورة إلى استعمال جاهه ولم يكن عنده ميل إلى استعماله فذلك وإن لم يكن آثماً فاسقاً ولكنه فاسد الطبع غليظ القلب ناقص المروءة لأنه يمكنه أن يربح خيراً كثيراً عند الله تعالى ولكن طبيعته الفاسدة أبت عليه ذلك وحرمته ذلك الخير الكثير والثواب الجزيل .

﴿ وبعد ﴾ فانك تعلم مما تقدم لك أن طباع الناس متباينة في حب شهوة الجاه والسلطان وأن أغراضهم متفاوتة فيه وأن منه ما هو ممدوح نافع وهو ما كان لله وخدمة المجتمع ومنه ما هو مذموم ضار وهو ما كان لسد المطامع وتحصيل الشهوات فواجب العقل بازاء ذلك أن يكون قواماً على تلك الشهوة فلا يتركها تطفئ عليه فينساق أمامها إلى حيث تورده موارد الهلاك وتوقفه مواقف الفساد بل ينبغي أن يتبع منها ما كان فيه صلاح دينه ودنياه ويتجافى ما كان فيه فساد ذلك فإذا وجد منها جموحاً وعدم انقياد له فلا ينهزم أمامها بل عليه أن يذكرها دائماً بالفناء الذي هو من

ضروريات الانسان فليس من العقل أن يعذب عذاباً طويلاً من أجل شهوة فانية تنقضي سريعاً . وليس من الحكمة أن يترك النعيم الدائم من أجل لذة سريعة الزوال . ويضرب لها الامثال بمن عظم جاهه وامتد سلطانه وقويت شوكته واشتدت صولته ثم لم يلبث أن أصبح عظاما مخزواً وتراباً يعلوه الناس بأرجلهم ولم يبق له في الوجود ذكرى بل بحيث ذكره واندرست آثاره حتى كأنه لم يوجد في الحياة الدنيا ولم يكن له شأن فيها . فلهما بلغ المرء من الجاه والسلطان فانه لابد أن يغنى كما غنى غيره ويهلك كما هلك من كان أكثر منه قوة وأشد بطشاً وأنه لابد أن يقف بين يدي أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ويحاسب على ما فعل بجاهه وسلطانه ويسأل عما قدمت يده من خير وشر ثم يحجزى الجزاء الاوفى من نعيم خالد وعذاب أليم . وبذلك يمكنه أن يقف مع تلك الشهوة وقفة حكيمة حازمة فلا يذرهما تطفئ عليه فتورده موارد الهلاك والردى وتوقعه في أشد المحن والأرزاء خصوصاً اذا كان يعلم بما يحيط بها من البلوى وما يكتنفها من المصائب والأهوال .

فان صاحب الجاه والسلطان لا يفارقه الوجل والخوف على زوال جاهه ونقصان سلطانه فهو في فزع دائم وقلق مستمر كلما أحس بانصراف القلوب عنه تكدر عيشه وزاد بلاؤه وهمه فهو دائماً بين هواجس نفسانية لا يستطيع الافلات منها وعوامل وهمية تصور له المحال فيذعن لها ويصدقها . وعلى الحقيقة ان من افتن بحب الشهوة وغرامها كان جديراً بأن يرثى له ويشفق عليه والا فماله وللظهور الذي يكلفه عناء ويحمله بلاء . ماله وللجاه الذي يطلب منه أن يناقق للناس اذا كان النفاق يرضيهم ويزين لهم أهواءهم الباطلة اذا توقف على ذلك استمرار عقيدتهم فيه . ويفعل ما يخالف اعتقاده اذا ترتب عليه دوام القلوب معه بل ماله وللسلطان الذي يكدر من أجله صفوه وينقص عليه عيشه ويحمله من الهموم والأثقال ماتوء تحته الجبال . وأخيراً يعذب عليه عند الله تعالى عذاباً أليماً . لا ريب في أن ذلك هو الحسرة المبين والبلاء العظيم .

أما الذي يطلب الجاه والسلطان ليصلح بهما حال المجتمع الانساني وينصر بهما الحق في كل موطنه ويؤيد بهما دين الله تعالى فذلك هو الذي يظل مطمئن القلب قدير العين لا يرضى الناس ويفضض الله ولا يحفل الا بالحق ولا يعنيه الا الاصلاح وسواء عليه أن يزيد جاهه أو ينقص سلطانه مادام في ذلك رضى الله تعالى وصلاح عباده . ومن تأمل في الأمرين يجد أن الأول شره ضعيف النفس لا ينظر الا للذة في ذاتها فيخسرهما في الدنيا والآخرة . وأما الثاني فانه حازم ذو عفة ونزاهة نفس لا ينظر الا الى ما يترتب على شهوته من المصلحة العامة فينعم بالا في الدنيا والآخرة وينعم باللذة التي يريدتها على وجهها الاكمل والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

حب المدح وكراهة الذم

ويتبع حب الجاه والسلطان حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول وتلك صفات طبيعية في الانسان أيضا فانه مفطور على أن يحب الكمال فكلما جعله كاملا في أعين الناس يكون محبوبا لديه فهو يحب أن يكون كاملا في خلقه كاملا في دينه كاملا في دنياه ظاهرا بين الناس بكل هذه المظاهر لأنه يحب أن يمدحوه ويرضوا عنه ويجلوه وكل ذلك يتبع في الحقيقة حب الجاه والسلطان لأنه إنما يفعل ذلك ليسيطر على قلوب الناس ويهيمن عليها فيصبح ذا جاه بينهم وسلطان عليهم وهذا نهاية ما تنصبوا اليه الأنفس بطبيعتها التي خلقها الله عليها لما فيها من صفة الربانية التي تقدم بيانها

وقد علمت أن شهوة الجاه والسلطان تارة تكون سالحة وتارة تكون فاسدة باعتبار ما يترتب عليها من الآثار وما يكتنفها من الأغراض . وكذلك ما يتبعها من حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول

فان كان لغرض شريف وغاية حسنة كان ممدوحا والا كانت مذموما مثلا . ان كان يحب المدح بالحق ليتوصل به الى الاستيلاء على قلوب الناس والسيطرة على أنفسهم ليصلح الفاسد ويقوم المعوج ويسلك بهم سبيل الرشاد وطريق الهداية فذلك ممدوح وكذا اذا كان يحب المدح على الصفات الحسنة ابتهاجا بتقدير الناس للفضيلة ورضاهم عنها ومخاطبتهم على الرذيلة ومجافاتهم اياها لتحيا الفضيلة وتموت الرذيلة بينهم فان ذلك يكون ممدوحا . وكذا اذا كان يحب المدح على الفضيلة ليكون فيها قدوة حسنة للمقتدين ومثالا صالحا للعاملين فان ذلك يكون ممدوحا وهكذا أما اذا كان يحب المدح سواء أكان بحق أم لا ولا غرض منه الا أن يكون عظيما بين الناس ليستخدمهم في شهواته ويستعين بهم على لذاته ولو أفضى ذلك الى الاصطدام بالدين والأخلاق الكريمة كما ينهك في الفصل الذي قبل هذا فان ذلك يكون مذموما أسوأ الذم وبالجمله فالمدار في كل هذا على نية المرء وأغراضه الباطنية كما قال رسول الله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت نيته صلاح حال المسلمين وارشادهم ونصرة الدين كان له أجر على كل ما يورثه لهذا من جاه وسلطان ومدح وظهور ومن كانت نيته تحصيل شهوة أو قضاء لذة أو سد مطمع كان عليه وزر في كل ما يتوصل به الى ذلك . وعلامة ما كان لله تعالى أن لا يبالي صاحبه بالناس في

مواطن الحق فلا يوافقهم على باطل ولا يعينهم على فساد سواء رضوا أو غضبوا وسواء مدحوه أو ذموه ويكون شعاره دائماً مرضاة الله تعالى ونصرة الحق والدين. ويعجبني ما قاله بعض الصوفية في ذلك

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأناام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى والعالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب
نسأل الله تعالى أن يصلح أنفسنا ويهدينا الى سواء السبيل انه واسع الفضل والجود

الرياء

وما يتبع شهوة الجاه والسلطان الرياء في عبادة الله تعالى وهو من الأمراض النفسية الخطرة والأوباء الاخلاقية الضارة التى تحتاج الى علاج دائم ويقظة مستمرة فلا يصح للمرء أن يغفل أمره حتى يستفحل شره ويتفاقم خطره ويصبح داء مستعصياً يحبط الاعمال ويعرض صاحبه للشرك بالله الواحد القهار

وهو مأخوذ من الرؤيا لان المرأى يرى الناس — يظهر لهم خصال الخير من العبادة حبا لمحمد وفراراً من ذمهم — كى يستولى بذلك على قلوبهم فيكون له سلطان عليهم يصل به الى لذاته ويستعين به على تحصيل شهواته . فهناك أمور خمسة . مرأى . وهو العابد الذى يظهر خصال الخير . ومرأى وهم الناس الذين يظهر لهم ذلك . ومرأى به وهى تلك الخصال ومرأى لاجله وهو الجاه والسلطان وحب الحمد وكراهة الذم . ورياء وهو قصد اظهار العبادة لذلك الغرض وكما أن الجاه يطلب باظهار العبادة للناس فقد يطلب بغيرها كما تقدم . إلا أن طلبه بالعبادة خص باسم الرياء عادة والمرأون بالعبادة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ المرأون بالعقائد الدينية وهم الذين يظهرون للناس أنهم موحدون يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وهم يعتقدون خلاف ذلك . أو يظهرون لهم أنهم يؤمنون بالغيب من جنة ونار وملائكة ونحو ذلك بما هو معلوم من الدين بالضرورة وهم يعتقدون غير ذلك ولا ريب في أن ذلك كفر يخلد صاحبه في نار جهنم وهو المنافق الذى ورد ذكره في غير موضع من القرآن

الكريم . قال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها) الآية . وقال تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن) الى غير ذلك من الآيات الواردة في المناقبين ولقد كان النفاق في التوحيد كثيراً في مبدأ الاسلام اما الآن فان النفاق يكثر فيها دون ذلك فانك ترى كثيراً من الناس يذهب بهم قصر النظر وضعف الادراك الى عدم الايمان بكثير من الغيب كالجنة والنار والملائكة ثم هم يخفون عقيدتهم هذه ويظهرون امام الناس بضدها خوفاً من ذمهم وطمعاً فيما عندهم فاذا ما سئحت لهم فرصة لاعلان عقيدتهم لم يتأخروا عن المجاهرة بها وهؤلاء كفرة منافقون لأنهم يعتقدون خلاف ما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو كفر ونفاق . والرياء في العقيدة على ذلك الوجه من أكبر درجات الرياء وأشدّها أثراً . وهناك أقل من ذلك درجة كاعتقاد بعض الامور الشاذة التي تضر بالدين وتورث سوء الظن في عبادة المسلمين كاعتقاد بطلان الفروع الفقهية وضعف ادراك ائمة الدين الذين اجتهدوا في استنباطها ويعتقد جهلاً وغروراً أنه أرقى منهم ادراكاً وأدق منهم نظراً في كتاب الله وسنة رسول الله ومع ذلك فانه يظهر امام الناس بأنه يقلد مذهباً من تلك المذاهب التي يعتقد بطلانها خوفاً من ذمهم وطمعاً فيما عندهم . وهذا وان كان أهون من الأول الا أن صاحبه منافق جبان مغرور يستحق العقاب على كل هذا

﴿القسم الثاني﴾ المراءون بالفرائض الدينية والاركان الشرعية وهؤلاء هم الذين يفعلون اركان الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج امام الناس من اجل غرض من الأغراض التي ذكرت آنفاً فاذا ما خلا الواحد منهم بنفسه لم يعمل شيئاً فلولاً الغرض الذي يريد تحقيقه ما صام ولا صلى ولا حج ولا زكى . وأقبح أنواع الرياء ما فعل للحصول على لذة محرمة كأن يحتال به على الفسق بامرأة أو غلام أو يستعين به على سلب مال ظلماً وعدواناً أو يتوسل به الى ايداء برى في عرضه أو ماله أو دينه ومن يفعل هذا فهو وان كان مسلماً في ظاهر أمره الا أن الاسلام يرى منه في الواقع وقد دلت الاحاديث الصحيحة على نفى الاسلام عنه في غير موضع وسيجزي على عمله هذا أشد الجزاء ويعاقب عليه أسوأ العقاب في يوم يؤخذ فيه المجرمون بالنواصي ويساقون الى نار وقودها الناس والحجارة أما الرياء بالفرائض الدينية للحصول على لذة مباحة كأن يحتال باداء الفرائض على الزوج بامرأة أو الحصول على مال بطريق الهبة ونحوها . ولولا هذا الغرض ما قام بادائها فانه وان كان أهون من الأول ولكنه قبيح جد القبح وفساد لا يعدله فساد لانه شرك بالله تعالى في هذه العبادة بل هو في الحقيقة عبادة للشهوة لا لله تعالى . ففاعله وان كان مقراً بالتوحيد الا أنه سيعذب على ذلك عذابين عذاب على ترك الغرض وعذاب على فعله رياء ونفاقاً . ولو كان عنده مثقال ذرة من الادب والحياء لحجل من خالقه الذي لا ينبغي له أن يعبد سواه أو يشرك معه في عبادته شيئاً ولكنه بدلاً من ذلك قد جعل عبادته وسيلة لاقتناص الملاذ والحصول على الشهوات وفي ذلك يقول الله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) ومما لاشك فيه أن غير الصلاة من الفرائض الدينية مثل الصلاة في ذلك فمن فعل شيئاً منها رياء كان له الرييل عند الله تعالى

وهناك فريق من الناس يؤدي الفرائض للعرضين معا فهو يقصد بها الثواب والقيام بواجبه ويقصد كسب قلوب الناس ليسخرهم في أغراضه وشهواته وهذا وإن كان أقل من الأول قبحا إلا أنه شر وفساد خصوصا إذا كان الغرض الذي يقصده محرما فإن عقابه يكون كعقاب الأول تماما أما إن كان ذلك الغرض مباحا فإن العقاب فيه يكون قاصرا على نفس الرياء لأن عبادة الله تعالى يجب أن تكون خالصة له لا ينبغي أن يخالطها غرض من الأغراض المتعلقة بالشهوات قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

﴿ القسم الثالث ﴾ المراءون بالنوافل وأوصاف العبادة كأن يؤدي الواحد من هؤلاء النوافل في حضرة الناس ويتركها إذا كان وحده أو يجيد أداء الفرض في حضور الناس ولا يجيده إذا كان وحده كأن يشرع في الصلاة منفردا فإذا مارأى الناس أطال فيها وأظهر الخشوع والخضوع والرياء في ذلك كالرياء في غيره فإن كان يقصد به الحصول على شهوة محرمة أو الوصول إلى جاه يظلم به أحدا من عباد الله تعالى كان أثمه عند الله عظيما وعقابه اليأس أما إن كان يقصد به الحصول على شهوة مباحة فهو وإن كان أقل من الأول عقابا ولكنه قبيح مذموم لما علمت أن عبادة الله يجب أن تكون خالصة له فمن يؤديها لغرض من الأغراض فقد أشرك فيها ذلك الغرض مع الله تعالى ومن يفعل ذلك فهو غي بمقوت يستحق الذم والعقاب لأنه قد استهان بعبادة الله تعالى وجعلها وسيلة للحصول على الأغراض الدنيوية والشهوات الجسدية مع أن النوافل من أجل تشرع للحصول على الثواب الكثير والدرجات الرفيعة عند الله تعالى فأنقلبت عليه شرا وبالا بفعلها رياء وأصبح يستحق عليها عقابا وذلك فساد وخلل عظيم

﴿ القسم الرابع ﴾ المتحدثون بأعمالهم بعد تمامها كأن يقول الواحد منهم صليت كذا وصمت كذا وفعلت كذا من الخير وهذا وإن كان لا يحبط العمل الذي تم على وجه صحيح إلا أنه ينظر إلى قصده من التحدث بذلك فإن كان فسادا كان محرما وإن كان فرارا من ذم الناس ورغبة في مدحهم بدون أن يقصد منها الوصول إلى غرض غير ذلك كان ملوما من جهة واحدة وهي أنه قصد رآء الناس بطاعة الله وقد علمت أن ذلك لا يجوز

﴿ القسم الخامس ﴾ المراءون بالهيئة والزى يرى الواحد من هؤلاء يتكلف العمل على تحول بدنه واصفرار وجهه كي يظهر بمظهر العابد الذي أضناه السهر وأتحله الصوم ومنهم من يتكلف خفض صوته أو يطرق رأسه أو يغمض عينه أو يترك شعره شعنا أو يطيل لحيته أو يلبس أثوابا تختلف عن أثواب أهله وعشيرته ليلفت إليه انظار الناس أو يجعل له منها شكلا خاصا يختلف عن عادات الناس الذين يعيش في بيئتهم مادام ذلك يؤثر على نفوسهم ويجعلهم يعتقدون فيه العبادة والزهد وهذا النوع من الرياء يخيف جد السخف لأنه لا يتأثر به إلا ضعاف العقول صغار النفوس كما يتأثرون بالنصايين والمحتالين الذين يخادعون الناس ليغتصبوا أموالهم وأعراضهم بالخيالات الكاذبة والدعوى الباطلة وكل هؤلاء من شرار المفسدين الذين يجب على الناس أن يحذروا شرهم ويمقتوهم ولا يبالوا بهم ولا يحيلهم وأزيائهم أن كانوا يعقلون

وبعد فاعلم أن النية عليها مدار الثواب والعقاب كما علمت مما مضى فإذا كانت المرء يتحدث بعمله الصالح أو يظهره بين الناس ليكون قدوة صالحة لهم ومثالا حسنا يقتدون به لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته بتشر الفضيحة وإحيائها بين الناس من غير أن ينظر إلى مدحهم وذمهم فلا يشبهه عن عمل الصالحات شيء من ذلك . ولا يغريه عليه رضاء أحد من الناس على أن يكون يقظا لا يجعل للغرور والعجب إلى نفسه سبيلا فإن عمله على ذلك الوجه لا يكون داخلًا في باب الرياء بل يكون مطلوبًا وقد يكون واجبا إن تأكد من اقتداء الناس به في عمله الصالح ويكون له على ذلك أحسن الجزاء وأفضل الأجر . وكذلك تنظر الشريعة الإسلامية الكريمة إلى جميع الأعمال فإن ترتب على العمل فساد كان مذموما سواء أكان في ذاته فرضا أم نفلا وإن ترتب عليه صلاح كان ممدوحا لجميع أحكامها وقضاياها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المجتمع الإنساني وكمالها ترمي إلى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتربية النوع الإنساني أحسن تربية وتأديبه أفضل الأدب ويكفي في ذلك قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فعلى العاقل أن ينزه نفسه عن الرياء وأن يطرح الناس جانبا فلا يبالى بمدحهم ولا يخشى من ذمهم وعليه دائما أن يزن ما يحصل عليه من ثقتهم به وما يناله من وراء ذلك من اللذات الزائلة بما يحصل عليه بالعمل الخالص لله تعالى من نعيم خالد وسعادة دائمة فإنه إن فعل ذلك هانت عليه لذات الحياة الدنيا وسهل عليه أمر شهواتها وكان في كل أعماله من قرائض وسنن مخلصا لله تعالى الذى لا يستحق العبادة إلا هو وهو سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من العمل الصالح وسيجزى العاملين جنات النعيم

الباب الثاني

في الغضب

تعريفه

هو قوة طبيعية تنور من باطن الإنسان فتحملة على الدفاع عما يحبه من الأغراض وتدفعه إلى البطش بكل ما يؤذيه فإذا اعتدى عليه معتد أو حيل بينه وبين أغراضه تنور تلك القوة فيغلي دمه وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن فيظهر أثره على ظاهر الوجه والعينين فعنى الغضب غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها على أن الغضب بديهي معروف في الإنسان والحيوان وأثره محسوس فلا يحتاج إلى تعريف

درجات الغضب

وحكمة خلقه في الانسان

للغضب ثلاث درجات وهي : اولا . درجة الاعتدال وذلك بان يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله أو يغضب ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلومين وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الله الغضب فهو مخلوق لحكمة ضرورية تقتضيها طبيعة العمران ويتطلبها نظام المجتمع الانساني فان التزاحم في هذه الحياة يستدعي دفاعا قويا عن النفس والدين والمال والعرض . فخلق الله الغضب في الانسان ليحملة على الدفاع عن هذه الأمور الضرورية لحياته فيصد عنه الأثرار الذين يحاولون الاستقلال بما يراحمون فيه من لذات الحياة ومتاعها أو يحاولون سلب ما بأيدي الناس مما لا يستطيعون الحصول عليه بالوسائل المشروعة وكذلك يحمله على الدفاع عن عقيدته التي هي اقدس شيء لديه في هذه الحياة تلك هي حكمة خلق الغضب في الانسان ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض دعائم النظم الاجتماعية والدينية لأن من لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه فتختلط الانساب وتعم الفوضى في ذلك الباب ويصبح الانسان كالحیوانات التي يسطو بعضها على بعض بدون غيرة ولا حمية ولا معرفة لما يترتب على ذلك من التناسل الذي به حياة النوع الانساني وبقاء العمران الى الاجل الذي قدر له في ذلك الوجود . ومن لا يغضب لنفسه فانه يكون معرضا للزوال من هذا الوجود او معرضا لأن يسخره غيره كما تسخر الدواب والانعام التي لا تغضب لنفسها . ومن لا يغضب لماله فانه لا يلبث أن يسلبه الناس منه ويصبح فقيرا معدما . واذا فشى سلب المال فان نظام العمل يتعطل وتبطل الاعمال التجارية والصناعية والزراعية ويعتمد الناس على سلب بعضهم بعضا . ومن لا يغضب لدينه فانه لا يستقر على دين لأن اختلاف طبائع الناس واختلاف انظارهم من اكبر البواعث على اختلاف معتقداتهم فن لا يغار على دينه يكون عرضة لتقليد القوى في كل ما يراه فينقل من دين الى دين وهكذا وكل ذلك طبع في الانسان فان الناس منطوروون على التنازع فيما يشتهون والتزاحم على ما يحبون ولا يزالون مختلفين في طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم ومسوقين بعامل اللذات الى محاربة من يستقل بامر من الأمور التي يشتهونها ولا يملكونها . فخلق الله الغضب ليحمل الناس على أن يدفع بعضهم بعضا فيستقر النظام ويقف كل واحد عند الحد الذي قدر له في هذه الحياة والى ذلك يشير قول الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) وكذلك قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) ثانيا . درجة التفريط وهي أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بان يضعف في الانسان أو يفقد منه رأسا وتلك الحالة مذمومة شرعا وعقلا لأن من لا يغضب لعرضه أولدينه أو لنفسه أو لماله فهو جبان لم يجرى على سنن الله في خلقه ولم يستعمل تلك القوة التي خلقها الله في الناس ليدفع بها بعضهم بعضا وفي ذلك ضرر عظيم على المجتمع الانساني لأنه يثير الفوضى في جميع نواحي الحياة كما علمت وذلك موجب لفساد الارض وهلاك الانسان

ثالثا درجة الافراط وهي أن يخرج الغضب عن حالة الاعتدال فيطغى على العقل والدين فلا يقصر المرء غضبه على ما يلزم أن يغضب من أجله بل يتعداه إلى أقل الامور وأيسر الأسباب فيغضب لها غضبا شديداً ويندفع في سبيل الشر اندفاعا قد يفضي به إلى الهلكة من حيث لا يدري . وربما جره غضبه من أجل أمر يسير إلى اعتراف أكبر الجرائم وشر الموبقات كأن يغضب على من لا يقف إجلالا له فينتقم منه في مركز الحكم ويقضى عليه ظلما وعدوانا . أو يغضب على من لا يظهر له الخضوع والاستكانة فيؤذيه بالضرب والشتم . أو بالاعتداء على مورد رزقه . وربما ساقه الغضب إلى أن يفعل ما لا يصح صدوره عن الانسان كأن يغضب على من يأمره بمعروف أو ينهيه عن منكر أو يحول بينه وبين شهوة محرمة .

ولا ريب في أن ذلك وحشية يستنكرها العقل السليم وتفر عنها الطباع المعتدلة لأن مثل من يفعل ذلك كمثل الذي يعتدى على الطبيب الذي يريد أن ينقذ حياته من العدم . وذلك نهاية السفه وغاية السخف وكذلك قد يسوقه الافراط في الغضب إلى أن يعتدى على من يطالبه بحق من الحقوق . أو يغضب على من يرزقه الله علما أو مالا أو منصباً أو جاها فينقلب غضبه حقداً وحسداً . إلى غير ذلك من الجرائم والشرور . وبديهي أن الغضب في تلك الحالة مذموم عقلا وشرعا وتتفاوت درجات ذلك الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكثر ذمّا وأكثر جرماً . فطغيان الغضب وخروجه عن حد الاعتدال ومخالفته للعقل والدين شر عظيم وخطر شديد على المجتمع الانساني فان آثاره السيئة لا تنقف عند حد ولا تنحصر في عدد وكفى به ذمّا أنه يبعث إلى ظلم الأبرياء والاعتداء على خلق الله تعالى بدون مبرر . وذلك شر الجرائم وأكبر الموبقات

أسباب الغضب

للغضب أسباب كثيرة تختلف باختلاف امزجة الناس واستعدادهم للتأثر بالاشياء . فرب شخص يغضب لأمر يراه غيره سبياً في مسرته وذلك كثير الوقوع بين الناس فليس من غرضنا بيان هنا انما الغرض ذكر الأسباب التي يرجع اليها طغيان الغضب وسرعتها غالباً . فمنها الجدال . والمزاح والسخرية بالناس والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان فلا يبالي أن يسب غيره أو يلغنه أو يفتابه أو ينم عليه . إلى غير ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والعجب وسند كر لكل منها مبحثاً خاصاً .

أما أن الجدال . والخصومة . والمزاح . ونحوهما من آفات اللسان من موجبات الغضب فهو ظاهر . وأما أن الكبرياء والعجب من موجبات الغضب فلأن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما

فانه ما يعتقد أنه ينافي عظمته وخيلاه فاذا طالبه أحد بحق احتاج غضبه وكذا اذا نهاه عن رذيلة أو إذا تصدر مجلساً دونه أو إذا عارضه في أمر وهكذا. وذلك لأنه يعتقد أنه كامل من جميع الجهات فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهيه أو يقف في سبيله أو يتقدم عليه وهو في الواقع ناقص من كل وجه ويحاول أن يجبر نفسه بكبريائه كما سألته لك في موضعه.

ومنها الاستعداد الفطري فقد يكون الانسان مستعداً بطبيعته لسرعة الانفعال والغضب حتى لقد يراه الناظر اليه في صورة الغضبان بدون سبب ويساعد على ذلك حدة مزاج القلب . ومنها مصاحبة الأشرار الذين لا يفرقون بين الممدوح والمذموم من الغضب فيحسبون الثور شجاعة ويمدون طغيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك وتصبح سرعة الغضب عادة مكتسبة له .

ومنها فوات اللذات والشهوات من مطعم ومشرب ومسكن ووقاع وغير ذلك وتلك اللذات وإن كانت مملوكة له حلالاً وحيل بينه وبينها بدون مبرر شرعي فان له الحق في أن يغضب حتى يسترد حقه ويكون الغضب في هذه الحالة من القسم الممدوح إلا أنه إن كان الذي فاته ضرورياً له كان الغضب من أجله واجباً وإن كان كالياً كان الغضب من أجله جائزاً . أما إن كانت حراماً عليه أو غير مملوكة له كما إذا غضب للحيلولة بينه وبين امرأة لاخلل له أو غضب لفوات دعوة إلى وليمة ليست مملوكة له ونحو ذلك فان الغضب لذلك يكون من القسم المذموم

ومنها الوشايات والنائم فمن الناس من يغضب لمجرد وشاية نقلت اليه عن بعض الناس . أو لمجرد نسيمة بلغته من نمام بدون أن تثبت في الأمر فيعتدى على الأبرياء بقطع أرزاقهم أو حرمانهم من حقوقهم . أو لئذائهم في أبدانهم أو القدح في أعراضهم . إلى غير ذلك من الجرائم التي تترتب على الغضب . وربما كانت الكلمة التي نقلت اليه على فرض صدورها لانسأوى شيئاً من غضبه . وذلك شر ما يترتب على الغضب من الظلم وأقبح ما يؤخذ به الانسان من الموبقات خصوصاً إذا كان ذا سلطة ونفوذ فيستعملها في الخفاء . أو في العلانية ضد من يغضب عليه بدون سبب صحيح وبدون أن يمس له من وسائل الدفاع عن نفسه ما قد يثبت براءته عنده . ولذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فاتكم فادمعون) فمن كانت نفسه تتأثر بمثل ذلك فيجب عليه أن يعالجها بالتثبت حتى إذا تأكد من صدق ما نقل اليه كان له الحق في أن يدافع عن نفسه بقدر ما أصابه بدون بغى ولا طغيان والعفو في مثل هذه الحالة أفضل . خصوصاً إذا أنكر المنقول عنه ما نسب اليه فان الانكار اعتذار يستوجب الرأفة والرحمة ولقد نهى الشارع عليه الصلاة والسلام عن سماع النائم والوشايات كما سيأتي بيانه مفصلاً .

ومنها المشاحة في البيع والشراء فيغضب الواحد إذا لم تسوّم سلعته على حسب ما يشتهي . أو يغضب إذا ساومه أحد سلعته ثم لم يشتريها منه . ومثل ذلك ما إذا طلب من أحد أن يقرضه مالاً أو يعيره شيئاً فلم يجبه . وكذا إذا طلب منه أن يعينه في عمل خاص فأبى إلى غير ذلك . والغضب في مثل

هذه الأحوال حاقلة لا مبرر لها لأنه مادام لم يعتد أحد على حقه فليس له أن يغضب مطلقا فإذا غضب كان غضبه مذموما

فمن كان سريع الغضب بطبيعته أو كان الغضب مكتسبا له بالطبع فيجب عليه أن يعالج نفسه في مثل هذه الأمور بالتحرى عن يطلب منه فإن هذه الأمور وإن كانت هيئة في ذاتها ولكنها قد تذهب بسرعة الغضب إلى مالا تحمد عقباؤه فإنه إذا ثار غضبه لا يقف به عند الحد المعقول وعليه أن يعتدل في بيعه وشرائه وأن يبرن نفسه على احتمال ما يقع عادة عند البيع والشراء من النزاع .

ومنها ما يستحكم في نفوس بعض الجبهة من الرذائل فإن بعض الأشرار من هؤلاء قد تنعكس طبائعهم فتصبح الرذيلة فضيلة في أنفسهم فيباهون بالجنايات ويفخرون بالمورقات فيغضب الواحد منهم إذا قيل له أنك لا تشرب الخمر كثيراً أو أن خليلك غير مطيع لك أو أنك لا تحسن لعب الميسر وهكذا ومن كان هذا شأنه كان ذاؤه ويلا ومرضه مستعصيا قد لا ينفع فيه علاج ولا تؤثر فيه موعظة . على أن المرشد لا يأس من الإصلاح على أى حال فعليه أن يحذر مثل هذا عاقبة الشهوات الفاسدة ويضرب له الأمثال بمن صرعهم الإفراط فيها فقد أصابتهم الأمراض القاتلة بسبب ذلك وحل بهم الفقر والبؤس حتى أصبحوا من المتسولين . فكل من يغمس في تلك الشهوات يكون هذا مصيره لاحالة فيذهب عقله وبدنه وماله ويكون عرضة لنكبات الزمان ومحن الأيام فضلا عما أعد له في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم فلعل ذلك ينفع في علاجه ويرد إليه بعض رشده .

ذلك معظم الأسباب التي تثير الغضب وتهيج . والغضب المترتب عليها كلها مذموم عقلا وشرعا إلا ما كان منها متعلقا بالدفاع عن العرض والمال والدين والنفس كما علمت . أو كان متعلقا بالدفاع عن الحقوق العامة ونصرة المظلومين فالذين يغضبون لذلك هم الذين كللت طبائعهم وقويت عقولهم فأصبح سلطانها على الغضب كاملا ولقد امتدح الله تعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حيث وصفهم بالشدة في قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم فكانوا أهلا لرضاء الله عنهم وكانوا أحسن قدوة لمن يناضل في سبيل الحقوق العامة ويدافع عن كيانه ودينه وكرامته لجدير بالعقلاء أن يكون ذلك شأنهم دائما فلا تنور أنفسهم لسفاسف الأمور وتأفها بل يلزم أن يقصروا غضبهم على المواطن التي يمدح فيها الغضب ليظفروا برضوان الله تعالى وثناء المجتمع الانساني .

ومما يلزم التنبيه له أن الشريعة الاسلامية قد جعلت لاستعمال ذلك حدودا يلزم الوقوف عندها فمن تجاوز هذه الحدود فقد انعكس عليه الأمر وأصبح غضبه مذموما . مثلا إذا اغتصب أحد منك درهما أو سبك بكلمة أو لطمك لطمة فإن لك الحق في أن يثور غضبك بقدر ما أصابك من الاعتداء . ولك الحق في المطالبة بالجزاء الذي أعده الحاكم . لذلك من قصاص وتعذير فإذا لم تملك غضبك ولم تستطع

كظمه الى أن ترفع أمرك للحاكم فإنه يجب عليك أن تصون لسانك عن الفاحشة وسب الوالدين والغبية والنجمة فإذا قال لك يازاني مثلاً حرم عليك أن تقول له مثل ذلك ، وكذلك إذا سب والدك فإنه يحرم عليك أن تسب والديه وكذا إذا اغتابك في مجلس وعلبت بذلك فإنه يحرم عليك أن تنتقم لنفسك باغتيابه . ومثل ذلك ما إذا نمت عليك أو وشى بك . وذلك لأن كل هذه صفات يجب أن يفتزها المرء دائماً فإذا فعلها شخص وقع مع غيره لا يجوز له أن يكون مثله في هذه الوقاحة على حساب الغضب لمرضه أو لدينه وله الحق في أن يغضب ليرده بالوسائل الأخرى كرفع أمره للحاكم أو بالتويخ والتفريع والزجر ان كان ينفع فيه هذا

العفو عند الغضب

أما العفو عن مثل ذلك فإنه ينظر فيه الى حال المعفو عنه فإن كان ممن يصلحهم العفو ويترك في أنفسهم أثراً حسناً فيكون سبباً في أن يراجع الواحد نفسه ويلومها ويتخذ منه درساً نافعاً وعظة . كان العفو في تلك الحالة جميلاً كما لو كان الذنب الذي من أجله العفو وقع خطأ أو نسياناً . وفي مثل هذا يقول الله عز وجل (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) فالمحسنون هم الذين يحسنون الى الناس بأعمالهم وأقوالهم التي تنفع . فإذا كان العفو ينفع ويصلح المعفو عنه كان احساناً . أما إذا كان سبباً في اغرائه على التماذى في العدوان على خلق الله وباعثاً له على الفحشة وسوء الأدب ومجرئاً له على ارتكاب المعاصي . أو كان الذنب الذي ارتكبه يوجب حداً من حدود الله تعالى فإن العفو في هذه الحالة لا يجوز لأن العفو حينئذ يكون إساءة لا احساناً . وفي مثل هذا يقول الله عز وجل (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) .

هذا أصل من أصول الشريعة الإسلامية السمحة وهو تأديب المجتمع والأفراد واصلاحهم بكل الوسائل فما يجلب صلاحاً ونفعاً ويدرك فساداً وضراً فإنها تأمر به وتقره وبالعكس . قد يقال إن العفو إذا تكرر يكون من أحسن الوسائل التي بها تملك النفوس وتخضع الاعناق ألا ترى أنك إذا واليت حيواناً مفترساً بالاحسان اليه فإنه يذل لك ويخضع . فما بالك بالإنسان اللهم الا أن يكون ذى جنة لا يعبى ولا يعقل . ومثل هذا لا يقام له وزن ولا يعبأ له بعمل ومن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابتغوا الرفعة عند الله تعالى قالوا وما هي يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عن جهل عايبك » فلا ريب أن الناس إذا عملوا بتلك

الحكم العالية فان العداوة والبغضاء ترتفع من بينهم وتقل الخصومة والمنازعة فيهم وينعدم الحقد والحسد من أنفسهم فان النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فانها لا بد أن تلين وتخضع بموالاته الاحسان وتكرار العفو . وهذا القول في ذاته حسن ولكن الواقع ان طبائع الناس في ذلك تختلف كل الاختلاف . فمنهم من يصلحه العفو . ومنهم من يغريه ويطفئه بلا نزاع وعلى هذا جاءت الشريعة الاسلامية فتى انتج العفو تلك النتيجة التي ذكرت فهو حسن ممدوح . أما اذا كان ينتج القوضى واساءة الأدب أو كان في حد من حدود الله تعالى فلا شك في أنه يكون حراما مذموما .

علاج الغضب

قد علمت ما تقدم أن سرعة الغضب تارة تكون طبيعية وتارة تكون مكتسبة بالمصاحبة والاختلاط فمن كان سريع الغضب بطبيعته فانه يعالج باجتناّب الأسباب التي تثيره كالمزاح والجدل والكبرياء والخيلاء .

ان هذه الصفات مهما تمكنت من النفس لا يمكن أن تكون طبيعية بل هي صفات عارضة لأسباب معرضة للزوال من آن لأن فان الذي يتكبر لكثرة ماله أو يفخر بقوته أو يختال بجاهه وسلطانه يذل ويستكين ويخضع لو ذهب المال والسلطان وقد تسوء حاله الى أبعد مدى حتى إنه قد يذل لمن كان عبداً له وخادما عنده وترغمه الحاجة على أن يصبح خادما بعد أن كان سيداً . فالعاقل من لا يغتر بأسباب العظمة والكبرياء ويعتبر بغيره ممن قلب لهم الدهر ظهر المجن وقد كانوا أكثر منه مالا وأشد قوة وماذا يمنع من أن يضام مثلهم . فاذا برئت نفسه من الكبرياء والفخر والخيلاء وابتعد عن الجدال والمزاح وسلم لسانه من الآفات التي سببها كرها بعد . وهي صفات غير طبيعية كما علمت فانه . لا يضره أن يكون سريع الغضب بطبيعته لأن هذه الأسباب هي التي تثير الغضب كما علمت مما تقدم .

فيجب على سريع الغضب بفطرته أن يمرن نفسه دائماً على التواضع ويذكرها بعظمة الخالق وحده ويفهمها بأنه مخلوق من ماء مهين وأنه صائر الى فناء وأنه سيكون عظاما بالية وترابا تطؤه الدواب بأرجلها . ومن كان هذا شأنه فلا ينبغي له أن يكون متكبراً يحقر خلق الله ويطفئ عليهم فاذا نزعت نفسه الى التواضع فانه لا يتألم لتلك الاعتبار التي يتألم منها المتكبرون وبهذا يدرأ عن نفسه غائلة سرعة الغضب الى أن تقل حدتها وتذهب ثورتها وهذا أهم ما تعالج به أنفس المستعدين

بفطرتهم للغضب . وأما من كانت سرعة الغضب ليست طبيعية له ولكنها اكتسبت بالعادة والمخالطة فانه يعالج بأمر .

أولا اجتناب صاحبة هؤلاء الاثرار والبعد عنهم . ثانيا اجتناب الاسباب المثيرة للغضب آنفا ثالثا . تعليمه أن ليس للانسان أن يغضب الا من أجل دينه أو نفسه أو عرضه أو ماله وما زاد على هذا فهو رذيلة مذكومة يجب على العاقل أن يتنبه لها ولا يذرهما تنساق عليه فتضيع سلطان العقل ويصبح الانسان عرضة للهلاك في الدنيا والآخرة فقد يدفعه غضبه الى الجناية على غيره وهو غير عالم لانه يصبح كالمجنون الذي لا يعي ما يقول ولا يضبط ما يفعل .

هذا الذي ذكرناه لك هو علاج الغضب قبل ثورته وطمغيانه بالابتعاد عن أسبابه فراراً من الوقوع فيه فإذا نار الغضب فعلا وتملكت ثورته نفس الغضبان كان علاجه صعبا شاقا لانه يفعل في النفوس ما يذهلها وينسبها مالها وما عليها من الحقوق والواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأفعال ما لا يصدر الا عن المجانين كأن يضرب نفسه ضربا مبرحا حتى لقد يقتل نفسه وهو لا يدري ومن الناس من يمزق ثوبه ويلطم وجهه ويكسر الآنية الى غير ذلك فالحازم الشجاع هو الذي يضبط نفسه عند الغضب ولا يذره يستولى على مشاعره حتى ينطق نور عقله ويذهب ساطعانه على البدن فيورده الغضب مورد الهلاك ويقضى على حياته المادية أو الأدبية فإذا نار الغضب وجب على المرء أن يذكر على الفور قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته وأدخله في محبته من اذا أعطى شكر واذا قدر غفر واذا غضب فتر » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد . وقوله صلى الله عليه وسلم « مامن جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » رواه ابن ماجه . وقوله ﷺ « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته » فانه اذا كان مؤمنا بالله ورسوله حقا ويعلم أن رسول الله ﷺ رؤوف رحيم بأئمة وأنه لا يقول الا ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم وان من خالفه لا يفلح أبداً فلا ريب أن نفسه تتأثر بهذا وينصرف عن غضبه فيسلم من نتائج الضارة به في دينه ودنياه .

ولقد أخبر رسول الله ﷺ وهو الصادق الامين بان من فتر غضبه — ضعف — حال ثورته فانه يكون في كنف الله وستره وأن الله تعالى يدخله في محبته وذلك أحسن الجزاء وأجزل العطاء فان من كان في محبة ربه فقد ظفر بسعادة الدنيا والآخرة وكان من الفائزين وهذا خير علاج تعالج به نفوس المؤمنين عند الغضب وأمضى سلاح تقاوم به ثورته وطمغيانه فعلى كل مسلم أن يذكر أن طغيان الغضب مذموم في نظر الاسلام وأنه يترتب عليه آثار لا يقرها دينه ومضار تفضي بالمرء الى الشقاء الدنيوي والاخروي وأن مقاومته والوقوف به عند الحد المطلوب بمسوحة شرعا وعقلا وأن الله سيجزيه على هذا أحسن الجزاء وأن يشعر بذلك نفسه دائما كيما يذكره حال ثورة الغضب فيسكن غضبه .

ولقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن الغضب اذا نار عند المرء وكان واقفا فليجلس واذا كان جالسا فليضطجع وفي بعضها انه يلصق خده بالتراب والغرض من هذه الأحاديث ان

ينتقل الانسان من حالة إلى حالة ليتذكر فيما نهى النبي ﷺ عنه من سرعة الغضب وفيما رغب فيه من الحلم ومتى اتجه عقله إلى تلك الناحية فإن غضبه يفتت . وكذلك الغرض من إلصاق خده بالتراب فانه إذا أطاع قول رسول الله في ذلك فانه يسكن غضبه حتماً لأن ذلك يفضي به إلى التذكر فيما أعدت للقادرين على غضبهم من حسن الجزاء خصوصاً إذا روعى أن في إلصاق الخد بالتراب إرغاماً للنفس وإشعاراً لها بما هي صائرة اليه من القضاء وأن مآلها إلى التراب ومن كان هذا شأنه فانه لا ينبغي له أن يغضب ويطنى على خلق الله . فمن لم يعمل بذلك ولم يتأثر قلبه بالموعظة الدينية ولم يخش غضب الله القوي القاهر فوق عباده فلم يطع رسول الله ﷺ فليحذر عواقب الغضب الدنيوية فانك قد علمت أن الغضب اذا طغى قد يفضي بصاحبه إلى الهلاك اذ قد يحمله على أن يقاتل من خصم قوى فينتقم منه انتقاماً شديداً لا يقوى عليه . وقد يعرضه غضبه للسجن الطويل وتغريم المال الكثير وربما جرّ الغضب إلى جدوث العداوة والبغضاء بين قبيلتين فتكون نتيجة ذلك من أسوأ النتائج وذلك كما يقع بين بعض جهلة القرى المتجاورة من أهل زماننا في الأسواق فانه قد يتنازع أثنان أو أكثر من أهل بلدين مختلفين فيتصاربون فتحمل حمية الجاهلية من وراءهم من أهل البلدة إلى التعصب لمن كان من أهل بلدتهم فيجمعون جموعهم ويذهبون بعصيم الغليظة واسلحتهم ويهاجمون فجأة كل من يجدونه من أهل تلك البلدة في السوق بدون تفرقة بين برى وظالم وتكون نتيجة ذلك من أسوأ النتائج على هؤلاء الجبهة الفاسقين فانهم بعملهم هذا قد عرضوا أنفسهم للقصاص الدنيوى بالسجن وتغريم المال وغيرهما فضلاً عن عقاب الله الشديد الذى أعده لهم باعتدائهم على الأبرياء وقد أحدثوا بعملهم هذا العداوة والبغضاء بينهم وبين أهل البلدة الأخرى فأصبحوا أعداء بعد أن كانوا إخواناً وذلك شر مبین وداء وييل يجب محاربته والقضاء عليه بكل حزم وعزم

الشجاعة والجبن

الشجاعة شدة القلب عند البأس ويقال لها الجرأة بسكون الراء وفتحها والجرى الشجاع المقدم ففى صفة من صفات النفس تجعل الانسان على مواجهة الأخطار وتحمل الآلام بثبات . ذلك معناها فى اللغة أما فى نظر الدين والأخلاق فانه لا بد فيها مع ذلك من ضبط النفس عند الغضب . ولقد علمت بما تقدم أن للغضب ثلاث حالات إفراط . وتفریط . ووسط . فالإفراط هو طغيان الغضب بحيث

ينشأ عنه الاقدام على ما لا ينبغي من الرذائل التي شرحناها لك آنفا وهو تهور مذموم . والتفريط هو نقصان الغضب بحيث ينشأ عنه الاحجام عما ينبغي وهو الجبن المذموم . أما الوسط فهو الذي ينشأ عنه الاقدام حيث يجب الاقدام وهذه هي الشجاعة الممدوحة .

ومن هنا عرف بعضهم الشجاعة بأنها هيئة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور والجبن فمن حملته هذه القوة على أن يقابل الأخطار بثبات لا يحمله على ذلك إلا الدفاع عن العرض أو المال أو النفس أو الدين أو الانتصار للفضيلة والقضاء على الرذيلة وخدمة المجتمع فانه يكون شجاعا مقداما ومن أحجم فهو الجبان .

أما إذا طغى عليه غضبه فجعله يبطش من أجل شهوته أو يتجاوز الحد المشروع في الدفاع عن الواجبات كأن يتقمم في سبيل الدفاع عنها من الأبرياء أو يبالغ في الانتقام من غير ضرورة فانه يكون متهوراً مذموماً .

يشير لذلك قول رسول الله ﷺ « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » رواه البخاري ومسلم . والصرعة بضم الصاد وفتح الراء هو الذي يصرع الناس كثيراً بقوته فليست الشجاعة مجرد الشدة عند البأس والقوة التي بها يصرع الناس وإنما الشجاعة هي أن يضبط نفسه عند الغضب فلا يذره يطفئ ويتجاوز حد الاعتدال

وبما ينبغي التنبيه له أن من لوازم الشجاعة أن يضبط الانسان نفسه في أمور . أولاً تقدير حال الذي يريد أن ينازله فلا يغفل تقدير عدده وعدته كما قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ثانياً . تقدير الأخطار التي تهدق به والظروف التي تحيط به ومن معه إن كان معه جمع . فلا يصح أن يخاطر ويلقى بنفسه إلى التهلكة . ثالثاً . أن يستعمل الوسائل الممكنة من غير القوة في الدفاع قبل القوة ومن لم يقدر كل هذه الأمور فانه يكون متهوراً لا شجاعاً لأن المقصود من الشجاعة إنما هو الوصول إلى دفع أذى المعتدين وردهم إلى الحق وهذا لا يكون إلا بقهرهم وإرغامهم . ومن لم يقدر هذه الأمور فانه يرغم ويقهر هو فتكون النتيجة عكسية ويزيد اعتداؤهم وطمعانهم بعد ذلك . فالشجاع الصحيح هو الذي يؤدي واجبه كاملاً فلا يرده الخوف والفرع عن الاقدام ولا يدفعه التهور إلى ما يقضى عليه بدون جدوى

أنواع الشجاعة

تنقسم الشجاعة إلى قسمين مادية كمنازلة الأعداء في ميادين القتال أو منازلة الخصوم الذين يحولون بينه وبين أغراضه . ونحو ذلك . وأدبية وهي أن يقول الحق الذي يعتقده مهما ترتب على ذلك من خطر عليه وألم بلحقه .

ولكل من النوعين أمثلة كثيرة يجعل ذكرها هنا لتكون عظة وذكري وعلاج لمن انحطت عنده درجة الغضب فلم يغضب حيث يجب الغضب . ولا ريب في أن خير مثال يحتذى في ذلك وأحسن أثر يقتفى فيه هو أثر رسول الله ﷺ وأصحابه فإنه صلى الله عليه وسلم هو السراج المذير الذي أرسله الله هادياً إلى أقوم السبل وأعدل الطرق . فمن اهتدى بهديه لن يضل . ومن اقتدى به وبأصحابه فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

عن أنس رضي الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طاحنة وفي عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا لم تراعوا ثم قال وجدناه يحرأ أو قال إنه البحر » يريد أن فرسه يجرى به كالبحر الذي يجرى

ذلك مثل من شجاعته ﷺ فإنه خرج بالليل يتلصص سبب الفزع قبل أن يخرج الناس ويواجه الخطر قبل أن يلقاه غيره مع أنه عليه الصلاة والسلام هو قائدهم الأعظم الذي يفدونه بأرواحهم وإمامهم الأكبر الذي يحوطونه بمهجهم وأفتدتهم ولكنه لم يتخذ من ذلك وقاية يحتسى خلفها فينام وهم يحرسونه ويقعد وهم يخدمونه ويدفعهم إلى مواطن الخطر وهو في مأمن منه . كلا إن شجاعة رسول الله فوق ذلك فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا . وأول من يقدم لنصرة دين الله وتأييده . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقول « والذي نفسي بيده لولا أن رجالاتنا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحلمهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ثم أحياء ثم أقتل ثم أحياء ثم أقتل ثم أحياء ثم أقتل » رواه البخاري . ذلك ما يقوله رسول الله ﷺ فهو لا يتخلف عن سرية تغزو — والسرية طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا — إلا لضرورة وهو أن كثيراً من المؤمنين القائم بينهم لا يسمحون له بالذهاب وحده . بل هم يحبون أن يكونوا معه وليس عنده من معدات الحرب ما تكفي لحملهم وتجهيزهم فهذا هو الذي يمنعه أن يذهب مع كل سرية ولو قليلة ولم يكن المانع له الخوف من الموت لأنه يتمنى أن يموت في سبيل الله عدة مرات حبا في أداء هذا الواجب المقدس ورغبة في الدفاع عن الحق . ولا غرو فإن نفسه الكريمة من أكمل الأنفس وأعظمها تقديراً للواجب ورغبة بأدائه فلا يمنعه عن ذلك ألم ولا يصده عنه فزع عليه الصلاة والسلام .

وروى عن جبير بن مطعم « أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين فعاقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمره فخطفت رداءه فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » رواه البخاري

مقفله — بفتح الفاء — مرجعه من غزوة حنين أي تعلق به الناس وهو راجع من هذه الغزوة يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة فضويق رسول الله ﷺ والتجاء إلى سمره — بضم الميم — شجرة

عظيمة لها شوك جمعها سر كرجل وهي من شجر العضاة الآتى ذكره في الحديث فالعضاة اسم لكل شجرة عظيمة لها شوك وهو جمع واحد عضاة — بكسر العين —
ولقد صدق عليه الصلاة والسلام فانه أجود الناس وأشجعهم وأصدقهم بلا نزاع لذلك كان يدعو الله تعالى أن يقيه شر الجبن فكان يقول : اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والحرم ،
رواه البخارى .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة فلم يكن معهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من التعب والجوع قال اللهم ان العيش عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة ،
فقالوا عجيبين له .

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين لا يصدم عن الدفاع عن دينهم حر ولا برد ولا يفتر عزائمهم جوع ولا عطش . ولا يزعزع عقيدتهم تعب ولا نصب ولا تشيهم عن المشاق رفاهية ولا ترف . هؤلاء هم الذين رأوا رحمة نبيهم بهم وتأله من أجلهم فاجابوه بما يصاعف نفقته ويطمئنه على ايمانهم وشجاعتهم فقالوا انا بايعناك على القتال ومن ورائه الموت فلا يضيرنا بعد ذلك تعب ولا نصب ولا يؤذينا جوع ولا ألم وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين وعدهم الله بالنصر المبين وقد وفى الله تعالى لهم بما وعد فظفروا باعدائهم وكانوا أعز الناس وأعلامهم قدراً

روى عن سلمة رضى الله عنه قال « بايعت النبي ﷺ ثم عدلت الى ظل شجرة فلما خف الناس قال يا ابن الاكوع ألا تباع قال قلت قد بايعت يا رسول الله قال وأيضا فبايعته الثانية فقلت له يا أبا مسلم على أى شئ كنتم تباعون يومئذ قال على الموت .

فانظر الى أى حد انتهت شجاعة أصحاب رسول الله ﷺ وإلى أية درجة بلغ تقديسهم لدينهم واحترامهم لعقيدتهم الصحيحة . وتأمل كيف أنهم لم يبالوا بأرواحهم ينفقونها فى سبيل الانتصار للفضيلة الا إن هؤلاء هم المفلحون الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه فاعزهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أحسن الجزاء .

ولقد أتى الله تعالى على من أوفى بعهده منهم فى كتابه الكريم فقال (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)

روى عن أنس رضى الله عنه قال « غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال فانت المشركين لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما صنعت فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم انى أعوذ بك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر انى أجدر ربيها من دون أحد قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بريح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل

به فاعرفه أحد الا أخته بينانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) « الى آخر الآية رواه البخارى .

فهذا مثال من أمثلة التضحية والثبات فلقد فات ذلك الرجل العظيم أن يكون مع أصحابه في قتال بدر فكان يعد ذلك فرصة عظيمة فاته اغتنامها وكان لذلك يتمنى أن تهىء له الفرص أن يشهد قتال المشركين فكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو أشهدنى الله ذلك لنكلت بهم وأبليت فهم البلاء الحسن فاشهده الله قتال أحد وكان من سوء الحظ أن المسلمين في هذه المعركة قد انهزموا لخالفهم أمر رسول الله ﷺ وتركهم مواقفهم التي أمرهم أن لا يبرحوها فلما رأهم على هذه الحالة لم تثن عزيمته ولم ينكت بعهدده واعتذر الى الله من صنيع أصحابه وهزيمتهم وبرأ اليه من صنيع المشركين بمحاربة دينه ثم أقدم بضرب في المشركين فلقبه سعد بن معاذ أثناء ذلك وهو في هزيمته فقال له أنس ياسعد الجنة انى أجدر رجحا من دون أحد يريد تحريضه وأقسم له برب النظر — يعنى أباه أو ابنه لأنه كان له ولد صغير اسمه النظر — وسعد ينظر اليه والى صنعه بالمشركين وتالهم عليه فوصف حالته هذه لرسول الله ﷺ وقال له اننى مع كوفى معك ولى منزلة بين قومى لم أستطع أن أصنع مثل ما صنع أنس بن النظر .

ان ذلك العظيم كان يعاهد الله بقلب ممتلىء صدقا واخلاصا وكان يحدث عن شعور ملكه من جميع جهاته حتى أصبح القتل والقتال عنده من اللذات التي لا يستطيع المرء ان يضبط نفسه عند ثورتها لأنه مؤمن ايمانا صحيحا وجازم يقينا بان من وراء قتله فى سبيل الله حياة طيبة خالدة فى جنات النعيم حتى أصبح ذلك اعتقاداً محسوساً عنده . فلقد اقسم لسعد برب النظر انه يحدد ربح الجنة . ومثل هذا جدير بان يثنى الله عليه فى كتابه الكريم ويصفه بصدق العهد وتنفيذه على اكمل حال .

ولقد كانوا يتنافسون فى الدفاع عن دينهم ويتبارون فى القضاء على اعداء الله حتى ان الانصار من الاوس والخزرج كانوا اذا عملت احدى القبيلتين عملاً للدين لاتهمدأ الاخرى الا اذا قامت بمثله . روى عن عبد الله بن كعب بن مالك انه قال « مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الانصار . الاوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين لاتصنع الاوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء الا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ فى الاسلام فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها قال واذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الاوس مثل ذلك . ولقد منى المسلمون فى المدينة باليهود فكانوا من أشد الناس عداوة لهم وكان من رؤساء اليهود وأصحاب النفوذ فيهم كعب بن الاشرف وأبو رافع سلام بن ابى الحقيق فقتل رجل من الاوس كعب بن الاشرف فقالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ ابداً فتذاكروا فيمن هو مثل كعب بن الاشرف فى عداوته للنبي ﷺ فعملوا انه ابو رافع فاستاذنوا النبي ﷺ فى قتله فاذن لهم « رواه الطبرى

هذه الروح ترشدك الى مقدار ما وصل اليه حب مرضاة رسول الله ﷺ من أنفس هؤلاء الاقوام وتبين لك كيف أنهم أصبحوا يتنافسون فى اقتحام المخاطر ويتبارون فى القضاء على اعداء

دينهم وخصومهم الذين يريدون بهم الهوان ويفقون في سبيل الإصلاح حتى لقد صار عندهم من أكبر الاماني وأعظم اللذات

وقد روى البخارى حديث أبى رافع كما روى حديث كعب بن الأشرف فارجع اليها إن شئت . هذه مثل مصفرة لما كان يعملها المسلمون في عهد رسول الله ﷺ ولقد كان مفروضا عليهم يومئذ أن يقوم الواحد منهم مقام عشرة في القتال فلا يجوز له أن ينهزم إلا إذا زاد العدد على ذلك قال تعالى (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفرا بانهم قوم لا يفقهون آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)

ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى العالم باحوال خلقه وما يلزمهم من التطور والانتقال بتطور الظروف واختلاف الوسائل شرع لهم ما يناسب كل حالة ولا تمها فالمسلمون في أول أمرهم كان عددهم قليلا بحيث لا يكاد يذكر الى جانب أعدائهم الكثيرين الذين يصدقون بهم من كل مكان فكان المناسب لهذه الحالة أن يكون لديهم من القوة المعنوية ومضاعفة العزيمة والثبات ما يجعل الواحد منهم عشرة من أعدائهم ففرض الله عليهم ذلك

ولما كان هذا شاقا في العادة ويكاد يكون غير ممكن هون الله عليهم الأمر فقال لهم ان الكافرين قوم لا يفقهون لانهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدركون معنى الفضيلة فهم كالانعام لجدير بالؤمنين أن يسوقهم كما تساق البهم ومع هذا فقد وعدهم بانهم ان امتثلوا يظفروا إذ قال لهم يغلبوا مائتين ففى الآية أمر لهم بان يثبت الواحد منهم لعشرة ووعد بان من فعل ذلك يغلب . هذا ما كان يناسبهم في أول أمرهم وهى حالة غير طبيعية فلما كثر عددهم وأصبحت حالتهم طبيعية اقتضت تشريعا مناسبا لها ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنتين من الكفار فقال لهم (آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ومعنى هذا أن الظرف تغير ففى الحالة الاولى وأنتم فى قلة كنتم أقوى منكم وأنتم فى كثرة لانكم فى الحالة الاولى كنتم تعتمدون على القوة المعنوية وحدها . أما فى الحالة الثانية فقد أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا فلهذا تغير تعلق علم الله بتغير الظرف وتعلق بحالة الضعف هذه فشرع لكم ما يناسبها على أنكم على أى حال تمتازون بميزة لن تفارقكم وهى الايمان بالله ورسوله فلم تكونوا كغيركم مهما كانت الحالة طبيعية وليكن الواحد منكم كائنين من الكافرين . ومثال الحالة الاولى ما وقع لهم بيدرفان المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون كانوا أكثر من الف ومع ذلك فقد كان موقع المشركين صالحا للقتال فقد كانوا فى الارض الصلبة التى بها الماء وكان المسلمون فى أرض رخوة تغوص فيها أقدامهم ولم يكن بها ماء . ولم يكونوا مستعدين تمام الاستعداد ولذلك كره بعضهم القتال ولكن شجعانهم قالوا لرسول الله ﷺ نحن معك كما تحب روى أن المقداد بن عمرو قال يا رسول الله امض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحببت لانقول كما قال بنوا اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال أشيروا على أيها الناس يريد الانصار فقام سعد بن معاذ رضى الله عنها

فقال يا رسول الله إني أريد أن أقاتل قال أجل قال قد آمن بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر غفخته لحضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ولا نكره أن تلقى بنا عدونا وإننا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركات الله تعالى فالتقى الجيشان وانهزم المشركون وهم كثر بتأييد الله تعالى إياهم وهم قلة

ومثال الحالة الثانية ما وقع لهم في حنين فانهم انصرفوا لما بعد فتح مكة وقد اختلط بجيشهم عدد كثير ممن أسلم حديثا بمكة فكان عددهم نحو إثني عشر ألف ولذا قال بهضهم نحن الآن لا تغلب من قلة فلما التقوا بعدوهم قابلهم الرماة بالسهم فاختل نظام الجيش وانهزموا في بادية الأمر ولكن النبي ﷺ نادى أصحاب البيعة فأقبلوا عليه واستجمعوا قوتهم فهزموا العدو مرة ثانية وفي ذلك يقول الله تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) الآية

وإنما نكتفي هنا بذكر ذلك التذلل اليسير مما كانت تنطوي عليه قلوب المسلمين من الشجاعة والغيرة على دينهم وكرامتهم إذ لا يسع المقام ذكر جانب عظيم مما كانوا يقومون به من التضحية في سبيل الدفاع عن الواجب وتأييد الحق فإن ذلك كان شأنهم دائما فلا تن لهم فيه عزيمة ولا تضعف لهم إرادة ولا تفتر لهم قوة يستعذبون الموت ويتمنون الشهادة في سبيل الله فمن أجل ذلك لا تزلزلهم الكوارث ولا تفزعهم العواصف فنصروا دين الله فنصرهم الله وحاربوا لأعلاء كلمته فاعلى الله قدرهم ودانت لهم رقاب أعدائهم وخضعت لقوتهم وشوكتهم الجبابرة وأصبحوا سادة أهل الدنيا ولهم في الآخرة أحسن الجزاء

أما شجاعتهم الأدبية وثباتهم على الحق فانك لا بد أن تلمسها مما ذكرناه لك لأنهم ما حملهم على حب الموت والرغبة في التضحية إلا الثبات على الدين الحق والإيمان بالله ورسوله، والاتصاف بالفضيلة والقضاء على الرذيلة ولهم في ذلك مواقف مشهورة لا تحصر وحوادث أصبحت مثلا للعالمين. ولا ريب في أن سيدهم في ذلك بل سيد الناس طرا هو مربيهم الأعظم ومرشدهم الأكبر سيدنا ومولانا محمد ﷺ فلقد جاء بتوحيد الله تعالى وأمره الله أن يدعو إليه ويصدق به بين قوم يدينون بعبادة الأوثان وهم لدينهم متعصبون ولا اعتقادهم الفاسد مقدسون قال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) لجمع ﷺ عشيرته ودعاهم إلى توحيد الله وقال لهم إني لا أغني عنكم من الله شيئا فقال له أبو لهب تمالك ألهدنا جمعنا فأنزل الله تعالى (تبت يدا أبي لهب) الآية ولما أظهر النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الحق لم يضطهدوه اضطهادا شديدا إلى أن عاب آلهم فذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له إنك تعبد الأصنام كما نعبد فرأى ابن أخيك أن لا يتعرض لآلتنا والأسلمه لنا نكفيك فقال لهم أبو طالب قولنا ولينا وردهم ردا جميلا ولكن النبي ﷺ مضى إلى الدعوة إلى ربه كما كان فرجعوا إليه مرة أخرى وأغلظوا له في القول فعظم عليه فراق قومه ولكن لم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخى هلا تركت آلهم فدمعت عين النبي ﷺ وتغير وجهه فقال له أبو طالب يا ابن أخى قل ما أحبيت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ثم رجعوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا إن كان ابن أخيك يريد الملك جعلناه ملكا علينا وإن كان يريد

المال جمعنا له من المال ما يرضيه فعرض ابو طالب الامر على النبي ﷺ فقال له يا عمي والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه . ثم مضى في الدعوة الى الله تعالى لا يهولنه امر ولا يفرعه هول يدعو الناس كما امره الله

ولقد كان صلى الله عليه وسلم معروفا بالثبات على الحق والتمسك بالصدق من نشته الاولى شهد له بذلك اعداؤه قبل اصدقائه فاقد اجتماع بعض صناديد اعدائه عند الوليد بن المغيرة وكان يلقب بريحانة قريش لما له من المنزلة الرفيعة في نفوسهم ليتشاوروا فيما يرمون به النبي ﷺ من الذم في الموسم حيث يجتمع الناس من جهات شتى لينفروهم عنه فقال لهم الوليد ماذا تقولون قالوا نقول عنه انه كاذب فقال وهل قال محمد كلمة كاذبة قط فقالوا نقول عنه انه مجنون فقال وهل عهدنا أرجح منه عقلا فقالوا نقول عنه انه شاعر فقال وهل قال محمد الشعر قط ثم قال لهم والله اني لاعلمكم بشعر الانس والجن ولقد سمعت من محمد آثما كلاما لا هو من كلام الانس ولا هو من كلام الجن فان له الخلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لشعر وان اسفله لمغدق وانه يعلم ولا يعلم عليه وانه يحطم ما تحته وكاد يسلم لولا تأثير ابى لب عليه وكان قد سمع اول سورة فصات ولما مضى ﷺ في تبليغ رسالة ربه اشتد ايداء المشركين اباه وتوفي عمه ابو طالب وزوجه السيدة خديجة في عام واحد فلم يبق له ناصر الا الله تعالى القاهر فوق عباده الحكيم الخبير فطفق المشركون يؤذونه بجميع صنوف الايداء وكان يعرض نفسه على القبائل لا يطالبهم بتصديقه وانما يطالبهم بحمايته من شدة الاضطهاد فكانوا يردونه اقيح رد ويسلطون عليه العبيد والصبيان يضربونه بالحجارة وقد اشتد الالم على نفسه الكريمة مرة فشكا الى الله تعالى فاحى الله اليه ان شئت طبقت لك عليهم الجبال فلم يرض بذلك وقال اني ارجو ان يخرج من اصلاهم من يوحد الله تعالى

وهذا هو شأن اولي العزم من المصلحين فانهم لم يأسوا من اصلاح الناس ولم يبالوا بما يصيبهم من الاذى والاضطهاد والموت في سبيل سعادة المجتمع ولقد كان صلى الله عليه وسلم يكاد يهاك حزنا واسفا على هؤلاء السفهاء الذين يتبعون شياطينهم واهواءهم فيشقون بذلك شقاء دائما مستمرا ويعذبون عليه عذابا اليما خالدًا حتى لقد قال الله تعالى له (فلعلك باخع نفسك على آثامهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا) — يخع نفسه اى قتلها غما —

وكذلك سائر الرسل صلوات الله عليهم فانهم جاهدوا بالحق وهم يعلمون ما يحيط بهم من المخاطر وما ينتظرهم من الاضطهاد لأن الله ارسلهم لاصلاح الناس وهدايتهم فليس لهم وظيفة سوى هذا في حياتهم فان عاشوا فانما يعيشون لها وان هلكوا فانما يهلكون في سبيلها فجزاهم الله عن الامم خير الجزاء

واما مثل شجاعة اصحاب رسول الله الادوية فكثيرة لأن الايمان الصحيح متى خالط القلوب اصبحت لاتعرف الا الحق وهان عليها في سبيله كل عذاب واضطهاد فانظر الى سيدنا عمر بن الخطاب وقت دخوله في الاسلام فانه ذهب ليقول رسول الله ﷺ فلما وصل الى النبي هده الله للاسلام فاسلم وكان المسلمون لا يستطيعون المجاهرة بالتوحيد خوفا من ايداء المشركين فقال له عمر السنا على الحق قال له نعم قال وما يمنعنا أن نجاهر به ونخرج من عنده يصيح لاله الا الله ويزار بها كما يزار الاسد فتجمع عليه المشركون

يضربونه ويضربهم ولا يثنيني عن المجاهرة بالحق . وكذلك ابو ذر الغفارى فانه كان بعيدا عن مكة وسمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فارسل أخاه بكشف الخبر فرجع اليه وأخبره فلم يشفه خبره وذهب بنفسه فنزل في المسجد فلقه سيدنا على رضى الله عنه فدعاه الى منزله واستمر على ذلك ثلاث ليال وفي الليلة الثالثة سأله عن حاجته فقال له انه يقصها عليه إن عاهده أن لا يذيعها ففعل فقال له أنا ادلك على رسول الله على أن تتبعني من بعد حتى إذا مارأيت أحدا من أعدائه وقفت اصلح نعلي فترجع ثم ذهب الى رسول الله ﷺ فعرض عليه التوحيد وقرأ عليه القرآن فادرك انه من عند الله فصدق به فلما خالط الايمان قلبه دفعه الى المجاهرة بالحق بدون خوف ولا وجل فذهب الى المسجد وكفار قريش موجودون وصاح قائلا لاله الا الله محمد رسول الله فاجتمع المشركون عليه وظلوا يضربونه حتى أغشى عليه فلما افاق أعادها ثانيا فعادوا إلى ضربه . وفي الثالثة قال بعضهم إنكم بذلك تقتلونه وإن قبيلته في طريقكم الى الشام فلا تترككم تمرون عليها بسلام فكفوا عنه . روى معنى كل ما تقدم البخارى وغيره من كتب السنة الصحيحة . فانظر كيف انه كان خائفا قبل الايمان بالله فلما آمن به تعالى لم يبال بالمجاهرة بالحق وعرض نفسه لخطر القتل حبا في الانتصار للفضيلة وحرصا على ظهور الدين . وامثال ذلك اكثر من أن يحصى

فمن كان جبانا لا يفار على عرضه ولا على نفسه ولا على دينه ولا يبالى بخذلان الحق وظهور الباطل فعليه أن يقتدى بهؤلاء الكرام البررة وأن يطالع سيرهم ويقف على اعمالهم فان ذلك خير علاج ينفعه ويهديه الى سواء السبيل

الجدل والمراء والخصومة

لاريب في أن هذه الامور الثلاثة من اقوى الأسباب التي تثير الغضب وتهيجه فأما الجدل فهو كل اعتراض على كلام الغير لاظهار ما فيه من خلل في لفظه أو في معناه أو فيها معا أو في قصد المتكلم كأن يقول له هذا الكلام حق ولكنك قصدت به باطلا . وأما المراء فهو في معنى الجدل الا أن المراء لا يتعلق به غرض سوى تحقير الغير واظهاره بمظهر الجاهل والظهور عليه بالفضل والعلم بخلاف الجدل فانه قد يتعلق به أيضا إظهار المذاهب وتقريرها وأما الخصومة فهي لجاح في الكلام يقصد منه الحصول على مال أو حق مقصود وهي تارة تكون من أول الامر وتارة تكون اعتراضا على

كلام الغير بخلاف المراء فانه لا بد أن يكون اعتراضا على كلام الغير . ولقد قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الاسلامية السمحة انما تنظر في احكامها الى المصلحة العامة دائما فلا تحرم حراما ولا تحل حلالا الا اذا كان في ذلك مصلحة عاجلة أو آجلة تعود على المجتمع والأفراد . فاذا علمت هذا فاعلم أن الجدل بالمعنى المذكور تارة يكون بمدوحا وتارة يكون مذموما . فالاول ما اذا كان في أمر يتعلق بالدين كأن نكلم أحد بما يناقض أصلا من أصول الدين فإن اظهار ما في هذا الكلام من الخلل بالأدلة والبراهين وتقرير الحقيقة لازم والسكوت عنه أثم ولكن ينبغي لمن يتصدى لذلك أن يتأدب بآداب القرآن الكريم في جدله . قال تعالى (وجادلهم بالتى هي أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فالجدل في دين الله تعالى بالرفق والآداب ممدوح بدليل هاتين الآيتين إلا مع المعاندين والمكابرين فإن هؤلاء لا تنفعهم المجادلة بل اللازم حسم شرهم بالوسائل الأخرى . فينبغى لمن يجادل في الدين أن يجعل كل همه منصرفا الى انتقاء المعاني المقنعة . واختيار البراهين القاطعة . وإيس من الصواب أن يسب ويشتم أو يعتمد بمجادلة خصمه أمام الناس ليخرجه ويشهر به فإن ذلك قد يفضى به إلى العناد والتأدى على باطله . وفي ذلك ضرر أشد من ضرر السكوت فاذا أمكنه اقناع خصمه بالوسائل الحكيمة فذاك وإلا فعليه أن يتركه ويحذر الناس من شره بقدر ما يتاح له من الوسائل والأسباب .

وتارة يكون الجدل في أمر له مساس باصلاح حال الناس ونفعهم . فاذا جاء في كلام أحد ما ينافى ذلك وكان لكلامه تأثير في نفوس الناس ويخشى أن يعملوا برأيه فيصيبهم ضرر مادى أو أدبى . كان من الواجب دينا على من يعلم ذلك الخلل أن يجادله ويبين له مافى كلامه من الضعف ويشرح الآثار الضارة التى تترتب عليه بالبراهين المقنعة لأن الرفق بالناس ودفع الأذى عنهم واجب دينى على كل قادر عليه فمن لم يرحم الناس ويدفع عنهم الأذى بكل ما يستطيع كان آثما . والسنة الكريمة مملوءة بالحث على ذلك .

فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بينا رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخذه فشكر الله له فغفر له » ومنه ما روى عنها أيضا من أن النبي ﷺ قال « الايمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله » فقد جعل عاينه الصلاة والسلام إزالة الأذى من الايمان . وروى الطبرانى أن النبي ﷺ قال « من أخرج من طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ومن كتب له عنده حسنة أدخله بها الجنة » الى غير ذلك من الأحاديث

فذلك حالتان يكون الجدل فيهما ممدوحا بل هو لازم ضرورى لما يترتب عليه من الدفاع عن الدين ودفع الضرر عن المسلمين . على أن كثيراً من الناس يستغفزه الغضب فلا يحسن الجدل في ذلك فبدلاً من أن يأتى بالبراهين القاطعة لاثبات ما يريد يجعل همه فى السب والشتم والتشهير ظناً منه أن فى ذلك نواباً وعليه أجراً . وذلك أضر على الدين وعلى جماعة المسلمين من صاحب الرأى الفاسد

الذى يحاول الرد عليه لأن المسألة تنتقل من اقناع بالبرهان الى تهاثر وسباب يحمل الخصم على المقابلة بالمثل ويضع الحق بين المتشاكين .

فالواجب على من يتصدى للجدل في هاتين الحالتين أن يجادل بالتى هي أحسن كما قدمنا وأن يتبع آداب الجدل والمناظرة في ذلك وأن يسلك سبيل الحكمة في الاقناع حتى يظفر بغرضه .
وتارة يكون الجدل في أمر من أمور الدنيا التى لاتعلق لها بالمصالح العامة كأن يتنازعان في أن هذا الزرع أحسن من ذاك أو أن فلانا أعلم من الآخر أو أنه أتقى منه أو أن هذا البناء لايعمر طويلا إلى غير ذلك .

والمراء في هذا وأمثاله مذموم كل الذم لأنه فضلا عن كونه مثارا للغضب فإنه مضية للوقت بدون جدوى .

وتارة يكون الجدل في العلوم الآلية . كالنحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق . والجدل في ذلك إن كان الغرض منه الوصول الى حقيقة عليية وكان بالأدب والحسنى فهو مدوح . أما إن كان الغرض منه إظهار نقص في غيره وتجهيله فهو مذموم ينبغى تركه لأنه يثير الغضب ويولد الضغائن والاحقاد من غير ضرورة لذلك سواء أكان محقا أم مبطلا . ولهذا قال رسول الله ﷺ « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلا الجنة لمن حسن خلقه » رواه أبو داود وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « ماض قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » من حديث أبى أمامة ونقل عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال . لاتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث . لاتعلمه لتأري به ولا لتباهى به ولا لتراثى به . ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضى بالجهل منه وأما الخصومة وهى أن يكثر في القول ويلج فيه كي يظهر على خصمه وينال منه مايقصده فهى على ثلاثة أقسام .

الأول : أن يفعل ذلك لأجل أن يصل الى حق له يحجده غيره بدون ضرر به أو نكايه وهذه مدوحة لأن الحصول على الحقوق مطلوب شرعا إلا اذا تجاوز عنها راضيا .

الثانى : أن يفعل ذلك ليقطع حق الغير بالباطل فيأتى برخرف القول ويستعمل العبارات التى لايتطيع خصمه اقامه فيها ويرددها كلها وجد لذلك سبيلا . ولا ريب في أنها مذمومة كل الذم سواء كانت شديدة أو خفيفة إلا أن الخصومة الشديدة في الباطل أكبر جرما وأشد إثمًا أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الرجال الى الله تعالى الألد الخصم والألد الشديد في خصومته قال تعالى (وهو ألد الخصام) » أى شديد الخصامة في الباطل .

الثالث : أن لايتخاصم لاقطاع حق الغير ولكن قدحجب اليه الخصومة ومشاكسة الناس فلا ينفك يتخاصم في القليل والكثير وفيما ينبغى التنازع فيه وما لا ينبغى وما يمكن أن يحصل عليه بدون الخاصة وما لا يمكن وهذه وإن كانت مذمومة إلا أنها أقل من الأول ذما .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله عبدا سمحا اذا باع

سمعا اذا اشترى سمعا اذا اقتضى» رواه البخارى وابن ماجه . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنها قال قال رسول الله ﷺ « دخل رجل الجنة بمباحته قاضيا ومقتضيا » رواه أحمد . وعن حذيفة رضى الله عنه قال « أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا فقال له ماذا عملت فى الدنيا قال (ولا يكتُمون الله حديثا) قال يارب آتبنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » رواه مسلم .

وأمثال ذلك كثير فى سنة خير الأنام عاياه الصلاة والسلام . وإذا كانت الخصومة مذمومة الا اذا كان الغرض منها الحصول على حق يمجده الغير فما بال الناس الذين أصبحوا لاهم لهم الا خالق المشاكل وتدمير وسائل الخصومة ورفع الدعاوى الباطلة وترويحها بالوكلاء والمحامين وابتكار الأساليب الباطلة والوسائل المزورة للحصول على أموال الناس بالباطل . أو الانتقام من الأبرياء والنكاية بهم الا ان هؤلاء شر عباد الله تعالى وأنعمهم حظا وأحطهم عند الله قيمة وقدرآ . فلهم على ذلك أسوأ الجزاء وأشد العذاب وإن يضيع عند الله حق اغتصبوه بالحجة الباطلة بل لا بد أن يرد الله لصاحبه بأن يخلف عليه فى الدنيا ويجعل له عليه سلطانا فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون . فليحذر المسلمون من الخصومات التى لاتدفعهم اليها الضرورة وليعلموا أن الله شديد العقاب .

المزاح

تقدم لك القول فى أن المزاح من الأسباب التى تثير الغضب وتهيج . فمن كان سريع الغضب بطبعه أو بالتعود فانه ينبغى له أن يعالج نفسه باجتنب الأسباب المثيرة للغضب ومنها المزاح وهو قول أو عمل ماعساه أن يضحك وهو أيضا قسمان مدح ومذموم . فالممدوح ما كان الغرض منه تسلية النفس عما يساورها من الموم والأحزان التى تضر بالبدن وتؤثر على العقل فتشغله عن التفكير فى العلم النافع وتدير أموره على وجه صحيح فاذا كان المزاح يتج ذلك فهو لازم لأنه فى هذه الحالة قد يفضى بالحزين إلى الصبر والسلوى فسيان المصيبة . ويفضى بالكسول إلى النشاط وبالعليل إلى الصحة ولكن يشترط فيه أن لا يخرج عن حدود الأدب والدين .

والمذموم هو ما ترتبت عليه آثار سيئة كأن يخرج عن حد اللياقة فيثير غضبا قد يجر إلى مالا تحمد عقباه أو يخرج عن الآداب الدينية كأن يكشف المازح سوءاته ليضحك غيره أو يشوه صورته تشويها يسقط بالكرامة أو يؤذى غيره بالسب وشتم الوالدين أو بالضرب تحت ستار المزاح أو يهين ذا مروءة ليضحك الناس عليه أو يضع وقته في اللهو واللعب وكثرة الضحك أو يتخذه حرفة دائمة يصرف بها الناس عن العمل ويعلمهم السخرية والاستهزاء ببعضهم إلى غير ذلك مما هو مشاهد بين الجبهة الذين لا هم لهم إلا مرضاة الشهوات وتضييع الأوقات سدى وأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

ومن ذلك تعلم أن الشريعة الإسلامية دائما تنظر في أحكامها إلى مصالح الناس ودفع الشرور والمفاسد فما يجيىء بفائدة ويدفع ضرراً فاتها تحبذه . وما يجيىء بعكس ذلك فانه مذموم في نظرها لانقره ولا ترضاه .

وللنوعين من المزاح الممدوح والمذموم أمثلة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلنذكر هنا طرفاً منها ليكون نبراساً يهتدى بهديه المازحون ويعتبر به المسلمون فانه ان يستقيم لنا حال ولا تنهنا لنا عيشة الا اذا اقتدينا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلكنا سبيلهم التي اعزهم الله بسلوكها ورضى عنهم في الدنيا والآخرة باتباعها وعدم الخروج عنها . وتلك هي سبيل الدين القيم الذي شرعه الله لنا ووصانا به كي نفوز بالسعادة في دنيانا وآخرتنا وإنه بنا لرموف رحيم .

فن أمثلة المزاح الممدوح مارواه الترمذي مرسلًا قال « أتت النبي ﷺ عجوز فقالت لها ان تدخل الجنة عجوز فكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى (انا أنشأناهن لإنشاء فجعلناهن أبكاراً) » .

وما رواه ابن أبي الدنيا قال « جاءت امرأة الى النبي ﷺ يقال لها أم أيمن فقالت له إن زوجي يدعوك قال ومن هو أهو الذي بعينه بياض قالت ما بعينه بياض قال بلى بعينه بياض فقالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة » وفي هذا الحديث دلالة صريحة على أن الخلف يتبع الاعتقاد لأن المرأة أقسمت مرتين على نفى البياض الذي تعتقد أنه غير موجود ولم ينكر عليها النبي ﷺ ذلك .

وما رواه أبو داود والترمذي وصححه قال « جاءت امرأة الى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله احملني على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال صلى الله عليه وسلم مامن بعير الا وهو ابن بعير » .

وما رواه أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجشت به فقلت لسودة كلى فقالت لأجبه فقالت والله لئأ كلن أو لألطنن به وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت يدي من الصحيفة شيئاً منه فاططخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها فخفض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبته

لستفيد من فتاوتك، من الصفحة شيئاً فسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يضحك.

وما رواه ابن بكار من أن الضحاك بن أبي سفيان الكلبي « كان رجلاً دميماً قبيحاً فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء — يريد عائشة — وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب . أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميماً — قبيح الوجه —

وما رواه ابن ماجه والحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة لصبيب أنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فبسم صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجزه . فهذه طائفة من الأحاديث النبوية ترشد إلى نوع المزاح الممدوح وتشير إلى أن النكات الأدبية التي لا تخش فيها ولا كذب ممدوحة لأن فيها تطيباً للنفس ومسرة من غير أن يترتب عليها ضرر أو تخالف قواعد الدين .

ومن أمثلة المزاح المذموم ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال « غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصارياً فغضب الأنصارى غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصارى يالأنصار وقال المهاجري يالمهاجرين فخرج النبي ﷺ فقال ما بال دعوى أهل الجاهلية ثم قال ماشأنهم فأخبر بكسمة المهاجري للأنصارى قال فقال النبي ﷺ دعوها فانها خبيثة . وقال عبد الله بن أبي بن سلول أقد تداعوا علينا لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعراس فقال عمر ألا تقتل يا رسول الله هذا الخبيث — لعبد الله — فقال النبي ﷺ لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه .»

وتلك الغزوة هي غزوة المريسيع كانت في سنة ست من الهجرة ومعنى ثاب معه ناس من المهاجرين خرج معه واستماله في ذلك على غير حقيقة لأن ثاب معناه رجع واللعب في معناه أقوال أظهرها المزاح والكسع هو أن تضرب يدك أو رجلك دبر انسان .

ولا ريب في أن ذلك المزاح يكون مزاحاً ثقيلاً موجباً لثوران الغضب . وتداعوا معناه انضموا إلى قبائلهم واستغاث كل واحد منهما بقومه بتلك الكلمة وهي يال فلان فلان وهي دعوى الجاهلية التي نهى عنها رسول الله ﷺ فانهم كانوا يستعملونها لاستفزاز قبائلهم وحماهم على القتال بدون تثبت فيعتدون على الأبرياء ويسفكون الدماء ظلماً وعدواناً فلذا نهى النبي ﷺ عنها ومن أجاب تلك الدعوى كان آثماً يستحق العقوبة والتعذير .

وفي هذا الحديث عظة نافعة للزعماء الذين يريدون الإصلاح ويعملون على جمع قلوب الناس فانه يجب على الواحد منهم أن يقضى عما عساه أن يفرط من بعض أفراد أصحابه ويتجاوز عن عقوبته إذا ترتب على تلك العقوبة ما قد ينفر الناس منه ويحول بينهم وبين المصلحة التي يريدونها . لهم فافعله

رسول الله أحسن مثال لهؤلاء في تقدير الأمور وضبط النفس عند الغضب. كيف لا ورسول الله هو سيد العالمين وخير المرشدين عليه الصلاة والسلام

فذلك مثال للمزاح المذموم الذي قد يكون من شر الأسباب المثيرة للغضب الضار خصوصا ما كان منه بالضرب والشتم واللعن فإن المازح لا يأمن أن تنطلق يده الى موضع من بدن المضروب لا يحتمل فيه الضرب او الايذاء كما في الحديث فيهبج غضبه لذلك . او ينطلق لسانه بكلمة قاسية لا يطبق احتمالها فيثور غضبه وبالجملة ينبغي اجتناب المزاح المثير للغضب الضار بالكرامة قال سعيد ابن العاص لابنه يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجتري عليك

السخرية والاستهزاء

ومن الاسباب التي تثير الغضب وتولد الضغائن والاحقاد بين الناس السخرية والاستهزاء ومعناها احتقار الناس وإهانتهم والتنبيه على عيوبهم على وجه يضحك فمن فعل ذلك مع غيره بدون رضائه فقد اقترف إنما وارتكب محرما لأنه خالف قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) فالسخرية بالناس بدون رضاهم سواء كانوا رجالا أو نساء نهى الله تعالى عنها. وإنما نص على النساء لأن القوم هم جماعة الرجال لغة . قال زهير أقوم آل حصن أم نساء - يريد أهم رجال أم نساء - وقد يراد بالقوم الذكور والاناث تغليبا كما قيل في قوم عاد وثمود

والسخرية تارة تكون بالمحاكاة في القول والفعل وتارة تكون بالإشارة والإيماء وهي لا تجوز على أى حال إلا اذا سخر بمن يرضى وفي هذه الحالة تكون مزاحا لها حكم المزاح فان كان الغرض منها تسلية النفس وادخال السرور عليها بدون أن تخرج عن حدود الدين وآدابه في القول والفعل كانت جائزة والا كانت محرمة كما تقدم بيانه في المزاح

فعلى المؤمنين أن يتمسكوا بدينهم فيما عظم من الأمور أو صغر ولقد أباح الله لهم من لذات الحياة وشهواتها ما فيه الكفاية فليس من الحكمة أن تدفعهم شهواتهم النفسية وجهم في الضحك واللعب الى السخرية ببعضهم فان ذلك يولد العداوة والبغضاء . ويثير الضغائن والاحقاد . والمؤمنون اخوة ينبغي لهم أن يعيشوا في صفاء وسعادة فاذا أبت عليهم شهواتهم في الضحك واللعب الا ذلك فعليهم

أن لا يخرجوا عن حدود اللياقة والادب في القول والفعل بل يقتصروا على ما فيه المسرة والنشاط بلا مبالغة ولا افراط والله يهدي من يشاء الى سواء الصراط

الفحش وبذاءة اللسان واللعن

ومن الاسباب المثيرة للغضب إطلاق العنان للسان فلا يبالي ان يسب هذا ويعلن ذلك وينال من إخوانه في غيبتهم وينم عليهم ويشي بهم بدون أن يحسب لأحد حسابا أو يخشى على عمله عقابا ولا ريب أن ذلك من شر الاسباب التي تولد الاحقاد والضغائن وتثير غضب الناس على من يفعل ذلك فيجب على كل عاقل أن يضبط لسانه دائما ولا يعوده على السب واللعن حتى مع خادمه وولده الصغير ودوابه وأنعامه فانه إذا تعود ذلك فلا يأمن أن ينال من يقابله بمثل قوله أو يزيد عليه فيثور غضبه ويطغى ويسوقه الى ما لا تحمد عقباه وكذلك يجب عليه أن يصون لسانه عن الفحش والغيبة والنميمة فانه اذا جرى لسانه بفحش القول ذهب حياؤه ومن ذهب حياؤه كان شرا ووبالا على الناس لا يبالي أن ينال من أعراضهم وكرامتهم وذلك من أكبر الاسباب التي تثير الضغينة وتيجع الغضب ومثل ذلك الغيبة والنميمة فان المغتاب والنمام يغرس بعمله هذا بذور العداوة والبغضاء ويؤسس أركان الحقد والضغينة وذلك من أكبر الاسباب التي تثير غضب الناس وسخطهم ومحاربة بعضهم بعضا بالقول والفعل من أجل ذلك نهت الشريعة الاسلامية عن كل هذه الامور نهيا شديدا واليك البيان

حد الفحش هو أن يعبر عن الامور المستقبحة شرعا وعقلا وطبعيا بالعبارات الصريحة كما يفعله الرعاع وفاسدوا الاخلاق حين يتكلمون عن الوقاع وما يتعلق به بعبارات الفحش التي يستقذروها الطبع السليم ويستلذها أرباب الطباع الفاسدة . والفاحش هو الذي يتكلم بالفحش ويأتى الفاحشة أما البذي فهو الذي ينطق بالفحش ولم يأتى الفاحشة وقد يكون صادقا فيما يقول وقد نهت الشريعة الاسلامية عن النطق بالفحش كما نهت عن اتيان الفاحشة وان كانت عقوبة الثانية أشد وأثما اعظم أما ما ورد من الاحاديث في النهي عن ذلك فكثير منه ما رواه الترمذي قال قال رسول الله ﷺ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي» فالطعان هو الذي يظعن في أعراض الناس بالذم والاعتياب ونحو ذلك واللعان هو الذي يكثر لعن الناس كما سيأتي بيانه وقد علمت معنى

الفاحش والبذي وفي هذا الحديث زجر شديد لمن كان له قلب يتأثر بموعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام قد نفى الإيمان عن يتصف بهذه الصفات ومهما قيل في تأويل هذا وامثاله فإن المراد منه نفى الإيمان الكامل فمن يجديه ذلك نفعا لأن نقص الإيمان مصيبة لا يبعدها مصيبة فإن ناقص الإيمان الذي لا يبالي باقتراف الجرائم والآثام لا يزال في مقت الله وغضبه وسينال جزاء ما اكتسب من الآثام عذابا اليما

ومن ذلك ما رواه الحاكم وغيره من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » ولقد علمت حد الفحش فهو إسم للردائل التي يأبأها الطبع السليم وينكرها العقل وينهى عنها الشرع . أما التفحش فهو تعمد الفحش .
ومن ذلك ما رواه أحمد وابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء » وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا »

ذلك بعض ما قاله رسولنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام وتلك هي تعاليمه الرشيدة ونواحيه الحكيمة . فهو قد نفى الإيمان عن الفاحش والبذي وقال إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء . ذلك لأن الإسلام دين الفضائل ومكارم الأخلاق فهو منزّه عن كل ما يابأه الطبع السليم وتأذى منه الفضيلة . فهلا يزدجر أولئك المفسدون الذين يستعذبون الفحش ويستلذون الفاحشة والألفاظ المسيهجة بدون حياة من الله والناس . وهلا يعتبر هؤلاء الذين يأتون الفاحشة ويفعلون المنكر بذلك الزجر الشديد . فإذا كان التعبير بألفاظ الفحش جريمة يستحق صاحبها نفى الإيمان عنه فما ظنك بمن يأتي الفاحشة ويفعل الموبقات . ألا إن أثمه لكبير وإن عقابه لشديد . فله الويل والثبور يوم يقوم الناس لرب العالمين .

اللعن

معنى اللعن الطرد من رحمة الله تعالى والابعاد من حضرته . فعنى لعن الله الظالم أبعد الله من حضرته وطرده من عموم رحمته . ولا ريب في أن ذلك حكم على الله تعالى بأنه فعل ذلك . فينبغي أن يقع فيه ماورد عن الشرع وإلا كان جرأة شديدة على الله تعالى لا يقرها الدين . والذي ورد في الشرع هو اللعنة بالأوصاف العامة كلجنة الله تعالى على الكافرين أو الظالمين أو الفاسقين ونحو ذلك أما لعن الأشخاص فإنه لا يجوز إلا إذا ثبت أنهم ماتوا كفاراً كأبي جهل وأبي لهب ونحوهم ممن ظهر لنا أنه مات كافراً . فإذا قال قائل لعن الله فلانا اليهودي أو النصراني أو المجوسي فإنه لا يجوز لأنه لا يدري مصيره ولا يعرف ماأراد الله له في نهاية أمره فقد يتوب الله عليه كما حصل مع أبي سفيان وغيره ممن لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فنزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية فكف رسول الله ﷺ عن لعنهم .

روى أحمد والبخارى وغيرهم من حديث بن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد « اللهم العن أباسفيان . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت الآية (ليس لك من الأمر شيء) الخ » فتب عليهم كلهم . وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يلعن الذين قتلوا أصحاب - بئر معونة - فلما نزلت هذه الآية ترك ذلك .

فاذا كان لا يجوز لعن فلان الكافر . فكذلك لا يجوز لعن فلان الفاسق أو الظالم من باب أولى . نعم يجوز ذلك بالأوصاف العامة كأن يقول لعنة الله على الزناة أو على الكاذبين أو على النمامين ونحو ذلك .

على أنه لا يجوز لعن الأشخاص الذين ثبت موتهم على الكفر إذا ترتب على لعنهم إساءة أحد من أهلهم وأقاربهم من المسلمين أو ترتب عليه فتنة أو كان سبياً في ضرر اللاعن أو نحو ذلك .

روى « أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرتبة وهو يريد الطائف فقال أبو بكر هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للسهم من أبي قحافة . فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال ﷺ أ كفف عن أبي بكر فأنصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر اذا ذكرت الكفار فمعموا فانكم اذا خصصتم غضب الأبناء للأباء فكف الناس عن ذلك » رواه أبو داود . وقال ﷺ « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » رواه الترمذي وأحمد والطبراني .

ومثل صيغة اللعن في الحظر ما يدل على معناه كقوله غضب الله عليه أو أحرقه بنار جهنم أو طرده من رحمته ونحو ذلك مما يفيد معنى الابعاد من حضرة الله والطرده من رحمته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلعنوا بلعنة الله ولا بغضه ولا بجهنم » أى لا يلعن بعضكم بعضاً سواء أ كان ذلك بلفظ اللعن كأن يقول لعن الله فلانا أو هو ماعون أم لا يجعله الله من أهل النار أو غضب الله عليه ونحو ذلك كما ذكرنا .

وكما لا يجوز لعن الانسان كذلك لا يجوز لعن الحيوان والجماد . قال أنس رضى الله عنه كان رجل يسير مع النبي ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون » وكان ذلك إنكاراً من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الرجل والحديث رواه ابن أبي الدنيا .

وبعد فإن ذلك من محاسن الاسلام ومكارمه التي لا تقف عند حد فهو يعلم الناس الأدب ويأمرهم بصيانة ألسنتهم عن كل ماثير غضبا أو يولد حقداً أو يؤذى حياً أو يهين ميتاً إلا ما كان ضرورياً يستدعيه الزجر والتأديب . فحذر بذلك الدين الحنيف أن يظل قائماً إلى يوم الدين . وحرام على المسلمين أن يخرجوا عن آدابه ويتكوا حرمانه ويتخطوا حدوده . حرام عليهم أن ينهزم دينهم عن كل رذيلة ولكنهم فيها ينجسون . ويأمرهم بكل فضيلة ولكنهم عنها مبعدون ثم بعد ذلك تراهم يشكون ذلاً ويسامون خسفاً ولو أنهم اتبعوا ما أمرهم دينهم ونهاهم عنه لكانوا أسعد خلق الله أجمعين وأوفرهم حظاً يوم يبعثون . نسأل الله تعالى صلاحاً وتوفيقاً

الغيبة

وما يورث العداوة والبغضاء ويولد الضغائن والاحقاد ويثير الغضب وينزع الثقة تفشى الغيبة في الناس فان المغتاب لا يأمن من نقل غيبته الى من نال منه وفي ذلك منار الغضب وطغيانه ووقوع ما يترتب عليه من المفاسد والشرور

حد الغيبة

اما حد الغيبة فهو أن تذكر عيوب أخيك في غيبته سواء بلغه ذلك أو لم يبلغه وسواء كانت تلك العيوب متعلقة بالصفات الخلقية كأن يقول عنه إنه جبان أو بخيل أو ظالم أو كاذب أو نحو ذلك. أو كانت متعلقة بالصفات الخلقة كأن يقول عنه إنه أعور أو أعرج أو مشوه الوجه أو قبيح أو نحو ذلك. أو كانت متعلقة بالعرض كأن يقول أنه زان لائط ونحو ذلك

أنواع الغيبة

تنقسم الغيبة الى أربعة أقسام الأول : ذكر تلك العيوب صراحة باللسان الثاني : التلميح وهو يتناول الإشارة باليد ونحوها والإشارة بالعين ويسمى غمزا قال تعالى (وإذا مروا بهم يتغامزون) الثالث : الكتابة كأن يكتب العبارات الدالة على العيوب للعامة أو للخاصة ولو لواحد . الرابع : المحاكاة بأن يمثل الصفة التي تعيب غيره كأن يتعارج أو يفتح فاه أو يتناوم الى غير هذا من كل ما يؤذى

حكم الغيبة

لا خلاف في أن الغيبة حرام بجميع أنواعها المذكورة انما الخلاف فيما اذا كانت كبيرة أو صغيرة والذي يطمئن له القلب من ذلك أنها ان كانت متعلقة بالعرض ونسبة الغير للفسق والفجور فانها تكون من أشد الكبائر بلا مرأه . وان كانت متعلقة بالصفات التي لا يتأذى بها الناس كثيرا كصفات البدن والملابس ونحو ذلك فانها تكون صغيرة مالم يؤد ذلك الى ثوران الغضب المفضي الى الشرور والمصائب كأن يعلم أن من يغتابه بذلك يتأذى منه كثيرا فيتور غضبه وتولد منه الشحناء والعداوة والبغضاء فاذا أفضت الغيبة الى ذلك تكون كبيرة وكذلك اذا كانت سببا في انطلاق لسانه بالغيبة واستلذاذه اياها فتصبح عادة له ويتنقل منها الى الخوض في الاعراض فانها تكون كبيرة حينئذ

ومن هذا تعلم أن الغيبة شر من جميع نواحيها سواء أكانت مما يتأذى منه الناس كثيرا أم قليلا فعلى المسلمين أن يحتبوا وأن لا يصرفوا أوقاتهم في ذكر مساوى بعضهم بعضا وأن لا يجعلوا أعراضهم وعيوبهم تسلية يتفكحون بها في أنديتهم ومجالسهم فإن من سهل عليه أن يغتاب اخوانه فليعلم أن غيره يسهل عليه أن يغتابه وفي ذلك من الشر والفساد وضعف الثقة وتولد الحقد والضغينة مالا يخفى على عاقل . فالبعد عن الغيبة بجميع انواعها لازم على كل حال ولا فرق بين أن تكون العيوب التي يغتاب بها غيره موجودة فيه أولا على التحقيق بدليل ما روى أن النبي ﷺ قال « هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله اعلم قال ذكرك اخاك بما يكره قيل أرايت ان كان في اخي ما اقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته » رواه مسلم وغيره ومعنى بهته بالبهتان واقتربت عليه الباطل ومن يفعل ذلك فقد باء باثم عظيم . نعم تجوز غيبة المجاهر بالفسق لأن المجاهر يعلن عن ذنوبه وينشرها بين الملأ فليس له حق التأذى من ذكرها ورميها بها . وكما تحرم غيبة المسلم كذلك تحرم غيبة الكتابي روى ابن حبان في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سمع يهوديا أو نصرانيا قله النار » ومعنى سمعه أسمع ما يؤذيه

وحكم من يستمع الغيبة وهو قادر على منعها كحكم المغتاب لأنه شريك له في الجريمة باغرائه عليها بالانصات له

كفارة الغيبة

اعلم أن الذنوب المتعلقة بحقوق العباد لا تمحى الا اذا عفوا عنها او ردت لهم مظالمهم فنأخذ من الناس مالا ظلما وعدوانا فان جريمته لا تمحى الا اذا رد لهم مالمهم الذي أخذه منهم أو عفوا عنه وكذلك من اعتدى على أعراضهم بالقول أو الفعل فان جريمته لا تمحى الا اذا عفوا عنه وهكذا . ولا ريب في ان الغيبة جناية على الناس وهم غافلون فكفارتهما أن يتحلل من اغتابه ويطلب منه العفو ولكن ورد أن من اغتاب أحدا ولم يبلغه الغيبة فإنه يكفيه أن يتوب ويندم ويستغفر لمن اغتابه وقد اختار هذا جمهور من العلماء وهو حسن وفيه سعة ورحمة للناس فعلى المغتابين أن يتوبوا ويندموا ويستغفروا لآخوانهم الذين نالوا منهم لعل الله يرحمهم ويغفر لهم انه غفور رحيم

المواضع التي تجوز فيها الغيبة

قد علمت ما تقدم أن الشريعة الاسلامية إنما تعنى في احكامها بالمصلحة العامة فاذا ترتب على الغيبة مصلحة او درء مفسدة كانت لازمة واذا ترتب عليها امراض كانت جائزة ويمكن ضبط الاول في خمسة أمور . الاول المظلوم الذي يريد أن يشكو لمن يرفع عنه مظلمته فله أن يذكر عيب ظالمه الذي يحتاج اليه في بيان حقه بشرط أن يقول كذبا . الثاني الاستعانة على تغيير المنكر لمن يظن أن له قدرة على ازالته فان له أن يقول إن فلانا ظلمي في كذا وكذا فهل يجوز له ذلك مثلا . الرابع تحذير المستفتي أن يقول للمفتي ان فلانا ظلمي في كذا وكذا فهل يجوز له ذلك مثلا . الرابع تحذير

المسلمين من شرمن يتصدى للزعامة في أمورهم العامة او من يتوقف عليه القضاء في مصالحهم أو من يتصدى لافنائهم وتعليمهم العلم كالزعماء في الشؤون الدينية او الدنيوية والشهود والمدرسين ونحو ذلك من يشترط فيهم الامانة والاتصاف بمكارم الأخلاق ليكونوا قدوة للناس فان هؤلاء يصح أن يبين ما فيهم من العيوب والنقائص التي لا تناسب وظائفهم . الخامس أن يتجاهر بفسقه كما تقدم اما الثاني وهو ما تجوز الغيبة فيه فهو التعريف بالالفاظ الدالة على نقص في الجسم كالأعور والاقارع وان امكن التعريف بغيرها والاولى أن يعرف بغيرها ان سهل ذلك

أدلة تحريم الغيبة

ورد النهي عن الغيبة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا) أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) ولا ريب في أن ذلك غاية في الشدة ونهاية في الزجر فقد مثلت الآية المغتاب أشنع تشبيل وشبهته بمن يأكل لحم أخيه الانسان وهو ميت واستنكرت صدور مثل هذا من الانسان إشارة إلى أنه لا يليق أن يصدر منه ذلك من حيث كونه إنسانا وأنه لو عرض عليه أن يأكل لحم أخيه ميتا لأبى فما باله يرضى باغتيابه ونظم عرضه ونشر غيبه الذي هو شبيه بأكل لحمه ميتا . فأى قلب لا يتأثر بعد ذلك الزجر الشديد الذي تقشعر لسماعه الجلود وتهتز القلوب فكيف عن الاغتياب وينتهى عما يوجب الضغائن والاحقاد بين المؤمنين . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم أى حرام عليه أن يهتك عرض أخيه المسلم ويعتدى عليه بالقول أو الفعل .

وكفى بذلك زاجراً لمن يتدبر معنى قول الله وقول رسوله ويأتمر بما أمره الدين الخفيف وينتهى عما نهاه عنه فان الله تعالى حرم الخوض في أعراض الناس واغتيابهم بذكر عيوبهم وهم لإخوان في هذه الحياة

وليس من الانسانية في شيء أن يعتدى الأخ على عرض أخيه فيتهك بالقول أو العمل . ولا من المروءة أن يتخذ من دين أخيه وكرامته محلاً للعب واللهو والتسلية في المجالس والمحافل . ولا من الأدب والشهامة أن يدفعه الغضب أو الحقد الى ذكر مساوى أخيه والتشهير به فان كل ذلك يتنافى معنى الاخاء الذي جعله الله بين عباده المؤمنين حيث قال (إنما المؤمنون إخوة)

فواجب على المسلمين أن يمتنعوا الغيبة باجتناب أسبابها وهي كثيرة . منها الخصومات التي تزين للناس الطعن في بعضهم بغير حق . ومنها الانتقام الذي تدفع اليه ثورة الغضب . ومنها مجاملة الناس وموافقهم على الاغتياب .

ولا ريب في أن من يجامل غيره بالنيل من أعراض الناس وموافقهم على ما يسبب له الشقاء الدائم في الدار الآخرة ويثير الغضب ويولد العداوة بينه وبين الناس في دار الدنيا لم يدر من أتعس

الاشقياء وأحطهم قدراً وأدانهم شجاعة لأنه يعرض نفسه للهلكة مجرد مجاملة غيره وذلك هو الحسرات المبين .

ومنها أن ينسب إلى شخص عيباً من العيوب فيريد أن يرى نفسه بنسبة ذلك العيب إلى غيره وذلك من شر الموبقات . ومنها الحسد وهو يدفع الحاسد إلى تنقيص قدر المحسود والنيل من عرضه ودينه كي يصغر في أعين الناس وذلك شر عظيم قال تعالى (إن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً)

إفشاء السر

ومما يثير الغضب ويولد الضغائن والأحقاد في نفوس الناس ويرفع الثقة من بينهم إفشاء السر فإن الذي يودع عند الآخر سرّاً يأمنه عليه لا بد أن يثور غضبه إذا علم أنه أفشاه ولم يصنه ويسعى في أن ينال منه ما يتشقى به فيثور غضب الآخر لذلك . وعند ذلك لا تؤمن غائلة الغضب ولا يتقى شره الذي ينهض فتكون العاقبة شراً ووبالاً من جميع الجهات . وكفى بذلك ذماً لإفشاء السر لأن فيه إيذاء يدفع إلى إهاجة الغضب وتوليد العداوة والبغضاء . وهو خيانة مذمومة في نظر الشريعة الإسلامية كل الذم

قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء قيل هذا غدرة فلان بن فلان » رواه مسلم وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »

ومعنى الحديث الأول أن الخائن الذي يخون الناس ويفدر بهم فلا يبالي أن يفشى أسرارهم . ويخون عهودهم . أو يغرر بهم في أمورهم سيفتنح يوم القيامة ويشهر به ويعلن عن خيائته مبالغة في النكابة به وتشديداً في عقوبته وذلك هو الحسرات المبين .

ومعنى الحديث الثاني أن الخائن الذي لا يؤمن على أسرار الناس وأموالهم وأعراضهم ويفدر بهم في عهودهم لا إيمان عنده ولا دين له .

ولقد علمت بما مضى أن نفى الإيمان في هذه الحالة يدل على عظم الجريمة وشديتها فانه مهما قيل في تأويله من أن المراد نفى الإيمان الكامل فكفى بذلك تحذيراً وزجراً . وكفى مرتكبها ذماً بأنه ناقص الإيمان يستحق عليه سوء العقاب .

أما الآثار السيئة التي تترتب على إفشاء السر . فمنها ما هو متعلق بالفرد . ومنها ما هو متعلق بالجماعة ولا ريب في أن ضرر الثاني أشد وخطره أعظم . ومثاله ما إذا كان متعلقاً بتدبير شعب أو إصلاح جيش . أو تنفيذ نظام . أو تربية فريق من الناس . أو نحو ذلك فإفشاء السر في مثل هذا خيانة عظيمة وجناية كبيرة في نظر الشريعة الإسلامية يستحق صاحبها نفى الإيمان عنه وله على ذلك عذاب الجحيم .

وكذلك ما يتعلق بإفشاء سر الفرد فإنه شديد الضرر لأنه قد ينقصه في نظر قومه . وقد يقطع عليه منفعة عظيمة . وقد يثير عليه غضب من يؤذيه إبذاء شديداً . وقد يعرضه للخطر الشديد الى غير ذلك . ولهذا حذر العقلاء من ان يسر الانسان الى غيره ما يخشى من اذاعته على نفسه او كرامته .

نقل جرير بن حمزة الزيات عن علي رضي الله عنه انه قال .

لا تفش سر ك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رايت غواة الرجال * لا يتركون اديما صحيحا

ومعناه انك ان رأيت ان لك نصيحا تفشي اليه بسر ك فان له ايضا نصيحا يفشي اليه بما اسررت به اليه فلا تظن انه يظل مكتوما عنده . ومعنى البيت الثاني ظاهر

فاذا كان في إفشاء السر ضرر يعود على الفرد كما بينا فإنه يكون كبيرة شديدة وجريمة من شر الجرائم . اما اذا لم يكن فيه ذلك الضرر فإنه يكون لوم في الطبع وسوء ادب ويكون حراما اذا اعتاده . فخره ذلك الاعتياد الى افشاء السر الذي يترتب عليه الاضرار .

روى ان معاوية بن ابي سفيان اسر الى الوليد ابن اخيه عتبة بن ابي سفيان حديثا فقال الوليد لايه عتبة يا ابا ان امير المؤمنين اسر الى حديثا . وما اراه بطوى عنك ما بسطه الى غيرك فقال عتبة لابنه فلا تحدثني به فان من كتم سره كان الخيار له ومن افشاء كان الخيار عليه . قال قلت يا ابا وان هذا يدخل بين الرجل وبين ايه . قال لا والله يا بني ولكن احب ان لا تزال لسانك بأحاديث السر . قال الوليد فأنيت معاوية لحديثه بما جرى . فقال يا وليد اعتقك اخي من رق الخطأ . اخرج به ابن ابى الدنيا في الصمت .

هذا ولا يلزم ان يقول من يتحدث الى غيره بسر إن حديثي سر فلا تذعه فإنه متى حدثك أحد بحديث خاص بينك وبينه كان ذلك الحديث امانة لا يصح لك اذاعته الا باذنه . قال رسول الله ﷺ « مطلق الحديث بينكم امانة » رواه ابن ابى الدنيا باسناد جيد . وقال رسول الله ﷺ « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فبى امانة » رواه ابو داود والترمذي .

ومعناها انه اذا أسر في اثناء الحديث ولو بالتفاته فإنه يكون امانة . وكذلك اذا لم يسر بشيء فإنه يكون امانة ايضا .

تلك هي آداب الشريعة الاسلامية واخلاقيها فمن ذا الذي لا يتأدب بتلك الآداب . ولا يتخلق بهذه الاخلاق التي من تمسك بها سعد في دنياه وآخرته وكان عند الله من المقربين .

الامانة والوفاء بالوعد

الامانة هي الحقوق المتعلقة بالذم لافرق فيها بين أن تكون من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده سواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية فهي تشمل الامانة على الاموال والاعراض والانفس والاسرار والتكاليف الشرعية ونحو ذلك وضدها الخيانة فمن احتفظ بتلك الحقوق يسمى أميناً ومن أضاعها ولم يؤدها كما هي يسمى خائناً. فمن أذاع سرا اتّمن عليه كان خائناً كما تقدم ومن كتمه كان أميناً ومن اتّمن على أن ينقل حديثاً لغيره فقله محرّفاً أو أخبر بخلافه كان خائناً وهكذا. ومنه تعلم أن الامانة قد تتناول بعض افراد الصدق كما تتناول كتم السر وان الخيانة قد تتناول بعض افراد الكذب كما تتناول اذاعة السر

ومعنى الوعد هو ان يلزم الانسان نفسه بامر لغيره سواء كان ذلك الامر مادياً أو ادبياً كأن يعدّه بمال أو هبة أو صلة أو ضمان أو كفالة أو معونة في عمل أو تعليمه علماً أو نحو ذلك يقال وعده بخير وبشر فيستعمل وعده في الأمرين اذا ذكرهما معه فاذا حذف لفظ خير ولفظ شر يقال في الخير وعده وفي الشر أو وعد وخلف الوعد. ضرب من ضروب الكذب وفرد من افراد المزدولة

ولا ريب في أنه هو والخيانة من صفات النفس الذميمة التي تورث العداوة والبغضاء وتولد الضغائن والأحقاد وتكون منارا للغضب وما يترتب عليه من الشرور خصوصاً اذا كان الوعد متعلقاً بمصلحة هامة مادية كانت أو أدبية ويترتب على خلفه فوات تلك المصلحة أو كانت الامانة على عرض أو مال نفاقها من اتّمن عليها فان الخيانة والخلف في هذه الحالة يكونان من شر الأمور المثيرة للغضب ويكون الخلف أو الخائن في هذه الحالة ظالماً مستولاً عما يترتب على خيانتة من النتائج ويكون للمعتدى عليه الحق في أن يغضب لكن الى الحد الذي يباه فيما مضى فلا يجوز له أن يحمل طغيان الغضب على الافراط في الانتقام وتخطي الحدود المشروعة للجزاء على ان الناس اذا أدبوا أنفسهم ووقفوا بها عند الشهوات المعقولة وطهروها من تلك الصفات المردولة لأنسوا شر تلك الشرور واكتفوا غوائلها

فمن أجل ذلك نهى الدين الحنيف عن خلف الوعد والخيانة وحث على الوفاء والامانة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا اتّمن خان » رواه البخارى ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. اذا اتّمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » رواه البخارى وغيره

ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه أن الخيانة والغدر وخلف الوعد والفجر في الخاصة ليس من خلائق المؤمنين ولا من شيمة المسلمين إذ لا يليق أن يكون من خلائقهم ما يؤذي الناس ويورث العداوة والبغضاء ويرفع الثقة من بينهم لأن دينهم الذي يدبنون به يأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل .

ولا ريب في أن صفة الأمانة والوفاء والعدل في الخصومة من أجل الفضائل التي يقدرها العقل في كل زمان ومكان . وعلى العكس من ذلك أضدادها فانها من الرذائل الممقوتة التي يترتب عليها أسوأ الآثار بين الناس . فمن كان أميناً وفيّاً عادلاً كان جديراً بأن يكون من جماعة المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . ومن كان خائناً مخلفاً وعده غادراً فاجراً كان منافقاً لا يصح أن ينتسب إلى الاسلام ولا يليق به أن يكون من جماعة المؤمنين لذلك قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) والوفاء والایفاء هو القيام بما يقتضيه العهد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقاً بمال أو أمانة أو بيع وشراء أو تجارة أو زراعة أو صناعة . أو كان متعلقاً بالعقود التي عقدها الله على عباده وألزمها إياهم من التكاليف كما تقدم في تعريف الأمانة . وقال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على صيغة الأمر صراحة كي تشعر النفوس بما للأمانة من الخطورة والمنزلة . فمن خانها فقد خالف أمر ربه القوي المتين . ومن خالف ربه فقد عرض نفسه لسخطه . ومن سخط الله عليه فهو من الهالكين

منافع الوفاء والأمانة

ومضار الخلف والخيانة

لا شك أن للوفاء والأمانة أحسن الآثار بين الجماعة والأفراد . فإذا اشتهرت أمة بالوفاء بوعداها والمحافظة على ما توثقن عليه من الأسرار والأموال والأنفس كانت محبوبة من جميع الأمم موقوفة بها عندهم كريمة عليهم . عيوبها مستورة وذلاتها مغفورة . وإن احتاجت لمعونة مدت إليها الأيدي من كل مكان وإن أصابها مكروه تألم لها الناس في كل ناحية . وبذلك تعيش سعيدة مكرمة عزيزة الجانب رفيعة القدر والمنزلة بين سائر الشعوب . أما إذا اشتهرت بخلف الوعد والخيانة فإن الناس ينصرفون عنها ويخافون شرها وإن كان لها أعوان ينفضون من حولها فلا تجد من أحد معونة ولا عطفاً ولا ترى مناصرة ولا برأ . فتكسد تجارتها وتبور صناعتها وتقف حركتها وتصبح منعزلة عن الشعوب والأمم وذلك هو الخسران المبين .

وكذلك الأفراد فإن الأمين الوفي له أحسن المسكاة في نفوس الناس وأجل المنزلة عندهم . يثق به الجميع في كل شأن من شئونهم فتتسع أمامه سبل العمل وتفتح له أبواب الخير فينفع نفسه

وأتمه ويؤدى وظيفته في هذه الحياة كاملة . فمن أمنه الناس على أموالهم فأداهم اليهم فانهم لا يمنعونها عنه إذا احتاج اليها ولا يبخلون عليه إذا وقع في ضائقة . ومن أمنه الناس على أعراضهم فحفظها كان قد يسر عندهم يحفظون له أجل الذكري . ويحلونه من أنفسهم أكرم محل . ومن أمنه الناس على أسراره فلم يفشها كان كريما عليهم كبيرا في أعينهم ذا سلطان على أنفسهم . أما الذى يقول ويكذب ويعد ويخلف ويخون إذا ائتمن فانه يكون محتقرا عندهم ساقط المروءة في أعينهم لا يصدق له قول ولا يعبا له برأى ولا يؤمن على مال ولا يساعد على عمل . وذلك منتهى الذلة والهوان

ما يغتفر من خلف الوعد

لا يغتفر في نظر الدين شئ من خلف الوعد حتى في الأمور التي يتسامح الناس فيها عادة . ولا يترتب عليها ضرر لأحد كأن يعده ليسير معه إلى نزهة مباحة أو يقضى معه عملا لا يتوقف على وجوده معه أو يحضر معه لتناول طعامه ونحو هذا . لأن ذلك وإن لم يكن كبيرة من الكبائر كما تقدم إلا أنه يجر إلى غيره بحكم العادة والميراث . فمن استسهل الخلف في الأمور الصغيرة فانه لا يستصعبه في عظام الأمور فضلا عما في ذلك من ضعف الثقة به وظهوره بين الناس بمظهر الخلف للوعد . وفي ذلك ضرر يلحقه هو إن لم يلحق غيره . وإنما الذى يغتفر من خلف الوعد في نظر الدين هو أن يعد وهو ينوى الوفاء فاذا عرض ظرف قسرى اضطره للخلف لم يكن آثما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى بما وعد به ولكن الخلف أن يعد الرجل ومن نيته أن لا يفى » أخرجه أبو يعلى في مسنده . مثلاً إذا استدان شخص من آخر ديناً - اقتضته ضرورة من ضروريات حياته - إلى أجل مسمى وهو ينوى أن يقضيه عند ذلك الأجل ثم اضطر إلى عدم الوفاء لعارض قهرى وعذر شرعى فانه لا يكون مخلفاً في هذه الحالة . نعم ينبغى للمرء أن يتحرى في أموره ويجهد نفسه بالتسك بوسائل الوفاء فان عجز بعد ذلك لم يكن مقصراً . وكذلك لا يجوز له أن يبذر في أموال الناس ثم يعجز بعد ذلك ويقول إنه لم يكن مخلفاً . فانه في مثل هذه الحالة يأثم إثمين . إثم التبذير في أموال الناس . وإثم خلف الوعد . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثال لأتمته بالأخلاق الفاضلة في غيرهم من الأمم فقال لهم مرة مامعناه إن رجلاً من كان قبلهم من الأمم ذهب إلى آخر ليستدين منه مائة دينار إلى أجل - كي يتجر فيها ويردها له - فقال له انتنى بكفيل فقال له لا كفيل لى سوى الله تعالى . فقال له كفى بالله كفيلاً ولكن انتنى بشاهد . فقال له الله شهيد . فقال له كفى بالله شهيداً وأعطاء المائة التى طلبها فأخذها وسافر بها في البحر إلى جهة واتجر فيها فربح مائة مثلاً ولما أراد العودة إلى بلده لم يجد مركباً يعود عليها وقد حل أجل الدين فاضطرب الرجل خوفاً من خلف الموعد ولم يستطع الصبر بعد أن جعل الله كفيلاً وشهيداً عليه ولم يجد وسيلة يتخلص بها من ذلك الموقف سوى أن يضحي بربحه ويحمله قرباناً لله تعالى فأتى بخشبة وحفرها - كصندوق - ووضع فيها

المائة التي ربحها ووضع معها رقعة مكتوب فيها . اللهم انك كفلتني عند فلان وأنا أستحي أن لا أفي بما كفلتني فيه فمذا ربحي أقدمه لك قربانا وقذف بالخشب في الماء وبقي ينتظر سفينة يعود فيها ولما فات موعد الأجل خرج صاحب الدين يتفقد السفن لعله يجد سفينة تحمل صاحبه فعثر على قطعة خشب على وجه الماء فحملها لينتفع بها وقودا فلما كسرهما وجد فيها دينه ووجد معه الرقعة التي كتبها المدين فأخذه وبعد أيام حضر المدين ومعه المائة دينار التي اقترضها فدق عليه الباب فلما رآه اعتذر اليه وذكر له السبب الذي ألجأه الى خلف الموعد وأراد أن يعطيه المائة فقال له ان الذي كفلك قد سد عنك فأخذها وانصرف . روى معناه البخاري

ذلك مثل من أمثلة خالف الموعد التي يغتفرها الدين فان الرجل كان يتوى الوفاء وقد بذل كل مجهوده في سبيل ذلك ولما أعيتة الحيل أراد أن يقدم قربانا لله تعالى وهو أن يضحي بكل ما ربحه ولكن الله سبحانه وتعالى الذي يحب الصادقين من عباده الأمانة والأوفياء لم يضيع عليه ماله ولم يفرته ثمرة مجهوده فحفظ له ماله في الدنيا بطريقة غريبة في العادة كي يزيد ايمانا بأنه لا يضيع أجر العاملين في الدنيا ولهم في الآخرة أحسن الجزاء . نعم لا يجوز للانسان أن يخاطر بماله مخاطرة ذلك الرجل وأن يقذفه في الماء لأن الدين الاسلامي نهى عن ذلك . وانما كان ذلك جائزا في الأمم السابقة لانهم كانوا يقدمون القرابين على مثل هذه الصورة . وانما ذكرناه لك لتعرف منه مقدار حرص الرجل على الوفاء ومقدار رغبته في أن لا يخلف الموعد ومع كونه اضطر الى المخالفة قسراً فان نفسه لم تطمئن لذلك فحذف بربحه في الماء قربانا لله تعالى وفي ذلك من العبرة على الوفاء مالا مزيد بعده .

الصدق والكذب

واذ قد علمت أن الصدق قد يكون فرداً من أفراد الامانة وأن الكذب يشمل خلف الوعد . فلندكر لك تعريفهما هنا وأحكام كل منهما

فأما الصدق فهو أن يقول الانسان الحق الذي يعرفه ويعتقده فاذا أخبر عن شيء فينبغي أن يكون عارفاً له معتقداً أنه هو بدون زيادة ولا نقصان فاذا بالغ في قوله مبالغة تغير المعنى وتلبس على السامع كان كاذباً . وكذلك اذا تعمد أن يوجز فيه إيجازاً مخلاً أو يحذف منه شيئاً يذهب بالغرض المقصود منه فانه يكون كاذباً فيه . واذا أخبر الانسان خبراً عن شيء وهو يعتقد أنه هو فظهر خلافه فانه لا إثم عليه وان كان في ظاهره كذباً . ولقد بينا لك في مبحث الغيبة أن ما يفيد معنى القول يكون في حكمه فكذلك هنا ينبغي أن تعلم أن الإشارة بالعين أو الرأس أو اليد أو العزم ونحو ذلك مما يفيد معنى القول له حكم القول في الصدق والكذب .

وما لا ريب فيه أن الصدق من الفضائل الضرورية للمجتمع الانساني وافراده . فلولاً الصدق ما كان الانسان . وذلك لأمور :

منها أن غاية الإنسان في حياته إنما هي الوصول إلى السعادة وقد علمت أن السعادة الحقيقية هي البقاء بلا فناء والنعم بلا زوال وذلك لا يكون إلا في الدار الآخرة فلا بد حينئذ من نقل أخبار تلك الدار صادقة ولا بد من معرفة الوسائل التي يتوصل بها الإنسان إلى تلك السعادة على وجه صحيح. وذلك لا يكون إلا بالنقل عن الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله فإذا لم يوجد الصدق لا يمكن الوصول إلى السعادة بل لا يمكن الوصول إلى معرفة ما عند الله تعالى لعدم صدق الرسل حينئذ وهم الذين يوحى إليهم بأخبار ما غاب عنا .

ومنها أن حياة المجتمع الإنساني من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات . فلا يمكن أن يعيش الإنسان منفردا مستقلا عن غيره في جميع شئونه بل لا بد له من الاستعانة بغيره والاستناد عليه في كثير من ضروريات الحياة كما تقدم . وإذا فلا بد له من التفاهم مع ذلك الغير على أساس صحيح كي يتيسر له أن يتعاون معه . فإذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذي هو أهم شيء في هذه الحياة .

ومنها أن الميزة التي امتاز بها الإنسان عن الحيوان إنما هي العلم والمعرفة . والعلم مشتمل على فضايها ونظريات . فإذا نقلت كاذبة انقلب العلم جهلا وانعدمت الحقائق العلمية وفقد الإنسان ميزته التي امتاز بها عن الحيوان .

ومنها أن الإنسان محتاج للغة والاعتبار بأخبار الأمم الماضية والحاضرة ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالصدق .

وبالحله فإن الصدق ضروري لحياة الفرد والمجتمع فلا يمكن أن يعيش الإنسان من حيث هو إنسان بدون الصدق فهو فضيلة من أجل الفضائل وأعظمها أثرا وعكسه الكذب فإنه رذيلة من أسوأ الرذائل وأقبحها أثرا ويتنوع الكذب إلى أنواع :

أولا . ما كان منه متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وهذا من أشد الكبائر وأقبح الجرائم التي تضر المجتمع الإنساني وتقضى على العدل والنظام فإن الذي يقول الزور ليقطع حقوق عباد الله أو يثلمهم في أعراضهم ويؤذيهم في أنفسهم فهو أضر على نفسه وعلى المجتمع الإنساني من كل ما يضر الإنسانية ويؤلمها وقد عرض بذلك نفسه لغضب الله تعالى ومقته وكان سببا في بث الفوضى وإغراء المجرمين على إقتراف الجرائم فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتهون وهم آمنون من العقوبة لأنه يجد شاهد الزور يساعده على الإفلات منها وفي ذلك خطر عظيم وبلاء شديد .

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكان متكئا ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد فقال ألا وقول الزور » متفق عليه . ولا فرق بين أن يكون ذلك الحق الذي اعتدى عليه كبيرا أو صغيرا أو سواء أكد شهادته باليمين أولا . إلا أنه إذا كان الحق كبيرا وكان تأثيره على نفس المعتدى عليه شديدا أو كان مؤكدا بالخلف بالله تعالى فإنه يكون أشد جرما وأعظم إثما . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين ليقطع بها مال امرئ مسلم نقي الله وهو عليه غضبان قيل يا رسول الله وإن كان شيئا يسيرا قال وإن كان سواك من أراك »

رواه الشافعي في مسنده بهذا اللفظ . وقد روى من عدة طرق بأسانيد جيدة مع اختلاف في بعض الالفاظ . وفي هذه الصورة أمور ثلاثة . الأول الكذب وهو تعدد الاخبار عن الشيء بخلافه كما تقدم . الثاني الجرأة على الله تعالى باستعمال اسمه الكريم كذبا . الثالث الاعتداء على حق الغير . ولا ريب في ان اجتماع هذه الثلاثة من اكبر الكبائر .

ثانيا ما كان منه غير متعلق بحقوق العباد ولكنه أكد باليمين . وفي هذا خلاف والصحيح أنه كبيرة أيضا لما فيه من الجرأة على الله تعالى والاستهانة بالكذب . يشير لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة في قلبه الى يوم القيامة » رواه الترمذي والحاكم وصححه

ومعناه أنه اذا أدخل في يمينه شيئا من الكذب والاخبار عن الشيء بخلافه أثر ذلك في قلبه كما تؤثر النكتة السوداء . وكذلك شأن الجرائم والموبقات فلها تراكم على القلب نكتا سوداء فتكون كالطابع فلا يؤدي وظيفته كما سبق بيان ذلك . وهذا يدل على ان الحلف بالله كذبا كبيرة من الكبائر .

ثالثا ما كان منه غير متعلق بحق الغير ولم يؤكد باليمين . وهذا تارة يقصد به المزاح والسخرية . وظاهر الاحاديث يقضى بانه كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث بكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وغيرهم . لان الذي يفعل ذلك أولا قد استهان بامر الكذب واستلذه فلا يلبث مثل هذا أن يكون الكذب عادة له ويصبح من الكاذبين الذين يتكرر كذبهم ولا يصدق لهم احد حديثا حتى ولو كان صادقا . والشرعة الاسلامية حريصة دائما على الاحتياط في درء الفساد . فن اجل ذلك كرر رسول الله كلمة الويل التي تدل على العذاب والسخط في شأن من يكذب ليضحك الناس .

رابعا ما كان منه متعلقا بالله ورسوله كأن يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاذبا متعمدا وهذا من أغشى الكبائر واشدها خطرا على الدين وليس لهذا جزاء سوى ان يتبوأ مقعده من النار وكل هذه الامور ليست من خلائق الاسلام لانه انما يدعو الى الفضائل وينهى عن الرذائل فطبيعته الكريمة تأبى سقاسف الامور ونحرم الاضرار بالناس . وقضاياها تنطوي على ما فيه مصلحة المجتمع الانساني وبقاؤه وتنمية العمران . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع او يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب » رواه ابن ابي الدنيا وغيره

ولا ريب ان خلف الوعد داخل في الكذب والفدر والفجر في المخاصمة داخل في الخيانة . وقد علمت أن هذه من صفات المنافق لامن صفات المؤمنين . قالت عائشة رضي الله عنها ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من اصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم انه قد أحدث لله عز وجل منها توبة « رواه احمد وابن ابي الدنيا . وقال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم - وكررها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات -

فقال أبو ذر رضي الله عنه خابوا وخسروا من هم يا رسول الله قال المسبل إزاره . والمنان الذي لا يعطى شيئا إلا منه والمنفق سلعته بالخلف الفاجر . والمسبل إزاره هو الذي يجر أثوابه غفرا واختيالا . والاسلام ينهى الناس عن ذلك كما سيأتى في موضعه . أما المنان فهو ساقط المروءة لأنه إن أحسن إلى فقير أصاع إحسانه بالمنّ عليه وربما تأذى بالمنّ عليه أكثر من منفعة بما أخذ منه وإن أعان صاحباً أو جامل أحداً بمعروف أخجله بمنه ونقص عليه عيشه . وكدر صفوه وقد يكون ضرر ذلك عليه أكبر مما استفاده منه . وأما المنفق سلعته بالخلف الفاجر فهو الذي يئنه لك أولاً

فذلك هي آداب الدين العالية وأخلاقه الكريمة لحرام على المسلمين أن لا يتسكوا بها ويحرصوا على تنفيذها فإن من تمسك بها لا بد أن يحيا سعيدا ويظفر برضوان الله تعالى ويفوز بالنعيم الدائم والملك المقيم في جنات النعيم

ما يعنى عنه من الكذب

من قضايا الدين وقواعده الحكيمية أن الضرورات تبيح المحظورات وإن الله لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ والنسيان وما اكره عليه . فإذا عرضت ضرورة لا مناص منها اضطرت الإنسان إلى أن يفعل ما هو محرم في نظر الدين جاز له أن يفعل ذلك كما إذا اضطره الجوع - الذي قد يفضى به إلى الهلاك - إلى أكل الميتة فإنه يحل له ذلك بل يلزمه أن يفعل تقاديا من الموت وكذلك إذا اضطرت به الضرورة لشرب النجاسة كما إذا كان نائها في الصحراء فإنه يحل له ذلك . وكذلك إذا اكرهه أحد على ارتكاب جريمة ما عدا جريمة القتل فإنه يحل له ارتكابها أما جريمة القتل فإنه لا تحل لأنه في هذه الحالة يكون بين امرين أما قتله أو قتل غيره . وإذا كان لا بد من ازهاق روح فيلزم أن لا يرتكب جريمة القتل ويذر غيره يرتكبها . ومثل القتل الزنا على كلام بطاب من محله . وإذا قد علمت ذلك فاعلم أن الكذب قد تعرض له حالة ضرورة فيأخذ ذلك الحكم . مثلا إذا أراد ظالم أن يقتل شخصا مستجييا بك ومختبئا في دارك وجاء ذلك الظالم يبحث عنه وسألك في ذلك فهل يحل لك أن تخبره بالصدق وتقول إنه مختبئ في حجرة كذا في دارى . لا شك في أن هذا لا يحل لما يترتب عليه من قتل نفس ظلما وعدوانا . نعم إذا أمكن أن يعبر بعبارة تبعد عن الكذب وتنهى الرجل كان ذلك حسنا . ولا يقال أن الصدق فضيلة عظيمة فيجب أن تتبع في جميع الشؤون والكذب رذيلة مذمومة فيجب أن يجتنب معها ترتب على ذلك من تضحية حتى ولو كان فيه ازهاق بعض الأنفس . لأننا نقول إن ذلك يكون صحيحا إذا ترتب عليه هدم لتلك الفضيلة وتضييع لها كما إذا اعتاد الكذب باختياره بدون ضرورة تاجه إلى ذلك فإن ذلك إذا فشى بين الأفراد أصبح اقتراف الكذب سهلا وأصبحت الفضيلة مهددة بالزوال . أما في الحالات الاستثنائية التي تحتلها كل قاعدة ويقرها كل نظام فإنه ينظر للمصلحة في ذاتها خصوصا إذا كان الأثر الذي يترتب على الكذب دره مفسدة شديدة كالقتل وإذا كان الله تعالى قد أباح للإنسان أن يرتد في ظاهر أمره عن دينه قرارا

من القتل متى كان قلبه مطمئناً بالآيمان لأن ذلك ظرف استثنائي لا ينافي قواعد الإسلام . أفلا يكون الأخبار بغير الواقع جائزاً للتخلص من القتل . على أن مفهوم الصدق اعتبر فيه الاعتقاد بأن ظهر ما يخالف الواقع خطأً فلا جناح فيه . فالكذب كغيره في نظر الدين إنما حرم بالنظر لما يترتب عليه من المفاسد فتي أمكن التوفيق بينه وبين المصلحة للضرورة فلا يكون محرماً . ومن ذلك الإصلاح بين فئتين عظيمتين يترتب على الإصلاح بينهما حق دماء كثيرة واستقرار للأمن ودفع للفتن فإن التحايل على ذلك بأي وسيلة من الوسائل لازم مهما أمكن . وكذلك القول في الحروب ونحوها . وكذلك الكذب الذي يترتب عليه صيانة عرض أو حفظ مال من الاعتداء عليه ظلماً . والقاعدة في ذلك أن كل ما يترتب عليه حق دماء كثيرة كانت أو قليلة . أو يترتب عليه صيانة الاعراض وحفظ الأموال أو فيه منفعة الأمة فهو لازم مهما كانت ضررته . وليس من الضروري أن نعتبر مثل ذلك خارجاً عن حد الكذب لأنه أخبار عن الشيء بخلافه على كل حال وإنما هو استثناء من الكذب المذموم ولا ضرر في هذا على الصدق لأن هذه الأحوال ليست هادمة له بل هي في الواقع مقررة له لأنه إنما كان ممدوحاً لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الإنسان . ولا نظر في هذه الأحوال إلا للفائدة التي ينشدها الدين والعقل ويمتدح من أجلها الصدق

فإن كانت الفائدة التي تترتب على الكذب شخصية لا تترتب عليها آثار عامة بل تكون فاصرة على بعض الأفراد - كالكذب للإصلاح بين اثنين - لا يترتب على الإصلاح بينهما ضرر يعود على غيرها والإصلاح بين الزوجين وكذب الرجل على زوجته وأبنائه ليرضيها فإن الظاهر أنه جائز فقد روى مسلم في صحيحه عن أم كلثوم بنت عقبة أنها قالت « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . الرجل يقول القول يريد الإصلاح . والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها »

وظاهر هذا الحديث أن أهم الكذب يرتفع في هذه الأحوال الثلاثة . فاما الحروب والإصلاح بين الأمم فأمره ظاهر . وأما الإصلاح بين الأفراد والإصلاح بين الزوجين فذلك محل نظر ينبغي أن يحتسب فيه كل الاحتراس لأن الشارع وإن كان قد أباح للزوجين أن يكذب كل منهما على صاحبه ليرضيه فإنما أباحه في الأحوال التي لا تتعارض مع قواعده العامة وهو أنه لا يكون ذلك من بواعث رفع الثقة بينهما وأن لا يكون سبباً في استسهال الكذب والتعود عليه . وأن يكون في الأحوال الضرورية التي لا مناص فيها من الكذب بحيث لا يمكن صلح ولا رضا إلا بذلك . وأن يكون الخلف بينهما قد وصل إلى حد الفرقة التي يترتب عليها ضرر الأطفال الصغار وهدم الأسرة . ونحو ذلك من المضار الكبيرة التي تعادل جريمة الكذب وترجع عليه . ومثل ذلك الصلح بين اثنين فإنه ينبغي أن يراعى فيه كل ما تقدم . وحيث أن تقدير هذه الظروف دقيق والوقوف عليها عسر فينبغي اجتناب الكذب في مثل هذه الأمور والوقوف عند حد الضرورة الملجئة حيث يتعين الكذب حقناً للدماء أو حفظاً للأموال والاعراض أو تحصيلاً لمصلحة تعود على الجماعة بشرط أن يتعذر التعبير بغير الكذب

النميمة

تعريفها

ومن صفات النفس الذميمة التي تثير الغضب وتبيح ويترتب عليه كثير من الشرور والمقاسد القيمة وهي مأخوذة من نهم الحديث ينم بالكسر والضم من بابي ضرب وقتل نميمة ونميا اذا سعي به ليوقع فتنة أو وحشة. ويقال لمن يفعل ذلك تمام. هذا معنى النميمة في اللغة. وأما معناها في اصطلاح الأخلاقيين فهو أعم من هذا لأنه عبارة عن افشاء السر ونقله الى الناس فمن أفشى سرا أودع عنده أو اطلع عليه من غير علم صاحبه فانه يسمى تمام سواء كان افشاؤه يؤلم المنقول عنه أو المنقول اليه أو يؤلم شخصا آخر غيرهما كما اذا أسر محمد الى علي حديثا يتعلق بعيب في خالد فافشاه على الى أحمد فانه في هذه الحالة لم يؤذ المنقول عنه ولا المنقول اليه وإنما أساء الى خالد. ولا فرق بين أن ينقله بالاشارة أو العبارة كما لا فرق بين أن يسره اليه بنفسه أو يطلع عليه في غفلة عنه كما اذا رأى شخصا يدفن مالا مملوكا له في خفاء فانه لا يحل له أن ينقله الى الناس فان نقله كان تمام. نعم ان كان في كشف السر دفع منكر أو ايصال حق لصاحبه كما لو رأى لصا يدفن مالا سرقة أو رأى اثنين يتآمران على اقرار جريمة فان عليه أن يفشو هذا كي يرد المال لصاحبه ويدفع المعصية قبل وقوعها فالنميمة عند الأخلاقيين عبارة عن كشف المستور من الأمور التي يكره كشفها سواء كان يكره المنقول عنه أو المنقول اليه أو يكرهها شخص ثالث غيرها

انواع النميمة

تتنوع النميمة الى أنواع

أولاً. النميمة عند أرباب الجاه والسلطان وهي شر انواع النميمة ضررا وأشدّها خطرا فكم جرت مصائب وويلات على كثير من الأبرياء المؤمنين العاقلين طاهري القلوب سليمي الصدور فقضت على أرواحهم وأموالهم. وكم نكلت بكثير من نوابغ العلماء فاخرجتهم من ديارهم وأموالهم وأصبحوا عرضة لحن الزمان ونوائب الايام وكم أضرت بصالحين مطمئنين فأودعتهم السجون وسلبتهم الحقوق وجعلت للفاسقين عليهم سلطانا وكم حرمت اطفالا من قوتهم وسلبت منهم نعيمهم بدون جناية اقترعوها ولا جريرة ارتكبوها

ولا ريب في ان النمام في هذه الحالة لا يكون له قلب يؤنبه ولا وازع يرعه فيزين له حب الجاه والمنصب والمال التجسس على عورات الناس الذين يظن انهم يزاحمون في شهرته او ينافسونه

في مناصبه كي يتخذها سلاحا يستعمله ضدهم كلها أراد . وهؤلاء لا يبالون باختلاق الكذب واختراع الباطل يذيعونه عند ولادة الأمور ويسعون به لديهم للقضاء على الأبرياء وتضحياتهم في سبيل شهواتهم بدون حياة ولا خجل من عباد الله ولا خوف من ربهم وإن عذابه إياهم لواقع . وسخطه عليهم ماله من دافع وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . ومن هؤلاء الأشرار من يكون كالعقرب فيؤذى من لا ينتفع بأذيته ولا علاقة له به لمجرد الحسد والحقد أو الخوف من أنه يظهر عليه في هذه الحياة فيقلل من شأنه وذلك منتهى الفسق والضلال .

ثانياً . النميعة بين الأصحاب والأصدقاء وهذه شر عظيم أيضا فإن الناس لا بد لهم من التعاون في هذه الحياة ولا بد للأفراد من ثقة تتداول بينهم يعتمدون عليها في معاملاتهم وهذه الثقة إنما توجد بين الأفراد لما يوجد بينهم من تقارب في النفوس وتشابه في الصفات ومتى وجدت هذه الثقة أصبح كل واحد منهم ينظر لصاحبه كما ينظر الى نفسه في جاب النافع له ودفع الضار عنه فلا يخفى عنه سرا ولا يرض عليه بمعونة . وقد تذهب به الثقة إلى أن يفضل على أخيه من النسب ويقدمه على أهله وعشيرته وإن لم يكن منهم . فأشد الناس خيانة وأقطعهم لصلات الود وأفسدهم أخلاقا وأخسهم قدرا وأرذلهم صنعا وأحقهم في نظر الإنسانية من ينتهز هذه الفرصة كي يقف على عورات صاحبه ويعرف موضع الضعف من نفسه ثم يترصص به الدوائر فيذيعها عنه ليقضى بها على حياته الأدبية أو المسادية . مثله في كرامته أو يؤذيه في سمعته . فلا ريب أن من يفعل ذلك لا يصح أن يكون في عداد الإنسان بل الأجدر به أن يكون وحشا كاسرا وذئبا ضاريا على أنه أشد من الوحوش ضررا وأعظم من الذئاب خطرا

ثالثاً . النميعة بين الزوجين أو بين الأهل والأقرباء فمن ثم يفسد بين الزوجين أو يفسد بين الأب وابنه أو بين الأخ وأخيه فهو شر من الشياطين الذين قال الله عنهم أنهم يعلمون الناس السحر ليفرقوا به بين المرء وزوجه وتلك كبيرة من شر الكفار وجريمة من أسوأ الجرائم لأن من يستطيع أن يقطع الصلات الطيبة بنائمته وشاياته فإن خطره على العلاقات الأخرى شديد وضرره على المجتمع الإنساني عظيم ولا ريب في أن النميعة في هذه الحالة أشد من النميعة بين الأصحاب والأصدقاء

رابعا . النميعة بين الجماعات والافساد بين القبائل . وهذه قد يثيرها التنافس السياسي للقضاء على شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل أو اسرة من الأسر فيسعى المنافس في الإيقاع بها عند قبيلة أخرى لتشتبك كل منها بصاحبتها في نضال ونزاع يفضي الى إبادة إحداها . ولا ريب في أن الوشايات والنمائم في هذا أشد ضررا من الوشايات بين الأفراد فإن القضاء على شعب يرى أو قبيلة هادئة لا ذنب لها سوى أنها تراحم في الحياة جنابة لن يفرها الله تعالى وجريمة لا تمحى

خامساً . النسيمة لرفع الثقة من مزاحم في تجارة أو صناعة أو زراعة وهذا النوع هو الذي يغلب وقوعه بين الطبقات المرتزقة ولو علم هؤلاء أن الرزق لا ينال بالتعدي على بعضهم بعضاً بانتمائهم والوشايات وإنما ينال بالجد والاجتهاد والمثابرة على العمل والصدق والامانة لما أقدموا على تلك الجريمة الشائنة .

سادساً . النسيمة لانزال شخص عن مكانته واحترامه عند فئة من الناس أو طائفة من الطوائف وهذا النوع يقع كثيراً بين المتنافسين في الزعامة الدينية أو الدنيوية فيحملهم الحسد والغيرة على الوشايات والنهائم في بعضهم عند من يعتقدون فيه القدرة على حمل الناس على احترامهم وتقديرهم إياه . ولو علم هؤلاء أنهم بخبايتهم هذه يتناحرون ويسقط بعضهم بعضاً لما أقدموا على ارتكابها هذا معظم أنواع النسيمة وهي كما ترى من شر مامنيات به الفضيلة ورزأت به الانسانية . فقاتل الله النمام الذي قد اجتمعت فيه الحسة والدناءة ومعظم الصفات المردولة لانه لا يبالي أن ينقل الكذب فهو من زمرة الكاذبين ولا ينفك عن الغيبة لأن النسيمة غالباً يصاحبها ذكر العيوب . فإذا أفضى سرا وذكّر عيوب أخيه كان نماماً مقتاباً . ولا ينفك عن القدر والحياة والحقد والحسد والتعلق والنفاق والافساد بين الناس والقضاء على سمعة إخوانه وكرامتهم وأموالهم وأعراضهم . ومن كان كذلك فهو من شر خلق الله الذين يسعون في الأرض فساداً . من أجل ذلك كانت النسيمة من الكبائر في نظر الدين الاسلامي وقد حرمها الله تعالى في كتابه الكريم . ووصف فاعلها بأخس الصفات وأرذلها قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر كثير من الصفات المردولة التي هي أصول الشرور والمفاسد بين الناس . فالخلاف المهين هو الذي يحلف كثيراً من غير ضرورة بالحق وبالباطل . وإنما يفعل ذلك من اتخذ الكذب شعاراً له حتى أصبح كذاباً في نظر الناس . مميناً عندهم فلا يصدقونه في خبر ولا يتقون به في حديث فيكثر من الحلف ليعيد اليه بعض الثقة . وما هو بموثوق به على أي حال . ومن كان كذلك فهو شر على نفسه وعلى المجتمع الانساني . فلا يبالي أن يعتدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والهاز أصله لغة مأخوذ من الهمز وهو الضرب باليد أو العصا استعير للذي يعيب الناس بلسانه أو ينال منهم بالإشارة أو الغمز بالعين وهو المغتاب الذي سبق الكلام فيه . والمشاء بالنميم هو نقال الحديث من قوم لقوم أو من شخص لآخر على وجه الافساد ويتناول ما تقدم من أنواع النسيمة . والمناع للخير هو البخيل المسك الذي يرضن بالانفاق حيث يجب البذل . والمعتدي هو الذي يعتدي على الناس ويظلمهم . والآثيم هو كثير الآثام .

فلك الصفات اذا وجدت جميعها في شخص أو وجدت واحدة منها فيه كان جديراً بأن يحتقر ولا يطاع فيما يريد من إيذاء الناس باقتطاع حقوقهم بالآيمان الفاجرة أو الطعن في أعراضهم بالاغتياب أو إيذائهم بالنسيمة أو منع حقوقهم عنهم بالشح . بل ينبغي أن يزدجر بمقاطعة والانصراف عنه . فإن حلف لا يصدق وإن اغتاب الناس لا يصغى له ولا يستمع لغيبته . وإن رمى لاسمع وشاياته . وإن بخل لا يعان على بخله . ولو كان له مال قد يظن أنه يجعل له قدراً وقيمة

في الحياة كما قال تعالى (أن كان ذا مال) - أى لا تطعمه لأن كان ذا مال - فإن المال في مثل هذه الحالة لا يغنى عنه شيئاً . فلا يحفظ له كرامة ولا يصون له قدراً وهو شر الفاسقين وأرذلهم كما وصفه الله تعالى بعد ذلك بقوله (عتلّ بعد ذلك زنيم) فالعتلّ هو الفاحش اللثيم . أو الشديد الفاتك الذى لا يبالى بالفنك بالناس وايدائهم في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والزنيم ولد الزنا الذى ينتسب إلى قوم ليس منهم . مأخوذ من الزئمة بفتح الحاء وهى ما يتدلى في حلق المعز وهى الجلدة الزائدة التى تعلق بها وكأنها ليست منها . شبه بها الدعى الذى ينتسب الى قوم ليس منهم فمن كانت فيه هذه الصفات كان جديراً بأن يكون متولداً من نطفة خبيثة لا يعرف للخير سبيلاً . وليس معناه أن كل أولاد الزنا شر على الناس إنما الغالب أن يكون ولد الزنا شريراً فاسداً يتبع والديه في أخلاقهما المرذولة ويرثهما في أوصافهما الممقوتة مالم يرب تربية صالحة في بيئة كريمة فنزع من نفسه تلك الصفات وتبرأ منها كما قدمناه لك في مبحث الشح وغيره . فاذا وجدت تلك الصفات المرذولة في شخص كانت أمانة على خبث نطقته وعلامة على أنه ابن زنا .

ومن ذلك يتضح لك أن الله تعالى جعل النام في سلك هؤلاء المجرمين الذين هم من عنصر فاسد وأخلاق شائنة . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة تمام » وفي رواية - قتات - رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . والقتات والنام بمعنى واحد . وقيل النام هو الذى يكون مع جماعة يتحدثون بحديث ثم ينقله عنهم على وجه الافساد . والقتات هو الذى لم يكن موجوداً معهم ولكن يسترق الحديث ويسمعه ثم ينقله كذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين فان فساد ذات البين هى الحالقة » رواه أبو داود والترمذى وابن حبان في صحيحه .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « هى الحالقة لأقول تحاق الشعر ولكن تحلق الدين » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منى ذو خسد ولا نعمة ولا كهانة ولا أنا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » رواه الطبرانى .

وكفى بذلك من قول الله تعالى وقول رسوله ذمماً للنعمة وزجراً للمؤمنين الذين هم بهم لا يعدلون .

علاج النعمة

واذ قد تبين أن النعمة داء وويل وشر خطير تترتب عليه كل هذه الشرور والمفاسد فينبغى أن يتصافر المسلمون على محاربتها والقضاء عليه حتى لا يبق له ظل ولا يظهر له أثر وخير علاج يقضى عليه

أن ينصرف الناس عن النامين ولا يستمعون لهم ولا يتأثرون بنائمهم ووشاياتهم كما قال تعالى (فلا تطع كل حلاف) الآية .

روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر عنده وشاية في رجل آخر فقال له عمر إن شئت حققنا هذا الأمر الذى تقوله فيه ونظرنا فيما نسبته اليه فان كنت كاذبا فانت من أهل هذه الآية (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وإن كنت صادقا فانت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وإن شئت عفونا عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليه أبداً . فثل ذلك الرجل الذى قابله عمر بن عبد العزيز بمثل هذا التائب لن يعود اليه بنسيئة مادام حيا . فلو سلك الناس هذا الطريق مع النامين لقضوا على هذا الداء قضاء مبرماً . فمن لم يستطع ضبط نفسه فثار غضبه عند سماع النسيئة فيجب عليه أن يتثبت في الأمر ولا يتسرع في توقيع العقوبة عملاً بقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) فان النام فاسق بنسيئته والفاسق لا يصح الوثوق بخبره بل ينبغى التثبت فيه لأنه يكون كاذباً في الغالب وليس الغرض من ذلك أن يتجسس ويبحث عن صحة ما قال وإنما الغرض أن ينظر فيما نقل اليه ويتأمل في غرض الناقل لأنه لم ينقل إلا لغرض فاسد يناله اما من المنقول اليه كأن يطمع في منصب أو مال أو جاه واما من المنقول عنه كأن يريد التشفى فيه والانتقام منه بتحريض المنقول اليه على ابدائه . ومن كان هذا شأنه فلا يصح التعويل على خبره فتسكن نفسه عند ذلك وينصرف عن سوء الظن بأخيه الذى نهى الله عنه قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً) ولا يفوت أحداً من الحذاق أن النام الذى ينقل اليه لغرض يناله من وراء ذلك لن يحجم لحظة في أن ينقل عنه لغيره متى لاح له ذلك الغرض . ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله من نتم اليك نتم عنك .

فليس من العقل أن يحسب للنام حساباً أو يجعل لوشايته قيمة فانه اذا فعل معه ذلك بارت بضاعته وخسرت تجارته وباء بالخزي والفشل . وذلك خير زاجر يزجره عن اقرار ذلك الاثم وأكبر مؤدب يعده عن ارتكاب هذه الخطيئة . وينبغى للمنقول اليه أن لا يذكر الوشاية التى نقلت اليه لصاحبها والا كان هو تماماً أيضاً فيقع في الاثم الذى وقع فيه غيره فضلاً عما في ذلك من العناية بالنسيئة باحياء ذكرها مع أن اللازم إمامتها واعتبارها كأنها لم تكن .

هذا خير علاج تعالج به النسيئة وهو زجر النام وعدم الاصغاء الى نائمته ووشاياته فان كان المرشد يظن خيراً بالنام ويعتقد أنه يتأثر بالموعظة الحسنة فعليه أن يذكره بما يترتب على نسيئته من إيذاء الأرياء وظلم الناس في أموالهم وأرزاقهم ويحذره من عاقبة وشايته فقد ينكشف أمره عند حاكم عادل فيقتص منه شر قصاص . أو يظهر كذبه عند من ينقل اليه فينعكس غرضه وتزيد الوشاية في الرابطة بينه وبين المنقول عنه . وربما نتم على رجل أقوى منه فينتقم لنفسه بما لا قبل له به فضلاً عن أن النام منها اكتسب بوشايته فهو ساقط المروءة في أنظار الناس مبغوضا عندهم وهو مع كل ذلك في سخط الله تعالى وأهل لعقوبته وبطشه . وإن بطشه لشديد

الكبر والعجب

تعريفهما

من الصفات النفسية المردولة التي كثيراً ما تثير الغضب وتهيجه وتورث العداوة والبغضاء بين الناس الكبر والعجب . كما يناه لك في درجات الغضب .

فأما الكبر فعماد في اللغة العظمة والعزة . ومثله الكبرياء . وقد فسر ابن عباس الكبر في قوله تعالى (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) بالعظمة فالكبر صفة حاصلة للنفس تنشأ من اعتقاد المرء في أن له منزلة أعلا من منزلة غيره فيحصل له من تلك العقيدة هزة فرح في قلبه وعزة . فتلك العزة صفة الكبر . ويرادفه الزهو — بفتح الزاى وسكون الهاء — والفخر والخيلاء — بضم الخاء وكسرها — ويقال زهى الرجل — بضم الزاى — فهو مزهو إذا تكبر .

وأما معناه في نظر الدين والأخلاق فهو العزة التي يترتب عليها آثار سيئة تضر بالأفراد والمجتمع . يدل لذلك ما رواه مسلم والترمذي عن ثابت عن قيس بن شماس . قال « يارسول الله إني امرؤ قد حبيب إلى من الجلال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس أو غمط الناس » ومعنى الحديث أن الكبر هو هزة القلب التي يترتب عليها أمران احتقار الناس وازدراؤهم وإهانتهم بالقول والفعل . أو يترتب عليه رد الحق ودفعه وهو عالم به سواء كان من حقوق الله أو من حقوق عباده . فعنى بطر الحق رده وجحده وهو عالم به ومعنى غمص أو غمط الناس احتقرهم . أما فرح النفس بالشئ الجميل الذي لا يترتب عليه هذان الأمران فليس بكبر فإذا تأثرت نفسه بجمال شئ بجمال الثياب والزينة المباحة وأحبها من غير أن يحجره ذلك إلى احتقار الناس والتطاول عليهم فإنه لا يقال له كبر . وكذلك إذا تأثر بالجمال المعنوي كأن أحب صفة العلم والشجاعة وقدر الفضائل التي تتصف بها نفسه فاهتز لذلك قلبه وعزت بها نفسه من غير أن يترتب على ذلك احتقار غيره وجحد الحق فإنه لا يسمى كبراً . ومن ذلك ما إذا قدر الإنسان نفسه فسميا بها عما لا يليق فابتعد عن البيئات التي ياحقه منها عار أو يصيبه من وراء الاختلاط بها ضرر مادي أو أدبي فإنه لا يكون مذموماً بل هو مطلوب شرعاً . وكذا إذا أحب عزة النفس ليكون وقوراً بين الناس متحلياً بالصفات التي يقدسونها ويحترمونها كي يكون مطاعاً في قومه ليرشداهم إلى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيتبعونه في أمره ونهيه . لا غرض له من ذلك إلا هدايتهم وصلاحهم ولا مقصد له إلا رشدهم وفلاحهم . فلا يفعله خوفاً من ذم أو رغبة في مدح كما تقدم في مبحث الرياء فإنه يكون بمدوحاً كل المدح . فعزة النفس تكون كبراً مذموماً إن ترتبت عليها آثار

سيئة وتكون صفة مدحوة مطلوبة شرعا ان ترتب عليها آثار صالحة وتكون مباحة ان ترتب عليها حب الجمال في ذاته والفرح به من غير أن يترتب على ذلك خير أو شر . هذا معنى الكبر في اللغة والشرع ويؤخذ منه أن معناه في نظر الشرع يستلزم متكبرا عليه وهو الذي تظهر فيه الآثار وهو بهذا المعنى يفارق العجب لأن معنى العجب استعظام النعمة التي ظفر بها والركون اليها من غير اضافتها الى المنعم وهذا الاستعظام متعلق بالنفس وحدها فان تعلق بالغير كان كبيرا . فالعجب سبب موجب للكبر لأن الذي يستعظم النعمة ويعتقد أنه أهل لها بدون أن يعترف للمنعم بفضل فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه الكمال وأن له مرتبة فوق مرتبة غيره وذلك يفضي الى العزة والتكبر

سبب الكبر

واذ قد علمت ذلك تعلم أن سبب الكبر المباشر هو اعتقاد المرء في نفسه أن له منزلة أعلا من منزلة غيره وأن العجب سبب في ذلك الاعتقاد . وقد يكون هذا الاعتقاد ناشئا عن صفة كمال حقيقية كالعلم أو النسب أو الجاه والسلطان . وربما نشأ عن غرور ووهم بحيث يعتقد أنه أكمل من غيره خطأ وجهلا وربما نشأ الكبر عن نقص في ناحية من نواحيه فيتعمد العظمة ويفعل ما يستدعيه من آثارها ظنا منه أن ذلك يسد نقص فيه . فترى بعض المظلمون في أنسابهم مثلا يتكبرون عند ما يتاح لهم شيء من السطة ظنا منهم أن ذلك يرهب الناس فلا يحقرونها من ناحية نقص أنسابهم وكذا من كان معروفا بنقيصة في عرضه أو دينه فانه يتعمد العظمة لهذا الذي ذكرنا . وهذا كثير معروف بين الانسان . فمن أراد أن يحاول استقراءه يجد أن كثيرا من حالات الكبر ناشئة منه ومرتبة عليه وهؤلاء الذين يتكبرون بسد النقص فيهم يخطئون كل الخطأ . فان التكبر لا يزيد الناس الا حقدا عليهم فيدفعهم الحق الى اذاعة سوءاتهم مضاعفة ونشر عوراتهم مكبرة ويترصدون الفرص للانتقام منهم عند زوال تلك السلطة . مع أنهم لو أنصفوا أنفسهم وعاملوا الناس بالرفق واللين والعدل والتواضع كان ذلك وحده كاف في تقديسهم واجلالهم ونسيان كل نقيصة فيهم وما أحسن قول بعضهم :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب

فأما الكبر المترتب على الصفات الحقيقية فانه من شر الآفات التي تذهب بجمال تلك الصفة وتضيع ثمرتها المصودة منها . فاذا كان ناشئا عن صفة العلم كان صاحبه مثالا سيئا وقدوة رديئة خصوصا اذا دفعه الكبر الى الاتصاف بصفة ذميمة كالخسد والحقْد أو أفضى به الى ارتكاب مظلمة من المظالم يده أو لسانه فان عار هذا لا يمحي وضرره لا يقدر لأن الناس يقتدون بالعلماء في أقوالهم وأفعالهم فيستسلمون عند ذلك ارتكاب الجرائم . ويستيجون الاتصاف بالصفات الذميمة وذلك شر عظيم وبلاء مبین

وأيضاً فإن العالم المتكبر ينصرف الناس عنه وينفضون من حوله فلا ينتفع بعلمه إلا من يوافقه على هواه فلا يرد عنه خطأ ولا يشير عليه بحق ولا يراجحه في غرض ومثل هذا لافائدة من تعليمه لأنه يكون ناقص النفس ضعيف الإرادة ومن كان هذا شأنه فإن علمه يكون شراً ووبالاً لأنه يستعين به على الشر ويستخدمه في الفساد. أما العلم النافع فهو الذي يربي الأنفس ويظهرها من الصفات الرديئة فيكون صاحبها مثلاً حسناً للناس وقدوة صالحة في الأقوال والأفعال.

ولذا كان الكبر ناشئاً عن النسب فإنه يكون سبباً في الطعن على ذلك النسب وحمل الناس على الاعتقاد بأنه نسب رديء الغنصر خسيس الأصل فإن النسب الشريف هو الذي تترتب عليه آثار صالحة تدل على رفته وكرمه. أما من يتكبر فيظلم الناس ويؤذيهم ويحتقرهم فإنه لا يكون من عنصر طيب ولا من أصل كريم وقد ينهم الناس من يفعل ذلك بأنه ولد زنا وذلك حق فإن الله تعالى وصف الثام والفاجر والمناع للخير بأنهم أولاد زنا كما تقدم في مبحث النعمة وذلك لأن الأعمال الفاجرة تتبع خبث المنى غالباً ما لم يتح لولد الزنا بيئة صالحة يربي فيها وينزع من نفسه تلك الصفات الرديئة التي ورثها من أصله واكتسبها من والديه.

أما إذا كان الكبر ناشئاً عن الجاه والسلطان فإنه يفضي إلى شر أنواع المظالم وانتهاك حقوق الله وحقوق العباد. ولقد علمت فيما مضى أن الكبر الضار هو الذي تترتب عليه مظلة أو ضياع حق من حقوق الله فاما العزة التي ينشأ عنها ما ينفع الناس وما يحفظ كرامة المرء وما يقتضيه النظام فإنها لازمة ضرورية. مثلاً ما يستدعيه نظام الحكم من ترفع الحاكم عن مخالطة العامة ومجاورتهم بما يسقط هيئته أو يطعمهم في قصائمه أو يسهل لهم الإخلال بالنظام فإنه واجب ضروري إذا أهمله الحاكم لم يكن جديراً بالحكم إنما الكبر الممنوع هو أن لا يبالي بهم فلا يسمع شكوى ضعيفهم ولا يسمع له بالدنو منه ليعبر له عن مظالمه وينتقم ممن لم يؤد له ما تقتضيه العظمة من أنواع العبودية الظاهرة فلا يبالي أن يبطش به ولا يتورع عن أخذه بما هو بريء منه. أو يحقد على من رفع صوته أمامه أو توسع في الدفاع عن نفسه بما لا يرضيه وكذا إذا أعرض الحاكم عن سماع النصيحة واستكبر عن العمل بالحق فإنه في هذه الحالة يكون متكبراً مذموماً.

مضار الكبر

وآثاره السيئة

تنقسم آثار الكبر إلى قسمين آثار باطنة وآثار ظاهرة وتلك الآثار تسمى تكبراً. فمن القسم الأول طغيان الغضب فإن المتكبر يستحق من يتكبر عليه ويرى منزلته فوق منزلته فإذا ما توهم أنه واقف في سبيل عظلمته وعزته نأر لذلك غضبه وطفى عليه.

ومنه الحق والحسد لأن المتكبر إذا رأى نعمة على من يعتقد أنه اعلا منه رتبة يحسده عليها ويتمنى زوالها عنه لانه حقير في نظره فلا يستحق تلك النعمة
ومنه الحق لان المتكبر اذا رأى من يريد ان يتكبر عليه قد وقف امامه في أمر لا يحبه ولم يستطع الانتقام منه فقد عليه وتربص به الفرص

ومن القسم الثاني ما يترتب على طغيان الغضب من المظالم والاعتداء على عباد الله تعالى. فانك قد علمت أن المتكبر يثور غضبه اذا رأى من يعتقد أنه دونه وقد حاول المساس بعظمته فلا يبالي عند ذلك أن يبطش به ويعتدى عليه في عرضه أو نفسه أو ماله أو دينه سواء أكان ذلك بمباشرة أو باغراء الناس عليه . ومنه أنه اذا لم يستطيع أن يبطش به بيده ويعتدى عليه اعتداء صريحاً في وجهه فانه يسلط عليه لسانه بأن يفتابه وينشر عيوبه بين الناس او ينم عليه ويوقع به عند من ينتقم له منه سواء اكان ذلك حقاً أم باطلاً ومنه أنه يتسلط على الضعاف ويسخرهم في أغراضه وشهواته وهو يعتقد ان ذلك واجب مقدس عليهم نحوه فلا يجوز لهم ان يشنوا عنه أو يقصروا في ادائه ومن اجل ذلك يتعذر عليه أن يشكر احداً على عمل أو ينوه بفضل احد عليه مهما اسدى اليه من معروف ولا يمكنه ان يذكر له يداً عليه . ومنه الاختيال في المشى وجر الثياب الى غير ذلك من الصفات الذميمة التي يجرها الكبر وراه وتظهر آثارها على وجوه المتكبرين وأيديهم والستهم وأبدانهم ومنها يؤخذ أن المتكبر حسود حقود كذوب مغتاب تمام ظالم معرض عن الحق لأنه لا يستمع لنصيحة من يتكبر عليه ولا يقر له بفضل . فهو من أشقى خلق الله وأضرهم على المجتمع الانساني وأظلمهم لنفسه لأنه ممقوت عند الله وعند عباده ولقد علمت مما مضى ان صفة واحدة من الصفات التي يستلزمها الكبر اذا نفشت في أمة من الأمم كانت كافية في ازالتها وفنائها فالكبر من شر الأدوية التي يجب على الناس علاجها ومحاربتها بكل الوسائل

فإذا شر مضار الكبر وآثاره السيئة الظاهرة والباطنة ذكرناها لك ليسهل عليك علاجه بعلاج كل أثر من تلك الآثار

اقسام الكبر

بالنسبة للتكبر عليه

وأدلة تحريمه من الكتاب والسنة

ينقسم الكبر بالنسبة للتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام . كبر على الله تعالى . وكبر على رسله عليهم الصلاة والسلام . وكبر على عباد الله . فأما الأول فهو شر الأقسام وأسخفها لأن الإنسان الضعيف الذي يصصره أضعف الحيوانات لا يليق به أن يتكبر على خالقه العظيم الذي يستمد منه وجوده وبقائه ويحتاج إليه في كل حركة وسكون ومن يحمل قدر نفسه وقدر خالقه فهو من بهيمة الأنعام بل هو أضل سبيلاً كما أخبر الله عن الكافرين - الذين استكبروا عليه - في غير موضع من كتابه العزيز . وكيف يحمل الإنسان قدر إلهه القادر القاهر الذي أبدع العالم على أحسن إحكام وأدق تكوين . وله سبحانه في كل جزء من أجزاء خلقه شاهد واضح الدلالة . وحجة ظاهرة البيان تنطق أنه هو ذلك الصانع الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير . ولقد أرشد الله تعالى عباده إلى دلائل وجوده وقدرته في كثير من القرآن الكريم قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حياً ونباتاً وجنات ألفافاً) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون) وقال تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبأكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) وقال تعالى (أفرأيتم ماتمون أأنتم تتأفونهم أم نحن الخالقون) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إله واحد قادر قاهر لا يهجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا تستغنى - عن تديره وحكمته - مثقال ذرة من تلك العوالم التي رتبها ترتيباً بديع الصنع . وجعل الإنسان أفضل الأنواع وأعلاها قدراً وأكرمها منزلة . فقد ميزه بالعقل والعلم . وفضله بالادراك والمعرفة . وسخر له كل مافي هذا الوجود من شمس وقر ونجوم وسحب وسماء وأرض وماء وهواء وجبال . ونحو ذلك من كل ما ينتفع به الإنسان في كل شأن من شئونه وقد من الله

تعالى عليه بالعقل الذى يرشده إلى استخدام هذه العوالم ويهديه إلى معرفة خواصها ومزاياها . ولولا ذلك ما عاش الانسان طريقة عين . إذ لو انقطع عنه الماء أو الهواء أو الحرارة لانعدم من فوره واصبح كأن لم يكن شيئاً مذكوراً . فهو مدين فى حياته لتلك الأشياء التى خلقها الله تعالى وسخرها له فضلاً منه عليه ورحمة به حتى إذا جاء الأجل الذى قدر له قبضه الله إليه ليعيده الى حياة خالدة مستمرة يسعد فيها المؤمنون سعادة كاملة . ويعيشون عيشة راضية مرضية لاتعب فيها ولا نصب . فن لم يتدبر فى هذه الآيات الواضحة والدلائل القاطعة فهو جدير بأن يكون كالأنعام بل هو أضل سبيلاً .

هذا ولذا ذكر لك تفسير ما يحتاج إلى تفسير من الآية الأولى استعجالاً للفائدة . أما غيرها فانا نرجى الكلام فيه إلى مايتأتى فى مباحث الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله .

فمعنى قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبـال أوتاداً) الخ . قل كيف تنكرون . أو كيف تشكون فى البعث المذكور فى الآية السابقة بعد ما شاهدتم مايدل عليه من قدرتنا التامة وحكمتنا القاهرة التى ترشدكم الى أننا ماخلفناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون (والمهاد) معناه الفراش المهد الموطأ . وهو بمعنى المهد - الموضع الذى يهد للصبي - فقد شبه سبحانه لنا الأرض بالموضع الذى يهد للصبي فيسترى فيه . بجامع أن كلا منهما ضرورى لراحة الانسان فلا يمكنه أن يعيش بدونه ولا يحيا بغيره . ولقد خلقها الله على أتم نظام وأبدع إتقان . خلق الجبال لتحفظ توازنها فلا تضطرب من ثقل ماعليها ولا تميد بأمواج البحار المحيطة بها فكانت الجبال منها كالأوتاد من البيت . ومعنى قوله تعالى (وخلقناكم أزواجاً) أى مزدوجين ذكراً وأنثى وهذا هو طريق التناسل فى الانسان وغيره . ولولاه لما تم بناء العمران ولا وجد الانسان ما يحتاج اليه من فاكهة ونبات وحيوان . بل لم يوجد الانسان رأساً . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) أى موتاً لأن معنى السبات فى اللغة الموت وقد جعل النوم كالموت . فلا ندري كيف تنام وكيف نستيقظ ومهما عرفنا من الأسباب التى تقضى إلى النوم أو اليقظة فانا لا يمكننا أن نعرف ماهية النوم وحقيقته وإذا كنا تنام ونستيقظ فى كل يوم وليلة . والنوم نوع من الموت . فكيف نذكر قدرة الله على إعادةنا بعد الموت أو نشك فى ذلك . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا الليل لباساً) أى ساتراً لكم عن الآعين إذا أردتم اخفاء أمر من الامور أو هرباً من عدو أو غير ذلك . ومعنى (وجعلنا النهار معاشاً) أى وقت معاش تحصلون فيه أرزاقكم . ومعنى قوله (وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً) أى سبع سموات محكمة الصنع قوية الخلق لتتفعوا بما أودعه الله فيها من كواكب وجاذبية تربطها بالأرض التى تعيشون فوقها من غير أن يختل بناؤها أو يفسد نظامها فيقع عليكم منها ما يهلككم فلم يبق لكم أثر . فلو لم يكن خالقها إلهاً قادراً عليها حكماً لعرض على بنائها ما يعرض على الأنبياء من الخلل ويعتورها ما يعتور مثلها من الفساد . وعند ذلك يسقط عليكم منها ما يسرع بهلاككم ويجعلكم أنراً بعد عين . وقوله تعالى (وجعلنا سراجاً وهاجاً) أى أنشأنا الشمس التى تتلألا كالسراج المتلألئ لحاجتكم الضرورية اليها ولولاها ما طاب لكم نبات ولا اثمر لكم زرع ولا ين لكم وجود (والمعصرات) الرياح التى تعصر السحاب فتُمْطر أو هى نفس السحاب وسميت

معصرات — بالكسر — لامعصرات — بالفتح — لأنها تعصر — أى تغيث الناس — من القحط والجذب (والماء الثجاج) المنصب بكثرة يقال ثج الماء إذا سال بكثرة (وألفافاً) مانفة تداخل بعضها بعض .

فمن ذا الذى يرى هذا بعينى رأسه ويكون له عقل يدرك به الضروريات من الأمور ثم يحسد الصانع الحكيم القاهر العليم ولا يؤمن بأنه واحد سميع بصير فيتكبر عليه وينصرف عن آياته ويحدها ظلماً وعتواً ولقد ذم الله هؤلاء بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ذلك لأن الكبر يحول بينهم وبين النظر فى الحق ويدفعهم إلى الاستهانة بالبراهين واحتقار من يلفتهم إليها فتقسو بذلك قلوبهم وتتراكم عليها السيئات فيطاع الله على قلوبهم وينصرفهم عن النظر فى الآيات المنصوبة فى الآفاق قال تعالى (كذلك يطاع الله على كل قاب متكبر جبار) وقال (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) وقال إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (أى صاغرين ذليلين

فمن تكبر على الله تعالى فلم يؤمن بذاته وصفاته أو استكبر عن عبادته فانه سيمر نتيجة كبريائه ذلاً وصغاراً وعذاباً ألماً يوم البعث والنشور فضلاً عما يصيب كثيراً من المتكبرين من الانتقام الدنيوى كما وقع لفرود وفرعون موسى وغيرهم من المتكبرين .

وأما المتكبر على رسل الله فهو كالمتكبر على الله فى نتيجته فان جزاءه الخلود فى نار جهنم لأنهم إنما جاؤا بتوحيد الله وتنزيهه عن كل مالا يليق وهداية الناس الى سبل السعادة فمن استكبر عليهم ولم يؤمن بهم فقد كفر بربه وخسر خسرانا مبيناً .

ولقد قال المستكبرون من قريش (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يريدون الوليد بن المغيرة من أهل مكة وأبا مسعود الثقفى من أهل الطائف . دفعهم الكبر الى أن يطلبوا من هو أعظم رئاسة من النبى صلى الله عليه وسلم لأنه غلام يتيم . وإن كان من أظهر أصلاهم . وأشرف أنسابهم فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) ذلك لأنهم جهلة غلاظ القلوب لم يقدروا الله خالقهم الذى بيده ملكوت كل شىء فهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بدون رقيب ولا محاسب وهو العليم بقلوب عباده فيمنع كل واحد منهم ما هو له أهل والله واسع حكيم

روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر فقال المشركون اطرد هؤلاء عنك فانهم وإنهم قال فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما قال فوقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله فحدث به نفسه فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وروى عن خباب بن الارت « (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال جاء الأقرع بن حابس التيمى وعيينة بن حصن الفزارى فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال وعامر وصهيب وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حقروهم غفلوا به فقالوا إنا نحب أن تجعل لنا ملكاً مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فستحى أن يرانا العرب قعوداً مع هذه الأعداء فاذا نحن جنناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت

قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك كتابا فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ودعا عليا ليكتب فلما أراد ذلك ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربيم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى قوله (فتكون من الظالمين) ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ثم ذكر فقال (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم فدعونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) يقول لا تعد عيناك عنهم تجالس الأشراف (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أما الذي أغفلنا قلبه فهو عبيدة بن حصن والأقرع . وأما فرطا فهلاك . فإذا بلغت الساعة التي كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم ولا صبر أبدا حتى يقوم « رواه ابن أبي شيبة ورواه أبو نعيم .

ومعنى هذا أن هذين الكبيرين من العرب حماهما الكبير والافتة على احتقار بعض هؤلاء المؤمنين لضعفهم من جهة المسال والنسب فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يختصمهم بمجالس لايشتمل على هؤلاء الضعفاء . وفي رواية أنهم يؤمنون به إن فعل ذلك وكان صلى الله عليه وسلم حريصا جد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم ورأى أن هذا لا يضر أصحابه خصوصا بعد أن يدخل هذان معهما فان الدين كفيل بهتذييهما فاجابهما إلى طلبهما . ولكن الله تعالى الذي شرع الدين وهو فوق عباده جميعا . أبى على نبيه ذلك وأعد له أنه لا يبالى بالمتكبرين ولا يحفل بدخولهم في دينه مادامت أنفسهم متأثرة بالعزة السكاذبة واحتقار المؤمنين لأن دينه تعالى قد جاء بالقضاء على هذه الرذيلة ولم يجعل الاحترام وتلو المنزلة ورفعة القدر مرتبطا برفعة النسب أو كثرة المال أو الجاه والاساطان وإنما جعل ذلك مرتبطا بالعلم النافع وتقوى الله تعالى ولذا قال نبيه (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أى مجاوزا عن الحق فكان في ذلك هلاك . وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية وقال عز وجل (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) الآية فصدع نبينا عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى وأبلغ ما أوحى إليه من ربه وذلك شأنه فكل ما أنزل إليه من ربه سواء أكان له أم عليه لانه رسول من عند الله حقا وهو الصادق الأمين حقا عليه الصلاة والسلام .

وأما التكبر على خالق الله فقد علمت أنه من شر الرذائل وأسوأ الصفات لأنه يستلزم مظالم شائعة وجرائم عميقة وقد يغضى به ذلك إلى التكبر على الله تعالى وعلى رسوله لأن الله تعالى نهى عن ارتكاب تلك المظالم وحذره عاقبة شرها فلم يبال به ولم يخش وعيده ولم يخف بطشه وفي ذلك كبر وعتو لأن التبرد على خالق الله تمرد على الله . وأيضا فان المستعظم على عبد من عباد الله لا يصغى لقوله مهما كان حقا مفروضا ولا يدخر مجرودا في رده بالباطل . وهذه أخلاق الكافرين الذين يستكبرون على الله تعالى .

فمن أجل ذلك حرم الدين الكبير ونهى عنه نهياً شديداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من نفاق . ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء » . رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن حديث ابن مسعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقته في النار » . رواه ابن ماجه وغيره .

ومعنى الحديث أن العظمة — وهي هنا كون الشيء كاملاً في ذاته شريفاً من جميع جهاته مستغنياً عن كل ما سواه — وهي عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأن الكبرياء — وهو الترفع عن الانقياد للغير الذي يستلزم الاستغناء المطلق — هو كبرياء الخالق . فهذان الوصفان هما من أخص صفات الله تعالى فلذا شبههما بالرداء والازار فليس من حق العبد الضعيف أن يتصور لنفسه كمالاً على الناس منها أتبع له من منصب أو جاه أو سلطان لأنه لا مناص له من الافتقار اليهم ولا مفر له من النقص الذي يحيط به من كل ناحية وهو عنه غافل وبه جاهل أوله متجاهل . وليس من حقه أن يترفع عن الانقياد للناس . فيجحد الحق ويعرض عن النصيحة أنفة واستكباراً . ومن يفعل ذلك فقد نازع الله في أخص صفاته فأغضبه عليه ومن غضب عليه ربه فإنه يلقى في جهنم ولا يبالي بعظمته الكاذبة وكبريائه الزائف .

وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمركم بأثنين وأنها كما عن اثنين أنها كما عن الشرك والكبر . وأمركم بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرض وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتما وأمركم بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » . رواه احمد والبخاري .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة الكبير والدين والغلول » .

ومعنى الحديث الأول أن لكلمة التوحيد من المسكنة الرفيعة والرجحان عند الله تعالى أكثر مما للسموات والأرض وما فيهن ولها من القوة المعنوية والتأثير مالمثل بالقوة الحسية ثم مثلت له السموات والأرض بحاقة ووضع عليها لقطعها وهو كدبة عن عظم قدرها وقوة تأثيرها عند الله تعالى خالق كل شيء . فمن قالها بقلب خالص وإيمان صادق وقدر معناها حق قدره فادرك أن معنى لا إله إلا الله الغالب على كل شيء والذي لا يغلبه شيء . وأدرك أن ذلك الغالب القاهر فوق عباده منفرد بالتصرف فلا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض ولا يشاركه إله آخر وأنه ليس كمثل شيء فهو واحد في ذاته فليست ذاته مركبة من أجزاء وليس معه إله يشبهه . وواحد في صفاته فليس لاحد من خلقه صفة تشبه صفته لأن كل ما عدها ضعيف . فإن من يمتد منه الوجود لا يكون إلا قديماً لا يحتاج إلى من عده . ومن كان هذا شأنه فصفاته لا تضاهي صفات المحتاجين . وواحد في أفعاله فلا يعارضه في فعله أحد ولا يفعل أحد شيئاً إلا وهو مرجعه ومصدره فالكل إليه راجع والجميع إليه محتاج .

فمن أدرك كل ذلك وتأثرت نفسه به حقاً فإنه لا يعصى ذلك إلا له ولا يخالف له أمراً ولا نهيًا ومن يفعل ذلك فقد ظفر بالسعادة الخالدة وكان عند ربه من المقرين الذين لهم جنات المأوى نزلاً خالدين فيها أبداً

ومعنى كون سبحانه الله صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء أن هذه الصفة هي دعاء جميع المؤمنين من المخلوقات فالصلاة معناها الدعاء ومعنى سبحانه الله تنزيهه الله عن كل مالا يليق به وهو أما أن يكون باسان المقال أو باسان الحال كما قال تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ففى كل شيء من خلقه آية تدل على أنه الواحد . وبها يرزق كل شيء لأن وسائل الرزق الموجودة فى الحياة إنما هي من الله ولا تنال الا بمعونة الله فلو لا أن الله خلق فى الانسان القوة على العمل والقدرة على التفكير وأنزل له الماء الذى يذبت الزرع وخلق له البذر الذى يغرسه وهياً له الوسائل التى يعمل بها ما استطاع أن يظفر بلقمة واحدة من الرزق وهكذا

ولا ريب فى أن من تمسك بتلك الوسائل التى خلقها الله تعالى لحصيل الأرزاق واستعان بحمده استعانة خالصة فإن الله تعالى يسمل عليه الحصول على رزقه ويعينه على ذلك وهو خير الرازقين وسيأتى فى الواجبات الدينية تنمة لهذا الكلام ان شاء الله

علاج الكبر

قد علمت ان الكبر من الصفات النفسية المرذولة الضارة بالمجتمع والأفراد ضرراً عظيماً فلهذا كان علاجها فرضاً لازماً ومحاربته امرأً مقضياً فى نظر الدين والعقل . فمن وجد من نفسه اثرأً لتلك الصفة فإنه مطالب بعلاجها والقضاء عليه بكل الوسائل الممكنة . وامضى سلاح يقضى على هذه الرذيلة أن يعرف الانسان قدر نفسه ويدرك أنه فى حقيقة أمره أضعف من الهباء واقل بجشاً من أصغر الحيوانات حتى أنه ليقتل بالحيوانات الضئيلة — المكروبات — التى لا ترى الا بالمنظار الذى يكبرها اضغافاً مضاعفة وأن ينظر الى مبدئيه ونهايته نظرة مجردة عن الغرور والكاذب كى يسمل عليه احتقار العوارض التى عرضت له فيما بين ذلك من جاء أو مال أو سلطان أو نسب أو علم أو غير ذلك فإنه اذا تأمل فى أمره أقل تأمل يعلم أنه مخلوق من نطفة قدرة تنقذ النفس من رؤيتها ثم تطورت الى قطعة دم ثم الى قطعة لحم تعافىها الانفس وتمجها الطباع ومهما كمل خلقه وعمر فى تلك الحياة فإنه لا بد من فناءه وموته فيصبح جيفة قدرة وتراها يطؤه الناس والدواب ومن كان فى اوله نطفة قدرة وفى آخره جيفة وتراها لا يليق به أن يفتر بما بين ذلك من العوارض الزائلة والعاريات الداهية على أن كل شيء يصح للانسان أن يفخر به ويتعاضم بسببه انما هو عرضة للزوال فى حياته . فان كان سبب الكبر وفرة المال فكم من صاحب مال أصبح فقيراً بعدما يتكفف الناس . وان كان سببه الجاه والسلطان فكم من صاحب سلطان ذهب سلطانه وأصبح ذليلاً مهاناً . وان كان سببه القوة فكم من قوى أصبح ضعيفاً . وان كان بغير ذلك من الصفات المعنوية التى تلازم الانسان فى حال حياته كالنسب والعلم . فانك

قد علمت أن هذه الصفات تكون كالعدم اذا لم يتجمل صاحبها بالفضيلة وأن الكبر هو أشد الرذائل التي تذهب بمحاسن تلك الصفات وتقضي عليها . فمن اغتر بنفسه وتكبر على الناس فقد هدم ذلك النسب من أساسه وقضى على فضل آبائه وأجداده شر قضاء لأن الحمد وتكريم الناس لا يكسبان بالأنساب وحدها بل يكسبان بالتمسك بالفضيلة واجتناب الرذيلة . وكذلك ما عند الله من منزلة فانه لا يكسب بالأنساب . لهذا قال الله سبحانه (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) نعم ان للأنساب فضلا في تكوين خلق الانسان . فمن كان من أصل طيب وعصر كريم كانت أخلاقه حسنة وصفاته كريمة . ومن أجل ذلك تحترم الأنساب ويكون لصاحبها فضل على غيره . ومن اغتر بعلمه فقد قضى على نفسه وأضاع ثمرة علمه وأسخط عليه ربه وهو عالم به فكان وزره مضاعفا وجريمته أشد وما أقبح التكبر من العلماء الذين هم قدوة للناس وسند لهم في اعمالهم

فاذا أدرك المرء كل ما تقدم وأيقن أن كل شيء في هذه الحياة صائر الى الزوال ومته الى الفناء وانه مهما عظم امره فانه لا يخرج عن كونه انسانا مخلوقا من ماء مهين وعما قليل سيكون جيفة قدرة وعظاما بالية قترابا يداس بالاقدام فان ذلك يزجره عن التكبر كل الزجر وينهاه عن احتقار خلق الله وايدائهم . ولقد أشار الله عز وجل الى حالات الانسان المذكورة وعجب من كبريائه عليه ودعا عليه بأشنع الدعاء فقال (قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خاقه فقدره ثم السيل يسره ثم أماته فافبره ثم اذا شاء انشره)

فقوله تعالى قتل الانسان دعاء عليه بأشنع الدعاء وما أكفره تعجب من الافراط في الكفر واعراض الكافر عن معرفة ربه وعن معرفة نفسه مع وضوح الأدلة وظهور البراهين ولقد دلت الجملة الأولى على استحقاق هؤلاء الكافرين لأشد أنواع العقاب وهو القتل عرفا . ودلت الجملة الثانية على أنهم انصفوا بأعظم انواع القبائح والمنكرات شرعا وان ذلك الأسلوب لهو من أبدع الأساليب واعلاها بلاغة فان هاتين الجملتين مع قصرهما وإيجازهما قد اشتملتا على نهاية الذم وشدة السخط . ولم يسمع التعبير بمثل ذلك قبل نزول القرآن الكريم . وقوله تعالى من أي شيء خلقه الخ استفهام توبيخ وتحقير هؤلاء الذين يغفلون عن اوضح الدلائل ويتجاهلون اكبر النعم التي انعم الله بها عليهم فيقابلون ذلك بالكفران اذ كيف يصح للانسان ان يغفل عن مبدأ تكوينه وخلقته فانه لم يكن شيئا مذكورا ثم من الله عليه بنعمة الوجود فقدره في احوال متعددة واطوار كثيرة فمن نطفة الى علقه الى مضغة الى عظام ثم انه سبحانه كسا تلك العظام لحما ثم انشأ خلقا آخر وبشرا سويا فبرز الى الوجود ضعيفا كل الضعف لا يقوى على شيء ولا يدرك شيئا سوى ما فطره الله عليه من إلهام يدرك به الآلام وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فسخر له من يحبو عليه حنوا زائدا ويعطف عليه عطفا شديدا فيرضى لرضائه ويغضب لغضبه ويسر لسروده ويحزن لحزنه لا يرضن عليه بتضحية ولا ييخل عليه ببذل يسر على راحته ويحتمل من أجله المشاق والآلام فلا يستقدر منه فضلة ولا يكره منه عويلا ولا يصرفه عنه أنين ثم يسر الله له سبيل الحياة الدنيوية والأخروية . فيبين له الطريق المستقيم التي ينجو من سلكها ويظفر بالسعادة الدائمة . ويبين له طريق الفجور والضلال

التي يشقى من سلكها ويكون جزاؤه العذاب الأليم . وميزه بالعقل الذي يدرك به الطريق فيختار ما هو أنفع له ويجتنب ما هو ضار به ثم انه جعل له زاجرا يزجره عن سلوك طريق الفنى واتباع الشهوات الفاسدة وهو الموت والفناء فان فيه اكبر عظة لمن يريد أن يتعظ واكبر عبرة لمن يريد ان يعتبر والله در من قال فى رثاء استاذ له

كفى حزناً بدفكك ثم انى * نفضت تراب قبرك من يديا

وكنت وفى حياتك لى عظام * وأنت اليوم أو عظم منك حياً

وذلك حق لا شبهة فيه لأن عظة الموت بالغة مستمرة تقضى على كل لذات الدنيا وآمالها عند من تتأثر بها نفسه . وتزجر الناس عن ارتكاب الموبقات والجرائم ان كانوا يؤمنون بلقاء الله وعذابه وإنه لواقع ماله من دافع لذلك قال تعالى (ثم امامته فاقبره) ومعنى فاقبره شرع فى دفنه ليتوارى جثمانه تكريماً له واحتراماً اياه ثم اذا شاء بعثه وإعادته للحياة الخالدة فى اليوم الموعود بعثه وأحياه وعند ذلك ينال جزاء ما قدمت يده من خير وشر . فاذا كانت الانسان على هذه الحالة ولم يعتبر بها ويتكبر على الله تعالى فلا يؤمن به ويتكبر على خلق الله تعالى ويحتقرهم فهو كالانعام بل هو اضل سبيلا

مضار العجب

قد علمت ان العجب هو استعظام النعمة مع عدم اضافتها الى المنعم وأنه احد اسباب الكبر وقد بينا لك بعض مضار الكبر ومفاسده الكثيرة الضارة بالمجتمع وبالافراد . فمن اجل هذا كان العجب مذموماً على ان العجب سبب ايضا فى الانصراف عن الحق واهمال كثير من صفات الكمال وهجر التربة الصحيحة لأن المعجب بامر من الأمور لا يحب ان يعلم فيه جهة نقص ولا يطبق أن يعرف عنه ذماً فهو مفتن به دائماً فاذا أعجب بعلمه مثلاً فانه يقف عند الحد الذى اعجب به لأنه يعتقد فيه الكمال فيستمر جاهلاً بكثير من الحقائق العلية وربما انتهى به العجب الى اعتقاد الخطأ صواباً والصواب خطأ ولا يستطيع احد أن يصرفه عن ذلك أو يقنعه بالحق مهما حاول من وسائل الاقتناع واذا أعجب بولده فانه لا يستطيع أن يسمع عنه تقيصة ولا يرضى لأحد أن يدلّه على موضع ضعف فيه فيذره يتماهى فى شهواته حتى تصبح داء عضالاً لا يمكن علاجه واذا اعجب بقوته عند لقاء الخصم فان ذلك قد يسوقه الى الهلاك لانه يتأثر بعجبه فيترك وسائل الدفاع المشروعة ويبقى حفته جهلاً وغروراً . واذا اعجب بماله حمله على الطغيان على خلق الله واذلالهم كما مر فى مبحث المسال

فالعجب بهذا المعنى شر على كل حال . وليس من العجب أن يستعظم الانسان نعمة من النعم التي انعمها الله عليه مع اضافتها له سبحانه فانه اذا ادرك ذلك المعنى وتحقق من ان الله هو المنعم الحقيقي

أو هو الذى أجرى النعمة على يد عبد من عباده فانه لا يترتب على ذلك اثر من الآثار الضارة بل قد يكون ذلك مطلوباً اذا ترتب عليه شكر المنعم والفرح بنعمته

فان الذى يعرف ان الله هو الذى رزقه نعمة العلم لا يستكف أن يستزيد منه لان الله تعالى يقول (وفوق كل ذى علم عليم) ومن أيقن أن الله هو الذى منحه العقل الذى يدرك به لا يحجم عن الاصغاء للحق ولا يستكبر عن الانصراف عن الباطل . وكذا من علم أن القوة من الله أو الولد الصالح نعمة من نعمه فانه يدرك أن هذه من الامور التى تعرض لها الزوال فلا يغتر بشيء من المظاهر ولا يأتى أن يستمع للدليل والبرهان وهكذا

ولقد ذم الله العجب فى كتابه العزيز قال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فقد أنكر الله عليهم إعجابهم بقوتهم حيث قال بعضهم إنا لن نغلب من قلة . وقال تعالى (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فهم قد أعجبوا بقوة تلك الحصون وانصرفوا عن التفكير الصحيح فأفضى ذلك إلى هلاكهم .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبرانى وغيره . وقال عليه السلام لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك » رواه أبو داود والترمذى وحسنه ومعنى قوله — حيث ذكر آخر هذه الأمة — أى حيث تكلم عما تؤول اليه من الحوادث والوقائع فأرشدهم عليه السلام الى ما تكون عليه الحالة من السوء بهذه الامارات وهو أن يكون الشح مطاعاً فيكثر بين ضعاف الأنفس غلاظ القلوب لأنها تصبح لكثرة ما تراكم عليها من الذنوب خاضعة لكل صفة من الصفات المردولة . ومتى أصبح الشح مطاعاً فقد تقطعت صلات المودة بين الناس وذهب التراحم وانقضت مواساة بعضهم بعضاً . وذلك شر وبيل كما تقدم فى مبحث الشح . وكذلك اذا اتبع الناس أهواءهم فانت الفضيلة عند ذلك تختفى وتحل محلها الرذيلة ويضيع الحق ويقوى الباطل لأن أهواء الناس إنما تتبع شهواتهم ولذاتهم سواء أكانت حلالاً أم حراماً . يقرها العقل أو يأبأها . وذلك آية القوضى وأمارة الفساد .

وأما العجب فقد بينا لك أهم ما يترتب عليه من المضار . فاذا وجدت هذه الأمور الثلاثة فالعقل من يشتغل بنفسه ويتبعد عن هذه البيئة الفاسدة لأن علاجها غير مجد وإرشادها لا يفيد .

الغرور

هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع لشبهة فاسدة . فبسبب الغرور في الواقع هو حب الشهوات والميل مع الاهواء والأغراض إلا أن المغرور يبرر إطاعة شهوته بدليل يقنع به نفسه ويسكنها الى عمله ولما كان الحق واضحاً في كل آن . وكان الضار والنافع بينا عند العقل كان دليل المغرورين شبهة فاسدة دائماً لا تحتاج في بطلانها إلا للمجرد لفت وتنبية . ولقد يعجب العقلاء من شبه المغرورين وأمانتهم كما ستعلم من الامثلة التي سنوردها عليك . ويضحكون منها . هذا ومناسبة الغرور للكبر والعجب ظاهرة لأن كلا منهما يقضى الى الاعراض عن الحق والميل مع الاغراض والشهوات الا أن الكبر هو العظمة الناشئة من اعتقاد الرفعة على الغير . والعجب هو استعظام النعمة واعتقاد أنه أهل لها في ذاته مع جحد فضل المنعم وانكار أنها منه . والغرور هو الميل الى ما يشتهى لشبهة فاسدة وكل من هذه الصفات الثلاث مذموم مردول لما يترتب عليه من الاعراض عن الحق والميل مع الهوى

اقسام الغرور

ينقسم الغرور الى اقسام

اولاً : الغرور بالعلم كأن يتعلم المرء علوماً كثيرة تتعلق بالدين والدنيا فيعتقد أنه قد أصبح عند الله بمكانة عظيمة ومنزلة كبيرة لأن تعلم العلم فضيلة لا يعذب الله معها العلماء فتسكن نفسه الى ذلك ويهمل العمل الذي يقتضيه العلم ويفعل ما تصبو اليه نفسه من اللذات . فسكون نفسه الى ما يلائم طبعه من ترك العمل واتباع الشهوات لشبهة أن العلم فضيلة في ذاته وهو كاف في النجاة غرور شديد وجهل عظيم بالواقع . لأن العلم لم يمدح الا لما يترتب عليه من صلاح المجتمع ومنافع الانسان اما مجرد الحصول على المعلومات بدون تلك الفائدة فانه يضر أكثر مما ينفع خصوصاً اذا كان العالم قدوة للناس فانه يكون شراً وبالاً عليهم كما علمت مما مضى . ذلك لان الناس يكونون معه على حالتين احدهما اعتقاد أن ما يفعله العالم يقره الشرع ويرضاه الدين وهذا الحسن ظنهم بعلمائهم ونزاهة عقيدتهم فيهم . وذلك فتنة في الارض وفساد كبير لانه يكون سبباً في اغواء الناس واضلالهم حتى جعلهم يعتقدون أن الحرام حلال وأن الباطل حق . ثانيها اعتقاد أن الذي يفعله لا يرضاه الشرع ولكن ما دام العالم قد أقدم عليه وفعله فلغيره المعتبر اذا فعل . أو لعل العالم يعلم أن في الامر رخصة فلم يكن الذنب شديداً وبذا يسهل على الناس ارتكاب الجرائم اقتداء بذلك العالم

وقد ورد في السنة الكريمة احاديث كثيرة في زجر بعض العلماء الذين لا يعملون . فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أسامة بن زيد رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى النار فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك ألسنت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأناكم عن الشر وآتية » . قال واني سمعته يقول . يعنى النبي ﷺ «مررت ليلة أسرى في باقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار قالت من هؤلاء يا جبريل قال خطباء أممك الذين يقولون مالا يفعلون » ومعنى — تندلق أفتابه تخرج أعضاؤه — . وكفى بهذا الحديث زجراً لعلماء السوء الذين يقولون مالا يفعلون ويأمررون ولا يأترون . كفى به موعظة تدمى القلوب وتذيب الأكباد وتفرح الجفون . كفى به نهياً لمن اغتر بعلمه فاهمل ما يجب عليه لمولاه ورضي لنفسه أن تكون أسيرة الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة . كفى به تنذيراً للعلماء الذين خرجوا عن طاعة الله وتعدوا حدوده غرورا بالعلم وهم أحق الناس بتمحيص الأدلة وأقدرهم على معرفة الصحيح والفاقد منها . الا ان العلم لا ينفع بدون عمل فاذا ما أهمل العمل به كان شرأعلى صاحبه وعلى عباد الله تعالى ومن أجل ذلك استعاذ منه نبينا عليه الصلاة والسلام حيث قال «اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان أناسا من اهل الجنة ينطلقون الى أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم فيقولون انا كنا نقول ولا نفعل » رواه الطبراني في الكبير

فإذا يكون حال ذلك العالم اذ ذاك . أليس في ذلك من الخزي والعار والفضيحة ما يكفى في العذاب حتى ولو لم تكن نار ولا سمير . أليس في هذا دلالة على أن هؤلاء الذين لم يطلعوا على سيئاته فلم يقلدوه فيها ودخلوا الجنة بما تعلوه منه من فضائل الدين لو أنهم اطلعوا على تلك السيئات فقلدوه فيها كانت حالتهم على العكس من ذلك وكان هو معهم كن أخبرنا الله عنهم بقوله (وقالوا إنا أطلعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

فاللائق بالعلماء أن يذكروا ذلك جيداً وأن يحاربوا أنفسهم وشهواتهم بحاربة شديدة فان الله تعالى قد من عليهم بنعمة العلم الذى هو أحسن صفات الانسان وأجلها قدراً كما تقدم في أول الكتاب وليذكروا دائماً أن منزلتهم عند الله عظيمة وأنهم أحق الناس بخشيته والقرب منه فقد قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما يخشى الله من عباده العلماء » رواه الطبراني في الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا مامونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » رواه الترمذى وغيره وقال حديث حسن . وكفى بذلك مدحاً للعلم والعلماء الذين يخشون ربهم ويقدرونه حق قدره فلا يبالون بأعراض الدنيا ولا يحفلون بلذاتها المحرمة وشهواتها الفاسدة اذ هم أحق الناس بذلك وأقدرهم على زجر أنفسهم وتأديبها . وعلى الناس أن يحلوا علماءهم ويعرفوا لهم قدرهم ولا يحل لهم أن يستهينوا بدينهم اقتداء بعالم مغرور فان الحلال بين والحرام بين والناس جميعا مسئولون امام الله تعالى فمن استهان بكبيرة

اقتداء بعالم لم ينف عنه ذلك شيئاً بل لا بد أن يعذبه الله عليها عذاباً أليماً . فعلى الناس أن يعملوا بما يسمعون من العلماء وليس لهم أن يقلدوهم في أعمالهم التي تخالف أفعالهم في الدين فلقد سمعت من الحديث السابق أن أناساً دخلوا الجنة بما تعلموه من عالم دخل النار . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنى أخاف على أمتي أن يروا ذا علم فيضيعونه ولا يباليون عليه » من حديث رواه الطبراني في الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه » رواه الطبراني في الأوسط

والله المستول أن يصلح من أنفس المغرورين ويهديهم إلى اتباع الحق ونبت الباطل ويوفق الناس إلى التأدب بأداب الدين إنه سميع مجيب

ثانياً : الغرور بالعبادة فإن بعض العباد قد يقترب ببعض أعماله فيعتقد أنها كافية في نجاته وأنه لا يخرج عليه إذا ارتكب بعض الموبقات كالخسد والحقد والغيبة والاضرار بالناس وما إلى ذلك فتسكن نفسه إلى ما يهواه من الاتصاف بهذه الصفات لتلك الشبهة الفاسدة وهي أن ما يأتي به من صلاة وصيام وتلاوة أو راد وأدعية كاف في نجاته ومكفر لتلك الجنايات . وهذا مغرور أئيم قد زين له الشيطان الشبهة الفاسدة ليورده موارد الهلاك والخسران وربما حبط لذلك عمله من حيث لا يدري لأنه قد يسوقه ذلك إلى أنه يأتي ببعض أنواع العبادة في نظير ارتكاب ما يحلوه من اللذات والشهوات كي تكفرها وتذهب بأثمها فلم يكن مخلصاً لله تعالى في عمل إذ لولا ذلك لقعد عن العمل رأساً وهذا محبط للعمل مضاعف ثمرته . ومن يفعل ذلك فهو جاهل بالدين وأحكامه فلقد بين الدين ذلك بياناً شافياً قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

وقال عليه الصلاة والسلام « الناس مجزيون بأعمالهم ان خير خفيروا ان شر فشر » فمن أدى واجبا من الواجبات الدينية على وجه صحيح خال عن الاغراض الفاسدة فإنه ينال جزاءه خيراً ومن قصر في أداء واجب أو أداء لغرض فاسد أو ارتكب أمراً نهاه الله عنه فإنه ينال عليه عقاباً ولا علاقة لكل واحد بصاحبه فهذا يعاقب عليه وذاك يثاب عليه . وهذا هو العدل الكامل الذي يرضاه العقل وتستريح له النفس فليس من العدل أن من يرتكب جريمة يخلد بها في النار ويضيع عليه كل ما فعله من حسنات - كما يقول بعض الناظرين - كما أنه ليس من العدل أن يعتدى المرء على حقوق العباد أو يهمل بعض حقوق الله في نظير أن يصلي كثيراً أو يصوم كثيراً أو يقرأ كثيراً - ذلك هو الدين الصحيح والحق الصريح وما عداه فهو جدل ومراء . والآية تدل بعمومها على أن الكافر الذي يعمل الحسنات يثاب عليها وهو يعارض قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقوله تعالى (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية . فهذه الآيات صريحة في أن أعمال الكفار لا يثابون عليها وقد أجيب عن ذلك بجوابين . أحدهما أن الله تعالى يجزيهم بتخفيف العذاب عنهم ويعارض هذا قوله تعالى (فلا يخفف عنهم العذاب) وقوله تعالى (زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) والجواب أن الذين لا يخفف عنهم العذاب والذين يضاعف لهم العذاب هم الذين لا يعملون الصالحات ولا يؤدون ما هم مكلفون به من الواجبات وقوله تعالى (وقدمنا

الى ما عملوا من عمل لمعلمناه هباء منثوراً) معناه أنه لا يفيدهم في محو الخلود عنهم ولا ينجمهم من عذاب الكفر . أما التخفيف فقد ثبت بالسنة الصحيحة فقد ورد أن أبا لهب يخفف الله عنه العذاب لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وعتقه لجاريته ثوية حين بشرته بذلك .

ثانيهما . أن الله يجزيهم على الأعمال الصالحة في الدنيا . فالؤمن يرى جزاء عمله في الدنيا والآخرة والكافر يراه في الدنيا فقط . وقد ورد ما يدل لذلك في السنة . وكما أن الآية تدل على أن الكافر يجزى على حسناته خيراً كذلك تدل على أن المؤمنين يعاقبون على الصغائر لأن مثقال الذرة يتناول الصغيرة حتماً مع أن الصغائر تكفرها الصلاة واجتناب الكبائر كما سيأتي قريباً . والجواب أن الصغائر يجزى عليها فاعلها شرأ إذا لم تكفر . وقد استثناه الله تعالى بقوله (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه) وبقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) فهي خارجة من العموم بذلك . على أنه يصح أن يقال إن أعمال الكافر الحسنة خارجة من العموم بالآيات الأخرى وبقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فدل ذلك على أن من يعمل مثقال ذرة من الخير يرى ثوابه في الآخرة إن كان مؤمناً لا كافراً ولكن إذا كان الجمع بين الآيات ممكناً بالتأويل القريب الذي لا تكلف فيه وكان في السنة الصحيحة ما يقتضي ذلك كان من الحسن أن يرجع إلى التأويل خصوصاً إذا كان العقل يؤيده فإن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يظلم أحداً شيئاً . فالأعمال الصالحة الصادرة من الكفار يجزون عليها خيراً في الدنيا ويخفف عنهم بها في الآخرة وقد اتفق العلماء على أنهم مكلفون بالمعاملات والجنائيات وإن اختلفوا في تكليفهم بغيرها . ولا معنى لتكليفهم إلا عقاب من تركها وثواب من عمل بها والثواب هو تخفيف العذاب عنهم والعقاب هو زيادة العذاب . فأما التخفيف فيدل له ما تقدم من الأحاديث الصحيحة . وأما الزيادة فيدل لها قوله تعالى (زدناهم عذاباً)

فإذا فهمت ذلك على وجهه الصحيح وعلمت أن لكل عمل جزاء . كان من الغرور أن يعمل الإنسان عملاً ليستغنى به عن غيره . نعم قد ورد في الصحيح أن بعض العباد كالصلاة والصوم والصدقة تكفر الذنوب ولكن التحقيق على أنها تكفر الصغائر . أما الكبائر فانها لا تكفر إلا بالتوبة . والتوبة بالنسبة لحقوق العباد هي التحلل من المظالم بأن يرد إليهم حقوقهم التي اعتدى عليهم فيها أو يسامحونه وسيأتي بيان ذلك في مبحث التوبة في الجزء الثاني إن شاء الله

يدل لذلك ما رواه مسلم من رواية أبي العلاء « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر » وقد فسر هذا الحديث على وجهين . أحدهما أن الصلاة تكفر الذنوب الصغائر التي تقع في المدة التي بينها وبين الصلاة الثانية وهكذا . ولا تكفر الذنوب الكبائر وهذا لا اعتراض عليه إلا أنه خلاف الظاهر من الحديث لأنه ظاهر في أن اجتناب الكبائر شرط في التكفير .

ثانيهما حمل الحديث على هذا الظاهر وهو أن اجتناب الكبائر شرط في كون الصلاة مكفرة . وهذا يرد عليه أن اجتناب الكبائر وحده يكفر الصغائر كما يدل عليه قوله تعالى (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم) فإذا يكفر بالصلاة بعد هذا . وأجيب بأنه لا مانع من أن يكون للذنوب الواحد مكفران فأكثر . فإن وقعت مترتبة كان التكفير بالسابق منها . وإن وقعت

دفعه واحدة فانه يكفر بما يشاء منها ويزيد للعبد في ثواب ما فيها بمقدار ما يكفر من الصغائر لو وقعت .

فعلى هذا من اجتناب الكبائر وصلى آمن شر الصغائر بالسيئين . أما اذا فعل أحدهما فانه لا يكفيه في تكفيرها لانه اذا صلى مع ارتكاب الكبائر فصلاته لا تكفر الصغائر لاخلاله بالشرط . وان اجتنبت الكبائر ولم يصل لم يكن مجتنباً للكبائر لأن ترك الصلاة من أكبر الكبائر . وهل اجتناب الكبائر كاف في تكفير الذنوب الصغائر من غير توبة أولاً خلاف . والظاهر أنها كافية بدون توبة لأن التوبة تكفر الكبائر والصغائر بلا نزاع فما معنى ككون الصلاة أو اجتناب الكبائر مكفر بعد هذا

وقد استدل من يقول بأن التوبة شرط بما روى معناه البخارى من أن رجلاً من المسلمين كان في السوق فرأى امرأة تبتاع تمرأ فنظر اليها فأعجبته فقال لها ان عندي في دارى تمراً جيداً بثمان بختس فخدعت المرأة بقوله وذهبت معه فلما اختل بها أهوى الى فيها فقبلها ثم تنبه الى خطورة الحالة وأدرك عظم الجريمة فخرج قاراً من المنزل وهو وجل من عقاب الله تعالى لايئناً له عيش ولا يطيب له نوم وكذلك كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فان خشية الله تعالى كانت ملق قلوبهم . فن غابت عليه شهوة تضيق الدنيا في وجهه ولا يرضى حتى ينال جزاءها في دار الدنيا . فذهب الرجل الى أبى بكر فقص عليه القصة فأمره أن يتوب ويستغفر ولا يخبر النبي ﷺ بخبره فلم تسكن نفسه لذلك وذهب الى عمر فأخبره الخبر فقال له مثل ما قال أبو بكر فلم تطب نفسه فذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم وقص عليه الأمر فقال له النبي عليه الصلاة والسلام أهكذا تخاف غازيا — في سبيل الله — في أهله وقد كان زوج هذه المرأة من الغزاة فتعنى الرجل عند سماع هذه الكلمة أنه يكون من المعذبين في النار ولا يزل هذه الزلة فنزل قول الله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل أهذا خاص بى أو هو عام لى ولغيرى من المسلمين فقال له النبي ﷺ بل هو عام لجميع المسلمين .

فلا شك في أن الرجل قد ندم أشد الندم وتاب توبة نصوحاً . وهكذا كل من أقدم على عمل كبيرة وياشر مقدماتها ثم خاف الله تعالى وكف عنها فان الله يغفر له ما عمله من المقدمات . فن عزم على اتيان امرأة وقبلها أو لمسها ثم أدرك عظم الجريمة فكف عنها خوفاً من الله تعالى كانت ذلك حسنة تمحو ما فعله من القبلة والامس أما اذا كف رغم أنه أو لم يجزه عن اتيانها فان هذا لا يكفر كما تقدم فيما يعفى عنه من وساوس النفس وسيأتى له بقية في مبحث التوبة .

هذا ما احتج به القائلون باشتراط التوبة في تكفير الصغائر وهو لا يتج لان لا يلزم من أن ذلك الصحابي قد ندم ندماً شديداً على ما فرط منه ظناً منه أنه قد جنى جناية عظيمة أن يكون ذلك شرطاً في كل من يرتكب صغيرة بدليل آية (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) وحديث مسلم السابق فانها صريحان في أن الصلاة تكفر الصغيرة وأن اجتناب الكبائر يكفرها ولم يرد للتوبة ذكر فيهما .

ومعنى قوله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار) أى أد الصلاة المفروضة في وقتها . وطرفا النهار

صلاة الصبح وصلاة العصر وقوله تعالى (وزلفا من الليل) معناه وطائفة من الليل وهي المغرب والعشاء لأن الزلف جمع زلفة - بضم الزاي - وهي جزء من الليل . وقبل الزلف الساعات جمع زلفة وهي الساعة . ولا ريب أن في ذلك حثا على أداء جميع الصلوات المكتوبة في أوقاتها . فمن صلى الصبح والعصر والمغرب والعشاء في أوقاتها فإن يفوته بعد ذلك صلاة الظهر فلا حاجة لتكافئ يجعل طرفي النهار يشمل صلاة الظهر أيضا . يعني الصبح والظهر والعصر . لأن الظهر وسط النهار لا طرفه

ومن الغرور بالعبادة ما يفعله بعض الجهلة من اظهار العناية بحضور مجالس الذكر وقراءة الأوراد والصلوات ونحو ذلك . وفي الوقت نفسه يهملون حضور مجالس العلم مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم « من حديث رواه ابن ماجه وغيره فهم يتركون الفرض الذي يعاقبون على تركه ويحرصون على ما لم يكلفوا به ولو بحثت حقيقة نفوسهم لوجدتهم أنما يحفلون بما يشتمون من رقص وطرب ونحو ذلك . فهم انما يفعلون ما تسكن اليه أنفسهم ولا يعدمون شبهة يبررون بها عملهم وهي أنهم انما يحضرون مجالس الخير والعبادة فلم على ذلك أجر ولو أنهم كانوا يحرصون حقيقة على الأجر والثواب ويرغبون في مرضاة رب العالمين لفعلوا ما ينرض عليهم من طلب العلم الذي كان أسلافهم يرحلون في طلبه الى أقصى الجهات ويتحملون مشاق الأسفار وألم الحرو البرد . ولكنهم يتعمدون هجر مجالس العلم التي أصبحت قائمة في كل مسجد وفي كل بلد ثم هم يسرعون الى حضور الذكر ويظنون أنهم بذلك يعبدون الله . أليس عجيبا أن يقع هذا من المسلمين . أليس عجيبا أن تدخل المسجد فتري المدرس جالسا وحده فلا يجد واحدا يرغب في تعلم ما يجب عليه من دينه ويرضى لنفسه أن يستمر جاهلا . فاذا ما وجدوا هينة أو ضجة طاروا لها فرحا . أليس عجيبا أن يجدوا من يحرص على تهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم ثم يفرون منه فرار السليم من الأجر . ألم يسمعوا قول النبي ﷺ « ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم الا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع » رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه والحاكم . وقوله عليه الصلاة والسلام « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي وقال حديث حسن . وقوله عليه الصلاة والسلام « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » من حديث صحيح رواه مسلم وغيره

فهل لهؤلاء المغرورين معذرة بعد هذا . هل لهم أن يعملوا أنفسهم بالأماني الفارغة بعد ما ظهر لهم من البراهين القاطعة والأدلة الواضحة . فهذا هو قول نبينا عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الأمين وهذه هي تعاليمه الرشيدة تأمر الناس بتعلم العلم وتحثهم على الخروج من أسر الجمل . فانه عيب قاضع وشر لا يرضاه لنفسه الا أخس الخلق وأحقهم الذي هو أقرب شباها الى الحيوان الانعجم منه الى الانسان . فاذا لم يكن في تعلم العلم سوى الخروج من عار الجهل ليكفي به فائدة تبذل من أجلها الأموال وتضحي في سبيلها الراحة . فما ظلك اذا اقترن بتلك الفائدة ذلك الانجر العظيم

والتواب الجزيل الذى أعد الله لطالب العلم . أليس فى ذلك ما يبعث هؤلاء الذين قست قلوبهم وعصيت بصائرهم الى ترك الاثم وهام الفارغة والتمسك بالوسائل النافعة التى تفضى بهم الى سعادة الدنيا والآخرة . هل لهم أن يعصوا شهواتهم وشياطينهم ويطيعوا الله ورسوله فيسمعوا ويعملوا ما فيه خيرهم وفلاحهم .

اللهم انا نسألك أن توفق عبادك الى ما فيه رشدهم وصلاحهم انك سميع الدعاء

ثالثا : الغرور بانفاق المال كأن ينفق جزء منه فى بعض أعمال البر التى يميل اليها طبعه وتشتبهها نفسه ويمسك عن الأعمال الواجبة عليه ديناً وعقلاً كما اذا كان يشتبى بناء مسجد أو معهد أو مصحح يخلد له ذكره ويحفظ له اسمه ويزيد فى احترامه بين الناس . وفى الوقت نفسه يترك زكاة ماله المقروضة عليه أو يقصر فى الانفاق على أهله ويهمل صلة رحمه أو يجد اليتامى والمساكين من جيرانه وقبيلته يتضورون جوعاً فلا يعطف عليهم بما يسد رمقهم . ولا ريب فى أن هذا مغرور لأنه فعل ما تسكن له نفسه ويميل اليه طبعه لشبهة فاسدة . وهو أن ما فعله بر وخير يغنيه عن باقى الواجبات ويكفى لنجاته عند الله تعالى مع أنه لم يفعل فى الحقيقة الا ما يرضى شهوته من أمر لم يكلف به وضعى الواجب عليه الذى لا بد أن يسأل عنه يوم تبلى السرائر . ولقد قلنا لك فيما تقدم ان التكاليف الشرعية لا يغنى بعضها عن بعض . ولا يكفر بعضها بعضاً الا ما نص عليه الشارع من ذلك . فانفاق المال له جهات أمر الشارع بانفاقه فيها كزكاة المال والنفقة على الزوج والوالد والأهل وكالكفارات التى قدرها الشارع فى باب الصيام والايمان والنذور ونحو ذلك على أن يكون انفاقه طبقاً للنظام المبينة فى الفقه الاسلامى أحسن بيان فاذا تعدى تلك النظم كأن أنفق المال فى غير حقه فانه لا يرفع عنه شيئاً من المسئولية عند الله تعالى

فن بنى مصححاً أو شيد مسجداً أو معهداً من مال حلال ولم يظلم فى ذلك أحداً من عباد الله . فقد فعل خيراً كثيراً يؤجر عليه بنسبة فائدته للمجتمع الانسانى أو لجماعة من عباد الله . ولكن هذا لا يرفع عنه عقوبة ظلم الناس فى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ولا يكفر عنه شيئاً منها كما لا يرفع عنه شيئاً من حقوقهم المتعلقة بزكاة المال أو الانفاق من المفروض عليه لهم . وانما يرفع حقوق الله تعالى وحقوق عباده التوبة والندم . والتوبة بالنسبة للعباد هى رد حقوقهم اليهم أو استسماحهم فيها . وبالنسبة لله تعالى الكف عن الجريمة والعزم على عدم العودة اليها فهذه هى طريق النجاة الصحيحة التى بينها الله فى كتابه الكريم . وشرحتها لنا السنة شرحاً وافياً فى غير موضع . فلا يصح بعد ذلك أن يحمل الناس سبيل الصواب أو يتجاهلوا مرضاة لشهواتهم ثم يتشبثون بالدين ويقولون انهم يعملون الخير الذى يدوم ثوابه فيكفر لهم ما فرطوا من الحقوق والواجبات . فالواجب على من يريد أن يرضى الله حقاً أن لا يطيع شهوته وهواه بل يفعل ما أمره الله به فيؤدى ما عليه من فرائض وواجبات ويحسب ما نهاه الله عنه فلا يظلم أحداً شيئاً فان كان ذا مال أخرج زكاته وأنفق على أهله وأقاربه بما يناسب حالهم وأدى فريضة الحج ونحو ذلك بما هو مفروض عليه ثم بعد ذلك يفعل من أعمال البر ما يستطيعه على أن يقدم الأنفع فالأنفع للناس سواء رضيت نفسه أو سخطت لأن من يرى

اليتامى تتقاذفهم المحن ويرى البؤساء تحمل بهم المصائب . فيضن عليهم بما يساعدهم على القوت الضروري ويبخل عليهم باليسير من ماله . ثم يبنى بعد ذلك مسجداً يفخر به أو يحجج حجاً غير مفروض عليه ليقال إنه كثير الحج فهو مغرور لا ثواب له على عمله لأنه إنما يعمل ليرضو شهوته لا ليرضى ربه . ولو أراد مرضاة ربه حقاً لاتفق ذلك المسال على اليتامى إبريهم تربية صالحة كي لا يكونوا أعضاء فاسدة تؤذى الجماعة وتضر الناس . لو أراد مرضاة ربه حقاً لاحسن إلى الأراامل والمساكين الذين قلب لهم الدهر ظهر المحن فلم يجدوا قلباً رحماً يحنو عليهم ولم يظفروا بالضرورى من القوت فى معظم الاوقات . لو أراد مرضاة ربه حقاً لم يترك لأحد عليه حقاً من الحقوق ومن كان له فى عنقه مظالم تحال منه بذلك المسال حتى تبرا ذمته وباقى الله آمناً مطمئناً . لو أراد مرضاة ربه حقاً لعمل بقوله (اتقوا الله الذى تسألون به والأرحام) فوصل رحمه وأنفق عليهم من ذلك المسال ما هم اليه محتاجون .

هذه هى قوانين المال الشرعية التى من حاد عنها فقد ضل سواء السبيل ومن تمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

رابعا . الغرور بالآمانى السكاذبة والآمال الفارغة كغرور المنافقين بآمانهم التى من جملتها الطمع فى ضعف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وانخداعهم وتلاشيهم . فكانوا يظهرون أنهم مع المؤمنين مجارة للحالة الحاضرة التى يرونهم عليها من القوة ولكنهم يقعدون عن نصرتهم ومجاربة عدوهم تبعا لما تميل اليه طباعهم وتسكن اليه أنفسهم من بغضهم وعداوتهم ويعللون عملهم هذا بالآمانى الفارغة وهى أن المسلمين يتخذون ويقضى عليهم أو أنهم إذا اتصروا فإن الرسول يعفو ونحو ذلك من الشبه الفاسدة التى لا تركز إلى حقيقة ثابتة أو برهان واضح .

لهذا قال الله تعالى لهم (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الآمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) . فتنتم أنفسكم أهلكتموها بالنفاق . تربصتم انتظرتكم الدوائر التى تحيق بالمسلمين فتقضى عليهم . ارتبتم شككتكم فى أمور الدين حتى جاء أمر الله — الموت — والغرور الشيطان . وهذا خطاب للمنافقين المذكورين فى الآية التى قبل هذه بقوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) الخ

خامساً : الغرور بالدينياوزينتها والانصراف عن الآخرة وشر ما يترتب على هذا الكفر بالله تعالى وعصيانته كما فعل المشركون وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فقد قالوا إن لذات الدنيا محقة والحصول عليها مضمون وهانحن أولاء تتمتع بها فعلا . أما الآخرة فهى مشكوك فيها ولذاتها غير محقة فكيف نترك المحقق المضمون للمشكوك فيه وكيف نبيع العاجل المحقق بالآجل المشكوك فسكنت أنفسهم لما يوافق طبعهم ويلائم أهواءهم بناء على تلك الشبهة الفاسدة وكفروا بالله تعالى وكذبوا رسله . ولا ريب فى أن هؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلا لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة فى أخرج المواطن وأدق المواقف التى يترتب عليها

شفاء المرء وسعادته دائماً هو من أكبر المغرورين وأشد الجاهلين ولولا أنصف نفسه لعلم أن زينة الدنيا زائلة معها طال أمدّها وأن الانسان لابد أن يفتي منها امتد أجله وذلك لا يستطيع إنكاره أحد لأنه مشاهد بحس . وليس من المعقول أن يخلق الله الانسان ويمتعه العقل والعلم ثم يجعله تراباً من غير أن يكون ذلك وسيلة لاعادته في شكل أكمل وإيجاده على نظام آتم . وإلا كان مثله كمثل من يبنى قصراً بديع الصنع متين البناء ثم يأمر بهدمه وتركه خراباً عبثاً بدون أن يتعلق له بهذا غرض كعادته على صورة أجل وفي حالة أكمل ومن يفعل ذلك فهو ناقص العقل يسخر منه كل من يعلم عنه هذا . فهل يليق بالاله الذي ليس كمثل شيء أن يخاق الانسان في أحسن تقويم كما قال هو سبحانه . ويمنّ عليه بالعقل والعلم الذي هو من صفات الالهية ثم يمته ويتركه تراباً بدون أن يعيده على حالة غير قابلة للبقاء . لا ريب في أن ذلك محال لا يرضاه لنفسه إلا الحيوان الذي لا عقل له ولا علم عنده . ومن تأمل في أنواع المخلوقات فانه يجد كل نوع منها يرتقى بطبيعته إلى ما هو أعلا منه . فالجماد يرقى إلى نبات . والنبات يأكله الحيوان فيصبح جزءاً منه ويصير حيواناً . والحيوان يأكله الانسان ويصير جزءاً منه وهكذا . فهل يحرم الانسان من الرقي وهو أفضل الأنواع . لا شك في أن قيام الانسان لامتني له إلا الاستعداد لتكوين آخر فيعيده الله تعالى كاملاً مستعداً للبقاء الدائم والخلود المستمر . بذلك أخبرت الرسل الذين برهنوا على أنهم من عند الله تعالى بالبراهين القاطعة . ومن يؤمن بالله فانه يكون جاهلاً كل الجهل إذا أنكر اليوم الآخر لأنه لا يعقل أن يكون لأحد الملوك رعية ثم يتركهم يقتدى بعضهم على أعراض بعض وأموالهم وأنفسهم بدون أن يأمرهم وينهاهم ويجزى المحسن ثلي إحسانه والمسيء بأسائه . ومن ينكر الاله فهو شر من الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون لأن لله في كل شيء آية تدل على وجوده ووحدانيته كما سيأتي كل ذلك موضحاً في الواجبات الدينية في الجزء الثاني إن شاء الله

فمؤلاء المغرورين الذين اطمأنوا للحياة الدنيا ورضوا بها وكفروا بربهم ولم ينظروا إلى أنفسهم ولم يتفكروا في خلق السموات والأرض واستندوا إلى تلك الشبهة الضعيفة الفاسدة سيعذبون أنهم خسروا خسراناً ميبساً وأنهم سيعذبون عذاباً خالداً مستمراً تلقاء نعيم زائل فان لم يكن بجانب العذاب شيئاً مذكوراً

ومثل الكافرين في الغرور بالدنيا ولذاتها عصاة المؤمنين الذين هجروا الأعمال الصالحة وارتكبوا الجرائم والموبقات بدون أن يحسبوا للآخرة حساباً . وهؤلاء قد آثروا الفاني على الباقي وسكنت أنفسهم إلى ما تميل اليه طباعهم الفاسدة من التمتع باللذات المحرمة والشهوات المهلكة والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم ودمائهم . وإذا قيل لأحدهم إن عملك هذا ستجزى عليه أشد الجزاء في يوم يجعل الولدان شيباً أعرض ونأى بجانبه وربما سخر من يقول له ذلك معطلا نفسه ببعد ذلك اليوم وأنه كيف يترك الحاضر اللذيذ من أجل الغائب البعيد . فهو كالكافر في هذا تماماً إلا أنه لا يخلد في النار إن مات وهو مؤمن . وكفى به ذمماً أنه مشارك للكافرين في الاعراض عن الآخرة . وكفى به زجراً أنه سيعذب على ما كسبت يده عذاباً شديداً وسيقتص منه رب العزة على ما انتهك من محارم وارتكب من مظالم . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون

سادساً . الغرور بالله تعالى من الكافرين وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فيقولون لو كان هناك معاد كما يقول الرسل لكانوا أحق بشمراته من غيرهم وأوفر منهم حظاً فيه . لأنهم عظماء في ذاتهم وأهل للنعم بدليل أن الله قد أنعم عليهم في الدنيا . فإذا كانت هناك آخرة لم تسلب تلك النعم عنهم . وقد ذكر الله ذلك عنهم في كتابه العزيز قال تعالى (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) الى قوله (فأصبح يقاب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) ومعنى هذا أن أخوين في بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فكان المؤمن ينصح للكافر ويحذره من الغرور بالدنيا ويخوفه بطش ربه والكافر لا يسمع لنصيحته ويقول له على فرض وجود معاد فانه يكون لي فيه أوفر نصيب . فأظفر بخير من النعم الذي أنا فيه فلما أهلك الله حديقته ندم على ما أنفقه عليها من مال وعرف أنه كان مغروراً وأن النعم لا تعطى لمن يعتقد في نفسه العظمة في الدنيا فضلاً عن الآخرة .

ومن ذلك ما وقع من العاص بن وائل القرشي أحد المعتنقين المنكرين للحشر مع خباب بن الأثر رضي الله عنه قال خباب كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أنقاضه فقال والله لأقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث قال فأننى إذا مت ثم بعثت جنتنى وثم مال وولد فأعطيك . فأنزله الله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً) الى قوله (ويأتينا فرداً) رواه البخارى ولم يغيرهما - القين الحداد - وثم مال - هناك - فالعاص بن وائل ظن أنه عظيم في ذاته وأنه أهل للنعم في كل آن ومكان فعلى فرض وجود بعث فانه سيكون له هناك أوفر حظ وأكبر نعمة وليس وراء هذا من غرور لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة في هذه المواطن - كما ذكرنا آنفاً - لهو من أكبر المغرورين وأشدّهم ضللاً وخطأ . ولهذا رد الله عليه بقوله (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) فانه لا يجزأ على هذا القول إلا من استوثق كل الثقة وتأكد كل التأكد . إما بالاطلاع والمشاهدة . وإما بأخذ العهد والميثاق وإلا فهو جاهل أحق مغرور .

ولقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله (ولقد فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) فهؤلاء المغرورون قد نظروا إلى ضعف المؤمنين وفقرهم فاحتقروهم ولم يصدقوا أن الله تعالى يختارهم من بينهم ويفضلهم عليهم . وقال تعالى حكاية عنهم (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) فهم يعتقدون أن لهم المسكنة الرفيعة على أى حال . وأحق بالسعادة حيثما وجدت . وذلك جهل فاضح وغفلة عظيمة عن سنن الله تعالى في خلقه . فانهم لو تأملوا قليلاً لعلوا أن العزة في الدنيا تأتي وتزول . وكذلك الغنى والفقر والقوة والضعف والسعادة والشقاء . ونحو ذلك فانها كلها تتداول بين الناس فلا يدوم أحد على حال . ولقد جعل الله لكل شئ سبباً فمن تمسك به ظفر بمسيبه وإلا فقد حاول المحال . وإذا كانت الحالة هكذا في الدنيا فكيف يطمعون أن ينتبوا على منزلتهم في الآخرة مع الكفر بالله وعصيانه وترك الوسائل التي أمرهم بالتمسك بها . ألا إن ذلك هو الخسران المبين

وأما عصاة المؤمنين فانهم يرتكبون الجرائم والموبقات ويقولون إن الله كريم وأنا نرجو عفوه ولا ريب في أن الله كريم حقاً وأن كل خلقه يرجون رحمته . ولكن ذلك الكريم قد أرسل لنا رسلاً وأنزل عليهم كتباً تشتمل على أوامر ونواهي وعظائم وأمثال وبين لنا طريق السعادة وطريق الشقاء ولم يترك شيئاً من الفضائل التي تليق بالإنسان إلا حث عليه وأمر بالتمسك به ولم يذر شيئاً من الرذائل الصارة إلا نهى عنه ونهى عليه . وقال لنا على لسان هؤلاء الرسل إن عملتم بما أمرتم به واجتنبتم ما نهيتكم عنه وسلكتم سبيل السعادة وتجنبتم طريق الشقاء منحتكم رضوانى وأحلتكم محلاً لا تشقون فيه أبداً فأدخلتكم جنات النعيم وأعطيتم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . وإن أنتم خالفتم أمرى ونهى واتبعتهم أهواءكم غضبت عليكم . وإن غضبى لشديد وعقابي لأليم . فمن غضبت عليه أحلته محلاً دائماً الشقاء وعذبه بنار حامية وقودها الناس والحجارة

ولا ريب في أن قول الله صدق لا يتخلف أبداً . وإن كان هو سبحانه صاحب السلطان المطلق والارادة الكاملة فإن شاء أن يعفو عن يثاء من عباده فعل . ولكنه لم يعرفنا وسيلة لعفوه سوى التوبة من الذنوب والرجوع إليه بعد التمرد والعصيان . فمن ذا الذى يخاطر بنفسه ويقذف بها في الشهوات الفاسدة واللذات القاتلة فيغضب عليه ربه ويعرض نفسه لعذاب جهنم طمعاً في عفوه الذى لا يعرفه ولا يدري إن كان يمنح لفرد من الأفراد أو أكثر بل لا يدري إن كان يقع لأحد من المجرمين أو لا . حقا إن الله قال في كتابه الكريم (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال (والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً) فهو إن شاء غفر ما عدا الشرك لأنه سبحانه مالك كل شيء وصاحب السلطان الذى لا ينازع ولكن من ذا الذى يشاء الله له الغفران . ومن ذا الذى يستحق عفوه . لعله من هؤلاء الذين قال الله فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) فالتائبون هم الذين يستحقون عفواً الله عما فرط منهم من الجرائم فإنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات

ذلك هو الدين وما عداه تمسك بالمحال وتعلل بالآمال وما كان الله ليرسل الرسل لعباً ولهوأ وينزل الكتب تسلياً وهزواً . ولكن حذر وأنذر ووعد وأوعد . فمن أطاع فقد فاز فوزاً عظيماً . ومن عصى فقد خسر خسرانا مبيناً . يرشدك الى هذا كتاب الله تعالى فإنه وعد بالمغفرة التائبين الذين يعملون الصالحات قال تعالى (وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى) . وقال (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال (إن رحمة الله قريب من المحسنين) الى غير ذلك من الآيات التي فيها وعد بالمغفرة أو وعد بالجنة ونعيمها فإنه مشروط فيه الايمان والعمل الصالح . وسيعلم المفرورون ذلك عند ما يرون العذاب بأعينهم ويتأكدون أن الجنة لا تمنال بالآمال وأن النار لا تجتنب بارتكاب الجرائم وإطاعة الشهوات فيقولون كما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم . (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فهم سيذعنون بأن العمل الصالح هو الذى عليه مدار السعادة وأن العمل السيئ هو الذى عليه مدار الشقاء . وما عدا ذلك فهو غرور وأحلام . فكيف لا يتدبر المؤمنون في قول رب العزة . وكيف تقسوا قلوبهم

وتنظم بصائرهم وتستولي عليهم شهواتهم فتصمم وتعمى أبصارهم . ألم يسمعوا قول الله تعالى (يوم توفى كل نفس ما كسبت) ويدركوا أن هذا كلام رب العزة الذى لا تبديل لكلماته ولا محو فيها فلا بد من أن تنال كل نفس جزاء عملها من خير وشر بدون أن يظلم احد شيئا . فسا بالهم يعرضون عن قول ربهم هذا كأنهم به غير مؤمنين . ألم يسمعوا قول الله تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً)

فواجب على المسلمين أن يتدبروا ذلك وأن تتأثر به قلوبهم فلا يحيدون عن العمل به لأنه هو وحده وسيلة السعادة الدائمة والنعيم المقيم . ولقد منّ الله تعالى على المؤمنين فوعدهم بقبولهم إذا تابوا وأنابوا . فلا عذر للبصرين على ذنوبهم المأسورين لشهواتهم ولذاتهم بعد ذلك فان الله تعالى قال لهم (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) إنه هو الغفور الرحيم وأنبيوا الى ربكم) فمن سمع قول الله هذا ولم يسارع الى التوبة والانابة اليه فهو خاسر غليظ القلب لا يحق له أن يرجو رحمة بعد ذلك . أما من تاب من ذنوبه وأناب الى ربه فانه جدير أن يرجو رحمة وغفرانه وهو الغفور الرحيم

الحقد والحسد

تعريفهما

الحقد هو الانطواء على البغضاء بأن يستقل قلب الحاقد من محقد عليه وينفر عنه ويبغضه وهو نتيجة الغضب وثمرته . لأن الغضب اذا نار وطفى فانه لا يهدأ الا بأمرين . أحدهما الحلم وهو يستلزم تقدير الأمور والتدبر فى عاقبة الغضب وما يجر اليه من المصائب والبلاء . وهذه درجة رفيعة ومنزلة سامية لا ينالها الا عظماء الرجال الذين تملك عقولهم أبدانهم كما سيأتى فى مبحث الحلم . ثانيها التشفى والانتقام من المغضوب عليه . فمن نار غضبه ولم يكن حليماً وعجز عن البطش بمن أهابه انقلب غضبه حقداً بالمعنى الذى ذكرناه

وأما الحسد فهو تمنى زوال نعمة الغير فلا يحب ان يرى على من يحسده نعمة التى حسده من اجلها . وهذا احدى نتائج الحقد وثمراته المترتبة عليه فان من يحقد عليه يتمنى زوال نعمته وبغائه ويتمنى عليه ويمتدى على عرضه ويشمت فيه لما يصيبه من البلاء وغير ذلك من الصفات المذمومة التى لاتليق بالانسان . وكفى بالحقد ذماً أن يكون الحسد ثمرة من ثمراته واثراً من آثاره

مضار الحسد

شر مضار الحسد وبلوائه التي تؤذي الافراد والجماعات ان الحاسد اذا كان ذا بطش وقوة فانه لا يبالي ان ينكل بمحسوده شر تنكيل فاذا امكنه القضاء على نعمته باى وسيلة من الوسائل المحرمة فانه يسارع الى ذلك حتى ولو ادى به عمله الى الاعتداء على بدنه وعرضه وماله . لان داء الحسد اذا تغافل في النفس وكان الحاسد شريراً لا وازع له من دين او مروءة فانه يكون من شر الصفات التي يترتب عليها ظلم الابرياء والاعتداء على عباد الله . فاذا كثر الحاسدون الاقوياء في أمة من الأمم سادت فيها الفوضى واختل النظام واضطرب جبل الامن وكان الحسد من شر الادواء التي منيت بها . أما اذا كان الحاسد ضعيفاً لا يستطيع أن يطش بالمحسود ولا يسعه أن يلقاه وجها لوجه فانه يترصص الدوائر به ويتنزه القرض للنيل منه بلسانه فلا يتعفف عن اخلاق الكذب عليه ورميه بالفحشاء زورا وبهتانا ولا يحجم عن النم عليه عند من يؤذيه ولا يتأخر عن غيبته وذكره باقبح الاوصاف وأسوأ العيوب . كل هذا يترتب على الحسد وما ذا يجنى الحاسد من وراء حسده من اللذات انه لا يجنى شيئاً أكثر من هذا الذي سمعت من مظالم الناس فاذا اعجزه الخوف من المحسود عن ذكره بالسوء في غيبته أيضاً فان قلبه يصلى ناراً تطفى ويعذب عذاباً اليماً . فهو من أشقى خلق الله واتعسم يشغل نفسه بما لا فائدة فيه ويعذبها بدون لذة يجننها سوى أنه فاسد الطبع سيء التربية وذلك هو البلاء المبين . وكفى بالحسد ضرراً أن النعمة لازمة له وأثر من آثاره وقد علمت مالها من المفاسد والاضرار . من اجل ذلك حرمت الشريعة الاسلامية الحسد وذمه الله تعالى في كتابه الكريم فقال (ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الى غير ذلك من الآيات وقد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام ان يستعيز من شر الحاسد في سورة الفلق وقال صلى الله عليه وسلم « ليس مني ذو حسد ولا نعمة ولا كهانة ولا انا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » رواه الطبراني والبهتان هو أن يقول في شخص مالم يفعله ولقد اشار نبينا عليه الصلاة والسلام بتلاوة هذه الآية الى ما يترتب على الحسد من الشرور والمفاسد فان الحاسد لا يبالي ان يؤذي المحسود ويقول فيه الزور . والبهتان كما علمت مما تقدم . وكفى بالحاسد ذماً ان رسول الله ﷺ يتبرأ منه ولم يرض ان يكون منسوباً اليه فان دينه يأمر بالفضيلة وينهى عن الرذيلة . وكفى به زجراً ان يكون قد احتمل اثماً مبيناً بفعله ما يترتب على الحسد من الاضرار بعباد الله لان جزاء الآثمين جهنم وبئس المهاد

اسباب الحسد

ينشأ الحسد غالباً من امور خارجة عن طبيعة الحاسد واهم هذه الامور الكبر والعجب والعزة والتزاحم على ما تستلزمه الحياة من مال وجاه والخوف من فوات اللذات والشهوات فان كل

هذه الصفات العارضة على نفس الانسان تستلزم الغضب وهو يستلزم الحقد والحسد كما علبت آ نفا وقد ينشأ الحسد بسبب داخل فى نفس الحاسد كأن يكون شريرا بطبيعته قد سرى اليه خبث النفس بقانون الوراثة او انتقل اليه من البيئة التى ربي فيها فتراه مفظورا على العداوة والبغضاء للمحسود بدون سبب ظاهر سوى الخبث وسوء التربية . وهذه الامور كلها تنتج العداوة والبغضاء وهى رأس كل شر ومصدر كل بلاء ولقد بينا لك كيف ان الكبر يستلزم الحسد وكذلك العجب فى محله اما التواضع على شئون الحياة فالامر فيه محس ومشاهد لنا فى كثير من الناس خصوصا طلاب المال باسباب متشابهة كالتيجار والصناع والزراع فانك ترى التحاسد كثيرا بينهم وقد يذهب الحسد ببعض الحاسدين منهم الى الدرك الاسفل من الخسة فيحسد غيره على ربح خبيث كالكسب بالميسر او الغش او النصب والاحتيال والتدليس . وكذلك الحال فى طلاب الشهوات واللذات فان من يظفر منهم بلذة يحسده الآخر عليها حتى ولو كانت محرمة ومن هؤلاء فريق كالانعام بل هم اضل سبيلا فان بعضهم يحسد شريرا مثله على وصوله الى امرأة فاجرة او غلام فاسد الاخلاق . وكثيرا ما يقتلون من جراء ذلك وذلك هو الخزى المبين

مراتب الحسد

يمكنك أن تفهم مما تقدم أن صفات النفس المردولة لها ثلاث حالات الحالة الاولى ان تترتب عليها آثارها السيئة وهى انما يتفاحش شرها بتفاحش ما يترتب عليها من تلك الآثار فكما اشتد ضررها للفرد أو للجماعة اشتد ذمها وكبر اثمها وعظم جرمها . الحالة الثانية أن توجد الصفة ولكن لا يترتب عليها شيء من تلك الآثار وهذه تنقسم الى قسمين . الاول أن يكون ذلك ناشئا من عجز المتصف بها عن فعل ما يترتب من الشر بحيث لو امكنه أن يفعل لا يتأخر ولا يبنى وهذا يكون مذموما يعاقب عقابا شديدا على هذه الصفة . وكذلك يعاقب على الجرائم التى لم يباشرها بعجزه وإن كان عقابه عليها أهون من عقاب الذى باشرها فعلا . الثانى أن يكون له وازع من دين وخوف من الله فيجاهد نفسه ويكفها عن إيذاء خلق الله بالقول والفعل وهذا يكون ممدوحا وإن كان يلزمه أن يعالج نفسه حتى تبرأ من تلك الصفة ويستريح من شرها . وقد علبت فيما مضى أن كل صفات النفس قابلة للزوال فليس للانسان عذر فى ترك الأمراض النفسية حتى تصبح داء عضالا يتعسر زوالها . الحالة الثالثة أن تترتب عليها آثار نافعة للفرد أو للجماعة وهذه الحالة شاذة غير طبيعية لأن صفات السوء يندر أن يترتب عليها خير وهى فى هذه الحالة تكون ممدوحة بطريق الاستثناء بناء على قاعدة جاب المصلحة ودرء المفسدة فان نظر الشريعة الاسلامية فى جميع قضاياها انما هو الى مصلحة الافراد والجماعات وقد يحاول بعضهم عندهذا تسميتها باسم آخر وهو ليس بضرورى كما علبت فى مبحث الكذب لان المعول على المعانى والاغراض المترتبة عليها لاعلى الالفاظ والعبارات

اذ علبت هذا فاعلم أن للحسد ثلاث مراتب . المرتبة الاولى هى أن يتبنى زوال نعمة الغير

لنتقل اليه فيعمل على ذلك بالوسائل المحرمة الظالمة ويسعى في إساءته بكل ما يتيسر له وهذه الحالة هي الغالبة في الحسد خصوصا المتزاحمين في صفة واحدة فان من يريح منهم رجحا كبيرا أو يظفر بلذة يرقبها غيره فان ذلك الغير يحسده على ما حصل عليه من ذلك ويسعى في حرمانه من هذا الربح ليظفر به هو ويكثر ذلك في طلاب المناصب والجاه كما علمت في القيمة . المرتبة الثانية أن يجد من نفسه الرغبة في زوال النعمة عن المحسود سواء انتقلت اليه أو لغيره ولكنه جاهد نفسه وكفها عن فعل ما يؤذيه خوفا من الله تعالى وكرهية في ظلم عباد الله ومن يفعل هذا يكون قد كفى شر غائلة الحسد ودفع عن نفسه العقوبة الآخروية ولكن ينبغي له أن يعالج نفس الصفة حتى يبرأ منها . المرتبة الثالثة أن يتمنى زوال نعمة الغير بفضله لسبب مشروع كأن يكون ظالما يستعين على مظالمه بهذه النعمة فيتمنى زوالها ليريح الناس من شره وهذا يسمى حسدا مذموما وان كان تعريف الحسد يشمل له لأنه تمنى زوال نعمة الغير ولكنه في هذه الحالة يكون ممدوحا كل المدح بل قد يكون لازما اذا ترتب عليه عمل يرفع هذا الظلم ويردع ذلك الظالم . هذه هي مراتب الحسد وليس منه أن يتمنى أن يكون له نعمة مثل نعمة أخيه من غير أن يحب زوالها عنه وهذا يسمى غبطة وهي ممدوحة لاشئ فيها الا اذا ترتبت عليه وساوس نفسية وخواطر شيطانية تجر الانسان الى مواضع الخطر من حيث لا يدري كأن يقول في نفسه أنا أحق منه بهذا ثم ينتقل من ذلك الى الغيرة منه وبغضه وحسده وهو لا يدري بخير للانسان أن لا ينظر الى ما في أيدي الناس بل يسلك هو السبل التي قدرت له في هذه الحياة بجد ونشاط وما يصل اليه من نعيم الحياة ولذتها بحمد الله عليه ويقنع به . اما كونه يتمنى أن يكون له قصر مثل قصر فلان أو زوج مثل زوجه أو ولد صالح مثل ولده أو نحو ذلك فانه يشغل به نفسه من غير جدوى . نعم اذا كان ذلك التمنى يبعثه الى العمل ويدفعه الى تقليد غيره في جده ونشاطه كي يحصل على ما حصل عليه — وهو معنى التنافس — فهو حسن ممدوح خصوصا اذا كان في اعمال الخير الذي يأمر بها الدين فان التنافس فيها مطلوب والتزاحم عليها ممدوح وفيها فليتنافس المتنافسون

علاج الحسد

ينبغي ان يعالج الحسد بمعالجة اسبابه فان كان سببه الكبر أو العجب أو حب الرئاسة فانه يعالج بعلاج هذه الصفات فتى قدر على ازالتها فان الحسد المسبب عنها يزول بزوالها طبعاً . نعم ان علاجه في هذه الحالة يكون شاقاً لأن من اجتمعت فيه هذه الصفات أو بعضها فلا غرو أن يحتاج في علاجها الى جهاد طويل شاق وصبر على محاربة نفسه حتى يكبح جماحها ويردها عما تطلبه تلك الصفات من المفاسد وتقتضيه طبيعتها من الاضرار بالناس . ولكن المسلم الذي يدين بالاسلام حقاً ويعتقد ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وهناك يحجزى كل امرء بما كسبت يده فانه لا يحجم عن علاج نفسه ولا يترك تلك الصفات الرديئة التي تفتك بالانفس كما تفتك الاوبئة فتوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة . واما الحسد الناشئ من خبث الطبيعة وسوء التربية

فإن صاحبه ناقص العقل سىء التربية وإلا فماله وللناس وما الذى يضره من نعمهم حتى يتنى زوالها وما الذى يناله من وراء حسده سوى تعذيب نفسه وإيلامها . إن مثل هذا يجب عليه أن يعالج عقله حتى يدرك أن ما يتصف به من هذا حماقة وجنون لامبرر له فإنه لا ينجى من ورائه لذة عاجلة حتى يضحي من أجلها نعيم الآخرة الأجل ولا يظفر منه بسوى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة فإذا أمكن للحاسد بأى سبب من الأسباب أن يمنع نفسه من إيذاء المحسود بالقول والفعل فإنه يسهل عليه القضاء على الصفة النفسية التى تدفعه إلى الإيذاء ويرتفع عنه أثم الأضرار بالناس . فعلى كل حاسد أن يذكر دائماً بطش الله وقوته قبل أن يبطش بعباد الله وأن يعلم أن الله شديد العذاب وأنه لعن الظالمين وأعد لهم سعيراً وأن كل ذنب يغتفر بالندم ما عدا حقوق العباد فإنها لا تغتفر إلا إذا ردت إليهم أو ساءحوا فيها . وأنه لن يستفيد أدنى فائدة من وراء الحسد والكبر والعجب سوى الآلام التى تساور نفسه والهموم التى تنابها عند ما يعجز عن نيل ما تطلبه منه . وأن يذكر دائماً أن كل منصب لا يدوم وأن كل رئاسة لن تستمر . فكم رأينا فى بعض حياتنا القصيرة رؤساء أصبحوا مرءوسين وسادة أصبحوا خدماً . وأعزة أصبحوا أذلة . وليس من الكياسة والحزم أن ينغص الإنسان عيشه ويعذب نفسه ويعتدى على خلق الله من أجل أمر زائل لا يدوم لأحد ولا يبقى للمخلوق .

ومع ذلك فالمناصب والرئاسات تكتنفها مسئولية عظيمة عند الله وعند الناس . فلا ينجو من شرها إلا من جاهد نفسه جهاداً كبيراً وحاسبها حساباً عسيراً كي يقف معها عند الحد الذى يقتضيه الحق والواجب ولا تحمله شهوتها على الخروج عن العدل والانصاف . فمن كان له عقل سليم ونظر صحيح فلا يندفع فى سبيلها إلا حيث يظن من نفسه القدرة على دفع شرها . على أنها كغيرها من لذات الحياة وأنعمها يمكن الوصول إليها من طريق مشروع لا يترتب على سلوكه ضرر أحد من خلق الله فإذا جاءت من هذا الطريق فذاك وإلا فإنها مهما عظمت لذتها وطالت مدتها لا تقاس بمشغال حبة من غضب الله تعالى ولا تساوى لحظة واحدة من عذابه وكذلك سائر لذات الدنيا وزينتها فإن من وصل إلى شئ منها من طريق مشروع واستمتع بها حلالاً طيباً فهو بممدوح . ومن قعد به حظه عن الوصول إلى ما يشتهى وجب عليه أن يصبر على ما منع عنه ويرضى بما قدر له وإلا كان حيواناً مفترساً وذنباً ضارياً لا يعنيه إلا الوصول إلى لذاته مهما ترتب عليها من الفتك بغيره والاعتداء عليه .

ذلك بعض ما يعالج به الإنسان نفسه من صفات النفس التى يترتب عليها الضرر بخلق الله على أنه ينبغي للمسلم الذى يدين بالاسلام حقاً أن يتأمل دائماً فى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكثر من الاطلاع على سيرته الكريمة وسيرة أصحابه . ويدبر النظر فيما كان عليه أتباع الرسول الصادقين من سلامة الصدر وطهارة القلب ومعاملة بعضهم بعضاً بالرفق والرحمة فلا يتحاسدون ولا يتباغضون . فهم كانوا دائماً إخواناً متصافين يتعاونون على البر والتقوى ويتناهون

عن الأثم والعدوان وبذلك أعلا الله قدرهم في الدنيا وأعد لهم في الآخرة جنات النعيم .
فالمسلمون الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه يحب عليهم أن ينزعوا من صدورهم العداوة
والبغضاء ويطهروا أنفسهم من الضغائن والأحقاد . فمن غلبت عليه طبيعته ووجد من نفسه بغضاً
لواحد من خلق الله وجب عليه أن يكف عنه يده ولسانه وأن يعالج نفسه حتى تبرأ من هذه النصفة
التي نهى الله عنها ورسوله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تناطعوا ولا
تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه أحمد والبخاري ومسلم
هذه هي آداب الاسلام وتعاليم الكريمة التي لا يفاج من حاد عنها . ولا يسعد من خالفها .
ولا يشقى من تمسك بها . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعها في كل شأن من شئونها ويهدينا الى
سبيلها القويم وطريقها المستقيم ويقينا شر الحسد وغوائله إنه بعباده رءوف رحيم

الباب الثالث

في ذكر بعض صفات النفس الممدوحة

تمهيد

قد علمت في أول الكتاب أن الانسان مركب من أمرين . أحدهما الجسم المادى والمواقف من
العناصر المختلفة . والثاني العقل وإن شئت فسمه بالنفس أو الروح . وهو الذى يمتاز به الانسان
عن الحيوان وبه يدرك الخير والشر ويعرف الفضيلة والرذيلة . وما سوى العقل من وجدان وحس
باطن وظاهر فانه عون للعقل على ذلك الادراك .

فالانسان يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم وهذا خير وذاك شر بالبراهين التي يرتب العقل
مقدماتها مما يصل إلى الخواص الباطنة والظاهرة من المشاهدات والتجارب والأخبار الصادقة
والنظر في أراء الأمم وأحوال الناس . على أن العقل الانسانى مهما أوتى من قوة فانه يصيب ويخطئ
فلا بد له من الاستناد إلى قوة معصومة من الخطأ حتى يكون حكمه صحيحاً دائماً . وتلك القوة هي
قوة الوحي الالهى الذى أشار الله تعالى اليه بقوله (ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو
الا وحي يوحى) فعند ماضل العقول وتشبهه عليها الأدلة وتضطرب لديها المقدمات ترجع الى ميزان
الوحي فهتدى وتنظر فيما أتى به الدين فتسكن لأنه من لدن عليم خبير لا تخفى عليه خافية من خلقه .
ولا بأنيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه . فما يأمر به الدين فهو فضيلة . وما ينهى عنه فهو رذيلة
وما يستحبه فهو شر . وما يستحسنه فهو خير .

هذا هو الذى يعول عليه المسلمون الذين يعرفون حقيقة الاسلام . ويعلمون أنه لم يترك فضيلة من الفضائل عند ذوى العقول السليمة الا أمر بها وحث عليها . ولم يدع رذيلة من الرذائل الا نهى عنها ونهى عليها . ولم يأمر بشيء أو ينه عنه الا اذا كان فى فعله . أو تركه مصلحة تعود على الأفراد والجماعات . وهو مع هذا لم يخطر على العقول أن تنظر فيما جاء به . بل جعل لها مجالا واسعا فى النظر والاستدلال والبحث والتفكير وشجع الباحثين على استنباط ما فيه المصلحة للناس بالوعد الكريم . لجعل لهم على بحوثهم أجراً عند ربهم حتى ولو أخطأوا فى اجتهادهم مادامت النية الصالحة موجودة . وما دام الواحد منهم قد بذل منتهى الجهد وأقصاه بشرط أن لا يخرج عن قواعد الدين العامة وأن لا يصطدم بأصوله المتفق عليها من كتاب وسنة واجماع يرتكز على الكتاب والسنة لأن الخروج على تلك الأصول هو ضلال العقل الذى ذكرنا فاذا رجع الى تلك القواعد وأعاد النظر فيها المرة بعد المرة وتأمل فيما يشته فيه من أمرها فانه لا بد أن يهتدى الى الصواب وبدرك أن علة اشتباهه ترجع الى عدم دقة النظر وعدم فهم المقدمات .

ومن هذا تعلم أن العقل هو الذى يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم معتصداً فى ذلك الحكم بالدين ومستندا اليه فى كل شأن من الشؤون . وإن شئت فقل إن العقل يحكم بقضايا الدين فاذا خرج العقل عن قواعد الدين فقد ضل وغوى . ويمكنك أن تستفيد من مجموع ما تقدم فائدتان .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الدين الاسلامى انما يحكم على الأشياء بالمدح والذم باعتبار ما يترتب عليها من المنافع والمضار التى تعود على الأفراد والجماعات لأن كل تشريعه مبنى على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . فما يترتب عليه المصلحة فهو حسن ممدوح . وما يترتب عليه مفسدة فهو قبيح مذموم . واذا تعارضت المصلحة مع المفسدة قدم درء المفسدة على جلب المصلحة . ويؤخذ من هذا أن الحكم على الشيء بأنه خير أو شر . فضيلة أو رذيلة ليس باعتبار ذاته بل باعتبار ما يترتب عليه من المنافع والمضار . فالصدق فضيلة والكذب رذيلة . ولكن اذا ترتب على الكذب خير يعود على الفرد والجماعة . وترتب على الصدق ضرر فان كان ذلك الضرر يعادل لثم جريمة الكذب أو يفوقها كما اذا كان يترتب عليه اذهاق نفس أو هزيمة جيش . فان الشريعة الاسلامية تحتم الاخبار بغير الواقع دفعا لمفسدة قتل النفس وإذلال الأمة بهزيمة جيشها . اذ ليس الاخبار بالواقع فضيلة فى ذاته . بل باعتبار ما يترتب عليه من تحصيل المنافع ودفع المضار التى بينها لك فى مبحثه . وهكذا فى سائر الأمور

ومعنى هذا أن الانسان إذا طلب الفضيلة لئال من ورائها منفعة شخصية أو منفعة عامة كان ذلك جائزاً فى نظر الدين . وهو كذلك لأن الله تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خادين فيها أبداً ووعدده سبحانه لا بد أن يتحقق كما قال (إن الله لا يخلف الميعاد) وقال (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله) الى غير ذلك من الآيات الصريحة فى أن وعده لا يخلف . فمن تمسك بالفضائل التى أمر بها الدين واجتنب الرذائل التى نهى عنها . ليحيا فى الدنيا حياة طيبة . ويعيش عيشة هنيئة ويظفر فى الآخرة بالسعادة وهى النعيم الخالد والملك المقيم . فهو ممدوح كل

المدح وهذا يؤيد قول من يقول ان الانسان لا يطلب الفضيلة الا لما يترتب عليها من منفعة عامة أو منفعة شخصية . والأول يسمى مذهب السعادة العامة . والثاني يسمى مذهب السعادة الشخصية إلا أن الدين الاسلامي يشترط في المنفعة أن لا تتعارض مع قواعده فلا يترتب عليها اخلال بحقوق الناس أو بحقوق الله والا كانت الفضيلة التي تترتب عليها المنفعة رذيلة في نظر الدين

هذا هو الرأي السديد وما سواه فهو زخرفة في القول واحلال للنظريات محل العماليات . فمن قال ان الفضيلة تطالب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المنافع والذات . وإن الرذيلة تختبئ لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المصاير والآلام لا يريد الا أن يبالغ في تنزيه الانسان . أو ينمى أمنية محبوبة للنفس وهي أن الانسان ينبغي له أن لا يحفل بنعيم ولا شقاء . ولا يبالي بمنفعة ولا مضرة بل يسمى لما يعتقد أنه فضيلة بفطرته . فانه أرقى من أن تبعثه اللذة ويمنعه الألم ويسمى هذا مذهب اللقائنة — البصيرة — والواقع أنه مذهب غير عملي لا ينطبق على فطرة الانسان ولا يمكن أن يقع في الوجود . اللهم الا اذا خاق الانسان خاقاً جديداً . وذلك لأنه لا ريب في أن الناس مسوقون في هذه الحياة بعوامل اللذة والألم فلا يخطو الواحد منهم خطوة ولا يتحرك حركة الا اذا اعتقد أن من وراءها خيراً له ومنفعة تعود عليه . ولقد علم الله سبحانه ذلك من طبيعة عباده . فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين يرغبون أهل الفناء في الجنة ويحذرون أهل الرذائل من النار وجاءت الشريعة الاسلامية لتبين للناس حدود الخير والشر وما يجب على الانسان وما يجوز تحصيله من المنافع الشخصية والمنافع العامة . وعرفت كل واحد ماله وما عليه من الحقوق لنفسه ولغيره من الأفراد والجماعة كما سيأتيك بيانه مفصلاً في الجزء الثاني في الواجبات الدينية ان شاء الله

ووعدت من اتبع ارشادها وعمل بما جاءت به بأن ينال من اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأن يحظى في اليوم الآخر بكل ما تشتهي نفسه وتقر به عينه من نعيم دائم وسعادة خالدة فضلاً عما يظفر به من حياة طيبة في الدنيا خالية من الأمراض النفسية والبدنية وقائمة على رفعة القدر وسمو المنزلة . كل ذلك ليعمل الناس بما تقتضيه الفضائل وينتهوا عما تتطلبه الرذائل . ولا سبيل للحلم على ترك المنافع والذات التي تنافي الفضيلة الا بتخويفهم من عاقبة أمرها ووعدهم على الصبر على هجرها بلذات دائمة مستمرة . لا يعقبها عناء . ولا يتبعها ندم . ولا تساوى لذات الدنيا الى جانبها شيئاً .

ولقد كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يتعمنون القتل في سبيل الله ليظفروا بالنعيم الخالد وكانوا يقولون (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة) وليس بعد القتل ألم ولكنه أصبح لذة لما يعقبه من سعادة دائمة ونعيم خالد وهكذا في كل شأن من الشؤون . فان الناس لا يعملون الا طمعاً في الخير وفراراً من الشر أو بالتألي طمعاً في الثواب وفراراً من العقاب .

لعلك تقول ان من قواعد الاسلام الاخلاص في العمل لله تعالى وهذا يستلزم أن يعبد لذاته وطاع من غير شرط ولا قيد . ولهذا نقل عن بعض العباد أنهم كانوا يقولون اننا لا نعبد الله خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة واذا كانت نتيجة عبادتنا ذلك فقد خسرنا وهذا القول صحيح من بعض نواحيه لأن الذي يعمل على مرضاة سيده بدون أن ينتظر جزاء أكرم وأعز من الذي ينتظر

الأجر . وأن الذى يخلص لحبيبه الطاعة حتى ولو عذبه لا يقاس بالذى يعمل لياخذ جزاء . ولكن اذا حللت المسألة تحليلا دقيقا . علمت أن المتخاصين فى الواقع يطلبون جزاء أكبر ولذة أعلى لانهم انما يطلبون بذلك مرضاة الحبيب وهذا أكبر أجر لان من يرضى القادر الذى يده مكافأة العاملين فانه يكون له من الجزاء أكبر حظ . وأوفر نصيب . فاذا بحثت حال العباد الذين راضوا أنفسهم وتجردوا عن كل اللذات الجثمانية وهجروا جميع الشهوات الحيوانية فانك تجدهم لم يفعلوا ذلك الا لما يتغونه من لذة أكبر مما هجروه وسعادة حسية أو معنوية يقدرّون الوصول اليها من هذه الطريق وأقربا انكشف الحقائق العلية . وأعلها مرضاة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم أما الاخلاص فانه لا ينافى ذلك لأن معناه أن يعبد لالغرض يطلبه من غيره . أما اذا كان يعبد وحده ليرضى ويجزل له العطاء فان هذا نهاية الاخلاص . ولئن كانت الشريعة قد حثت على الاخلاص فانها قد وعدت عليه أحسن الوعود ورتبت عليه أحسن الجزاء فى دار النعيم وجملة القول فى ذلك أن على الانسان أن يطلب الفضائل التى أمر بها الدين وحث عليها . ويجنب الرذائل التى نهى عنها ابتغاء مرضاة ربه لا لغرض من أغراض الدنيا ولا اشهوة من شهواتها التى لا يقرها الدين كما علمت فى مبحث الرياء . أما اذا كان غرضه من عمله ما عنده الله من نعيم الجنة فانه حسن ممدوح بلا نزاع . فان كانت ملاحظته ذلك تشجعه على العمل وتعينه عليه كان ذلك واجبا .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ ان حكمه على الأشخاص بالمدح والذم انما هو باعتبار مقاصدهم ونواياهم كما قال صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » فمن قصد الى عمل خير قصدا صحيحا يريد به وجه الله تعالى واستمسك بكل الوسائل الموصلة اليه بدون تقصير ولا اهمال . ثم ترتب عليه شر فانه يكون ممدوحا . ومن قصد الى شر فترتب عليه خير فانه يكون مذموما . مثلا المجتهد الذى ينوى الوصول الى الحق فى مسألة من المسائل ثم استمسك بجميع الوسائل التى توصله الى غرضه وبذل أقصى جهده فى ذلك ولكنه أخطأ ووصل بمقدماته الى عكس المطلوب فانه يكون ممدوحا ويثاب على نيته وما بذله من مجهود . ومثله الطبيب الذى يبذل أقصى جهده فى معالجة مريض ثم يخطئ فى وصف الدواء فيترتب عليه هلاك المريض فانه يكون ممدوحا . وانما يذم اذا أهمل فى العناية المطلوبة منه . وعلى العكس من ذلك . اذا أراد شخص غش آخر وايداه فأشار عليه بسلوك طريق يظن أن فى سلوكه إيياها هلاكة فسلوكها فظفر فيها بكىز أو كانت سببا فى نجاته من شر فانه يكون مذموما باعتبار قصده ونيته . فالعبرة انما هى بالنية على كل حال .

واذا علمت هذا فانك تستغنى به عن الأبحاث الكثيرة والخلافات المتشعبة فى البحث عما تعرف به الفضيلة والرذيلة ويدرك به الخير والشر . فان ذلك أمر قد فرغ منه بما قرره الدين وأجمع عليه أرباب العقول السليمة .

ومن أجل ذلك اضربنا صفحا عن كل ما قيل فى هذا . لأنه ليس من غرض الدين . وانما غرض الدين معرفة ما يمدحه الدين وما يذمه وما يأمر به وينهى عنه . فما يأمر به ويمدحه فهو الفضيلة . وما يذمه وينهى عنه فهو الرذيلة . فالفضيلة فى نظر الدين الخالق الحسن

الذى يترتب عليه آثار صالحة . والرديلة الخلق السيئ الذى يترتب عليه آثار سئمة . وقد قدمنا لك معظم الاخلاق الصالحة وصددها فى البابين السابقين فلنذكر فى هذا الباب طائفة من الصفات الفاضلة التى فاتنا ذكرها هناك مبتدئين منها — بالعدل — لأنه أساس الفضائل

العدل

هو التوسط بين طارفى الافراط والتفريط فى ثلاث قوى . القوة الاولى الشهوية . القوة الثانية الغضبية . القوة الثالثة العقلية . فاعتدال هذه القوى هو العدل . واقصد ذكرنا لك فى بابي الشهوة والغضب ما يمكنك أن تعرف منه ذلك حق المعرفة . فان من يتوسط فى شهوته البهيمية وغضبه فلا ريب فى أنه يكون عادلا مع غيره ومع نفسه فأما عدله مع غيره فلأن التوسط فى الشهوة البهيمية هو العفة المتوسطة بين الخلاعة والجود . والتوسط فى الغضب هو الشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ومن كان كذلك فإنه ينصرف عن اذى الناس وظلمهم فى أعراضهم واموالهم وانفسهم ويحمله على اعطاء كل ذى حق حقه . وأما عدله مع نفسه فلأنه يستمتع بالحلال الطيب من رزق الله وينجو من عار الجبن وعدم الميرة على عرضه وماله ودينه ويسلم من فضائح الشهوة . كل ذلك فى الدنيا وله فى الآخرة أحسن الجزاء

وأما القوة العقلية فاعتدالها معناه الحكمة وهى متوسطة بين البلادة والغرور وهى تتناول حكمة الاعتقاد . وحكمة العمل . وحكمة الاخلاق . فاما حكمة الاعتقاد فمها توحيد الله تعالى وتزبيحه عن كل مالا يليق به وهو متوسط بين رذيلتين . نفي الألوهية رأسا كما تقول الدهرية او اعتقاد الآهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . واما حكمة العمل فمها اداء الواجبات بلا افراط أو تفريط وهو متوسط بين ترك العمل رأسا أو المبالغة فيه كما اذا ترك المباحات تشبها بالرهبات وأما الحكمة الاخلاقية فمها كالجود المتوسط بين الاسراف والشح ونحوه مما قدمناه لك فمن اعتدلت فيه هذه القوى الثلاث كان عادلا حقا

وتفسير العدل بهذا المعنى أحسن ما يفسر به ومنه يؤخذ أن العدل رأس الفضائل وأساس الخير وأن الظلم منبع الرذائل ومصدر الشرور وهو يؤيد من يقول ان أساس الفضائل خضوع الشهوة والغضب للعقل فمن جعل لعقله سلطانا كاملا عليها فلم يفرط ولم يفرط بل اتبع سبيلا وسطا فقد ملك زمام الفضائل وهذا الرأى هو اسد الآراء التى ذكرت فى هذا الموضوع واقربها للصواب . وقد اعترض عليه بعض الناظرين بأن بعض الصفات النفسية لا يظهر لها طرفان كالعدل فإنه ليس هناك سوى عدل وظلم فلم يكن العدل وسطا بين رذيلتين مع أن هذا المذهب يستلزم أن كل فضيلة بمدوحة لا تكون الا بين طرفين مذمومين . وأيضا فان بعض الصفات لا يظهر كونها وسطا لكونها أقرب الى أحد الطرفين من الطرف الآخر كالشجاعة فإنها أقرب الى التهور منها الى الجبن وكالكرم فإنه أقرب

الى الاسراف منه الى الشح . والاعتراضان ساقطان أما الأول فلأنك قد علمت أن العدل هو نفس الوسط المعتدل فالمعترض فسر به بغير ما يراد منه ومثله غيره من الصفات النفسية التي لا يظهر لها طرفان عند بعض الناظرين . وأما الثاني فليس المراد أن تكون الأبعاد متساوية من جميع الجهات وأن تكون الفضيلة موجودة في حاق الوسط — أى وسط الوسط — بالدقة بل المراد أن يكون لها طرفان مذمومان ولو كانت الى احدهما أقرب من الآخر

وبعضهم يقول ان اساس الفضائل هو المعرفة الصحيحة فمن عرف أن هذا حق وذلك شر فانه ينبعث الى فعل الخير وترك الشر فما يقع من المظالم والشرور فهو نتيجة الجهل أما ما نراه من وقوع الشر من العالم به فذلك لأنه لم يعلم به على وجه صحيح ولم تتأثر به نفسه حقاً . ألا ترى أن من علم أن في هذا الجحر تبعاناً لا يفتنع يده فيه والواقع أن هذه سفسة ظاهرة لان العلم لا يستلزم العمل بلا نزاع واما ما ذكره من أن العالم بالتبعان لا يقدم عليه فذلك لأن ضرره عاجل لم يعارض بلذة أخرى ولم يحل بعلة تسهل فعله فهذا القول خطأ واضح

هذا وقد فسر بعضهم العدل بتفاسير أخرى غير مذكورنا ولكنها كلها ترجع الى هذا التفسير فمن ذلك ما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه دعا ببعض العلماء وطلب منه أن يصف له العدل فقال له كن لصغير الناس أباً ولأكبيرهم ابناً وللدليل منهم أخاً وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن لعضبك سوطاً واحداً فتكون من العالمين . وبديهي أن ذلك يرجع الى اعتدال بعض القوى التي ذكرناها آنفاً ومثله ما نقل عن بعضهم من أن العدل استواء السريرة العلانية في العمل فان كان عمله الظاهري مطابقاً لاعتقاده وكان اعتقاده صحيحاً فقد اعتدلت فيه قوة الاعتقاد وقوة العمل وهكذا

اقسام العدل

ينقسم العدل الى ثلاثة اقسام عدل المرء مع نفسه وعدله مع غيره وذلك الغير اما أن يكون فرداً أو جماعة فاما عدله مع نفسه فقد علمت أنه سلوك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل فلا يتمرد على الله تعالى ورسله ولا يخرج عن البراهين الصحيحة ولا يلقى بنفسه في تيار الشوات الفاتلة ولا يطيع غيه وهواد وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من امراض الشهوات البدنية والعقلية وبقى نفسه نارا وقودها الناس والحجارة يوم يقوم الناس لرب العالمين ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وعرضها للهلاك والخسران في الدنيا والآخرة

أما عدله مع غيره فانه يترتب عليه تلك النتيجة التي ذكرناها وهي السلامة في الدنيا من شرور الناس وحقدهم عليه والأمن على نفسه واهله وما أنعم الله عليه من نعم في دار الدنيا والنجاة من هول يوم القيامة والسعادة الخالدة في دار النعيم وله أمثلة كثيرة نسكتفي بذكر المهم منها هنا

المثال الاول . عدل ولاة الأمور مع رعيتهن وهو أهم أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً لأنه يترتب عليه سعادة المجتمع وصلاح أفراده فإن الحاكم العادل لا يقصر في شيء من واجبه مع رعيته ولا يهمل شيئاً يرقى أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ويكون لهم مثلاً أعلى في معاملة بعضهم بعضاً بالعدل والانصاف . فالحاكم كالقلب من الجسد إذا صلح صلح وإذا فسد فسد كما ورد في الصحيح فلماذا كانت مسئولية ولاة الأمور عظيمة في نظر الشريعة الاسلامية وقد حذر منها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام تحذيراً شديداً

روى عن أبي ذر رضى الله عنه « قال قلت يا رسول الله ألا تستعمنى قال فضرِبَ بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » رواه مسلم

وحقها في نظر الدين أن يقوم بكل شيء فيه مصلحة المحكومين . قال سيدنا عمر والله لو عثرت بغلة في العراق لوجدتني مسئولاً عنها فليل لماذا يا أمير المؤمنين فقال لأنني مكلف باصلاح الطريق . هذا مثال الحاكم العادل ولهذا جعل الله له فضلاً عظيماً وميزة كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شعاله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

ولقد اشتمل هذا الحديث الشريف على جميع الكالات الانسانية فالامام العادل هو الذى تنصلح به رعيته ويستقيم به امر دينها ودنياها وهو اعظم السبعة قدراً وأجلهم منزلة ومن أجل هذا بدأ به عليه الصلاة والسلام . وأما الشاب الذى نشأ في طاعة الله فهو خير لنفسه ولغيره لأن من يعود العمل الصالح لا تطفئ عليه شهوته فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما الذى قلبه معلق بالمساجد ليوذى فيها الصلاة التى فرضها الله عليه في اوقاتها ويحرص على عمارتها فإن صلاته تنهيه عن الفحشاء والمنكر لأن من يتعلق بالمساجد لا بد أن يكون ذلك ناشئاً من خشية الله تعالى ومن شعر قلبه بخشية ربه وصلى له خاشعاً خاضعاً فانه لا محالة ينتهى عن الفحشاء والمنكر فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما المحبة في الله تعالى فعناها التعاون على البر والتقوى فمن أحب غيره لهذا الغرض فقد خدم نفسه وخدم الناس اجل خدمة . وأما الذى دعته امرأة ذات حسب وجمال لنفسها فامتنع خوفاً من الله فهو ذلك الرجل الذى ملك شهوته وجعل لعقله عليها سلطاناً عظيماً فهو امين على عرضه وعلى أعراض الناس وجدير أن تكون له تلك المنزلة . وأما الذى يتصدق بصدقات خفية فهو ذلك الرجل الذى هو خير وبركة على عباد الله فانه يغيب المكروب ويطعم البائس والمضطرب ولا يجب أن يمين على الفقير فيؤذيه بمنه ولا يجب أن يعمل رأى الناس فإن مدحوه فعل وإن لم يمدحوه ترك ومثل هذا جدير برضاء الله تعالى وحسن جزائه . وأما الذى تفيض عيناه عند ذكر ربه فهو المؤمن حقاً الذى قال الله فيه (إنا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)

فهؤلاء السبعة جديرون برحمة ربهم واحسانه واهل لأن يقيمهم الله تعالى هول يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد

ويتبع عدل الولاة والسلاطين عدل القضاة والشهود وهو أهم ركن تقوم عليه سعادة المجتمع وينبني عليه أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأنفسهم فإذا جار القاضى ولم يقسط الشهود فإن النظام يختل وتسود الفوضى ولهذا كانت مسئولية القاضى شديدة في نظر الاسلام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به . ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار . ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه

فالقاضى الممدوح في نظر الدين هو الذى يعرف الحق ويقضى به فاما معرفة الحق فانها تحتاج الى مجهود عظيم وبحث في كل الظروف والاحوال المحيطة بالخصوم واما الحكم بالحق فانه يحتاج الى مجاهدة عظيمة حتى يتنزه القاضى عن التحيز والميل مع أقربائه أو أصدقائه أو من تربطه معهم رابطة أو تجمعهم معهم جامعة أو يكون له في الميل غرض يناله من مال أو منصب أو شهوة . فالقاضى لا ينبغي إلا إذا كان بالنسبة إلى الخصوم كالميزان المضبط . فلا يميل مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق . ومن لم يفعل ذلك فانه يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ولي القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ورواه غيره ومعنى الحديث أنه عرض نفسه للهلاك والعذاب الأليم . وهذا إن لم يقض بالحق كما تقدم في الحديث الأول .

وبديهي أن الركن الأعظم الذى يعرف القاضى به الحق هم الشهود فإذا تحيزوا وشهدوا زورا وضلوا القاضى فقد احتملوا كل هذه المسئولية وكانوا من أشقى الخلق وأتعسهم عند الله وعند عباده من أجل ذلك قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)

قوامين . مواظبين على العدل في جميع الشئون والاحوال فلا يحل لكم أن تتخلفوا عنه في أى حال . شهداء لله . تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله تعالى فلا تحملكم الأغراض الدنيوية على التحيز وشهادة الزور . ولو على أنفسكم . مبالغة في الحث على أداء الشهادة على وجهها لأن الشهادة لا تقع من الانسان على نفسه . وإنما الذى يقع منه يسمى إقراراً إلا إذا أريد بالشهادة بيان الحق مطلقاً فتشمل الإقرار . أو الوالدين والأقربين . رأى بعض أئمة المسلمين أن شهادة الولد لوالديه وبالعكس جائزة أخذاً من هذه الآية . ولقد روى بعضهم أن سلف المسلمين كانوا على ذلك حتى تغيرت أخلاق الناس فعدلوا عن ذلك . وقد علمت أن الغرض انما هو المبالغة في الحث على قول الحق . فلا

يلزم منه ما ذكر . وقوله إن يكن غنياً أو فقيراً . معناه أن الشاهد ينبغي أن لا يلتفت لأى سبب من الأسباب الموجبة للتحيز سواء كانت صلة قرابة أو كانت عاطفة شفقة أو رحمة كما إذا خشى أن يشهد على فقير فيضره في ماله أو كانت هبة وخوفاً من غنى . أو غير ذلك . بل يجب على الشاهد أن لا يعرف في هذا المقام سوى الله تعالى الذى يأمره بأن لا يتثنى عن قول الحق قيد شعرة . فلا تحملكم أهواؤكم وأغراضكم على أن لا تعدلوا في حقوق الناس . وإن تلوا . أستمعتم فلا تأتوا بالشهادة على وجهها . أو تعرضوا . عن أداء الشهادة رأساً . فإن الله كان بما تعملون خبيراً . فيجزىكم على ما عصيته .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) لا يجرمنكم . لا يحملنكم . شنآن قوم . شدة بغضكم لهم . على أن لا تعدلوا . في حقوقهم . اعدلوا . أيها المؤمنون في أعدائكم وأوليائكم فإن العدل . هو أقرب للتقوى . أى أدخل في مناسبتها وأشد الأمور شبهها لأن التقوى نهاية الطاعة والعدل أساس الفضائل

فهذا قول الله وقول رسوله في الحث على عدل ولاة الأمور والقضاة والشهود . فعلى المسلمين أن يعملوا به وأن يقبوه في كل أمورهم ليظفروا بالسعادة في الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين المشال الثاني : عدل رؤساء الأسر والقبائل . فاذا وفق رئيس أسرة أو زعيم قوم إلى إقامة العدل بينهم فإنه يحيا معهم حياة طيبة مباركة ويعيش هو وهم عيشة راضية مرضية . فإن عدل الرئيس يوجب استمرار روابط المودة والوثام بينه وبينهم من جهة وبينهم وبين بعضهم من الجهة الأخرى فضلاً عما يترتب على ذلك من اقتدائهم به قدوة حسنة . فإنه يكون مثالا صالحا للصغير والكبير فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ويعامل الكبير الناس بالعدل . وبذلك يكتبون شر المظالم الداخلية والخارجية .

أما إذا كان الرئيس ظالماً فإنه يكون شراً ووبالاً على نفسه وعلى مرؤسيه فإن المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه لأجله فتقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة ويمعن كل واحد في الاضرار بالآخر . فضلاً عما يسرى لهم من خاق الظلم فيسلطون على خاق الله فيظلمونهم كما ظلمهم وبذلك يكونون من أشقى خلق الله

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مسئول عن العدل في ذلك العمل وليس العدل قاصراً على السلاطين وولاة الأمور . فقال عليه الصلاة والسلام « كلحكم راع ومسئول عن رعيته . الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيته . والخدام راع في مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم . وهذا الحديث صريح في أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال . فريئس الأسرة والقبيلة يجب عليه أن يعمل على تحقيق العدل بينهم . فلا يظلمهم في مطعم أو مشرب أو مسكن ولا يدين هذا ويقصى ذاك بدون سبب يستدعى ذلك من عقوبة على ذنب ومكافأة على خير . ولا يهمل أمر تربيتهم

وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات . ولا يقصر مع واحد منهم في تعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه . ولا يذرهم يعتدون على أموال الناس أو أعراضهم . ويتعبد تهذيب نفوسهم وإصلاح أخلاقهم . فاذا ترك الرئيس شيئاً من ذلك فانه يكون ظالماً مسئولاً عن تقصيره هذا وعن كل ما يترتب عليه من المآثم بين يدي أحكم الحاكمين الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة وسيجزى الناس على أعمالهم يوم يبعثون

وأما المرأة فانه مسئولة عن تدبير منزلها بما يوافق حال زوجها . فلا ترهقه في الاتفاق ولا تظلمه بطلب مالا يقدر عليه ولا تخونه في عرضه . ولا تفعل ما يؤذيه . وكذلك يجب عليها أن تعدل بين أبنائها فيما بين يديها من طعام وشراب . فلا تفضل واحداً على صاحبه من غير حق بل تعطى كل واحد ما يناسبه . فلا تحرم من تبغض وتجزل العطاء لمن تحب . فان خانت زوجها في عرضه أو ماله . أو آذته بعصيانها . أو فضلت بعض أولادها على بعض كانت ظالمة تستحق عند الله سوء العقاب وأما الخادم أو العامل فهو مسئول عن العمل الذي يسند إليه والمال الذي يؤتمن عليه . فاذا أعمل العامل عملاً أو أداء ناقصاً فقد ظلم سيده واستحق عقاب الله تعالى . وكذلك الخادم إذا خان سيده في مال كان كلفه بشراء شيء فزاد في ثمنه وأخذ له نفسه أو أهمل مساومة التاجر فغبنه في السلعة أو رأى أحداً يعتدى على مال سيده فلم يردده أو كلفه بالاتفاق على عمل فأسرف فيه بدون حق أو غير ذلك فانه يكون آثماً ظالماً يستحق العقوبة التي أعدها الله للظالمين في الدنيا والآخرة

ومن هؤلاء الصناعات الذين يتعاقدون على عمل شيء ثم لا يجيدون صنعه ويفشون الناس فان لهم عقاب الظالمين وعليهم إثم العاشين . كالبنائين والتجارين والحدادين ونحوهم . فان هؤلاء جميعاً مكلفون بالعدل في صنائعهم بأن يجيدوها ولا يتركوا باباً من أبواب الخلل إلا أصلحوه . ومتى فعلوا ذلك لوجه الله تعالى وابتغاء ما عنده . فان الله يبارك لهم في أجورهم في الدنيا ويثيبهم على ذلك في الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » رواه ابن حبان في صحيحه . فهؤلاء مسئولون جميعاً عن العدل في أعمالهم فمن حفظ ما وكل اليه من الأعمال فله جزاء الحسنى . ومن ضيعه فله سوء العذاب .

الرحمة والاحسان والرفق

هذه الصفات من أجل الصفات الانسانية الممدوحة وهي كالعدل . والكرم من الصفات التي يشارك الانسان خالقه في الاتصاف بها وإن كانت صفات الانسان حادثة يمكن تحديدها . وأما صفات الاله فهي تابعة لذاته في التعقل . فبما أن ذاته تعالى قديمة لأول لها ولا آخر لوجودها . فكذلك صفاته . وإنما تعرف بآثارها التي تعجز صفات الحوادث عن التعلق بمثل ما تعلق به فالرحمة رقة في القلب تستلزم معاملة الناس بالاحسان وهو التفضل بإسداء الخيل . ولكنها في الاله سبحانه صفة

تسع التائبين من المذنبين والكافرين فيمحو الله عنهم برحمته ما اقترفوه من سيئات وارتكبوه من جرائم . وتسع الانسان والحيوان والدواب فيسخر لهم برحمته من وسائل الرزق وأسباب الحياة من ماء وهواء ونبات وشمس وقر وحر وبرد ما لولاه لهلكوا . وتسع العصاة الذين يفسدون في الارض إلى أجل ما حتى يكون لهم الوقت الكافي لمراجعة أنفسهم والكف عن عصيانهم . وتسع كل شيء في هذا الوجود كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء)

أما حقيقة هذه الرحمة فليس علينا أن نعرفها إذ لم يكلفنا الله بها وهيئات أن نعرفها أو نتقف على حقيقتها بل الذي علينا أن نؤمن بأن الله رحمن رحيم وأن نعرف أن رحمته وسعت كل شيء كما بينا ونؤمن بأنه تعالى ليس كمثل شيء وأنه منزّه عن مماناة الحوادث ذاتا وصفة . هذا معنى الرحمة ومثلها الرأفة إلا أن الرأفة زيادة الرحمة . وأما الاحسان فانه ينقسم إلى قسمين

الأول : احسان الشيء بمعنى إتقانه وهذا يتعدى بنفسه فيقال أحسنه إذا أتقنه وقد فسر بأنه الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق وفسره صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح بأن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وهذا هو معنى الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق لأن من يراقب الله في أعماله وقلبه يمتليء بجلاله وعزته حتى كأنه ماثل أمامه فانه لا بد أن يأتي بها على الوجه اللائق فلا يخرج عن الحدود التي سنّها الله تعالى . وكذا من كان يعمل وهو مؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره فانه لا يعمل الا ما أمر به على الوجه الأكمل . وهذه المرتبة أقل من الأولى لأنه في الأولى يعمل كأن الله حاضر أمامه بذاته فيستحي منه كل الحياء . وأما الثانية فانه يرى الله غائبا عنه ولكنه حاضر بعلمه فيحذره ويخشاه

الثاني : الاحسان بمعنى التفضل وهو يتعدى إلى الناس إذا تفضل عليهم وأسدى اليهم الجليل فضلا منه وكرما . فالاحسان هو أن يفعل الانسان الواجب عليه مع الناس ويزيد عليه فهذه الزيادة في عمل البر والخير مع الأفراد والجماعة تسمى إحسانا . وقد فسر بعضهم الاحسان بترك الاساءة فن فعل الواجب مع الناس وكف عن الاضرار بهم كان محسنا وإن لم يسد اليهم من المعروف أكثر من ذلك

وأما الرفق فهو اللطف وأخذ الأمور بأحسن الوجود وأيسرها . وضده الخرق - بالضم - مأخوذ من خرق كتعب إذا عمل عملا لم يرفق فيه . ويضاد الرفق أيضا العنف وهو الشدة والمشقة وهل يجوز أن يسمى الله رفيقا أولا . الصحيح أنه يجوز لأنه ورد في الأحاديث الصحيحة تسميته بذلك وهو كاف في صحة التسمية . وقد سأل عمرو بن العاص ابنه عبد الله فقال له ما الرفق قال أن تكون ذا إناة وتلاين الولاية . قال فما الخرق قال معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . أخرجه ابن أبي الدنيا . وقال سفيان بن عيينة لأصحابه أتدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور في مواضعها . الشدة في موضعها واللين في موضعه . أخرجه ابن أبي الدنيا وهو وما قبله بوضح لك معنى الرفق فان الثاني في الأمور وعدم العجلة فيها يفضيان إلى إدراكها على وجه صحيح ومعالجتها بما يناسبها وأخذها بأحسن الوجوه وأيسرها وتصريفها على حسب ما تقتضيه من الشدة واللين فيضع كل شيء موضعه فلا يستهين بمن هو أكبر منه قوة ولا يناوئ من يستطيع

الاضرار به ولا يرضى بالدينه من الامر . فهذا هو الفرق ومنه تعلم أنه لا يوجد إلا مع الحلم لأن
 التهود وطفيان الغضب لا يتأتى معها تصريف الأمور على هذا الوجه كما سيأتى فى الحلم . ولهذا قيل
 إن الفرق بين الحلم - تصغير الابن - ثمرته ونتيجته . أخرجه ابن أبى الدنيا . أما الخرق فانه قد
 يوجد مع عدم الغضب لانه قد يكون مسببا عن البلادة والجهل بعواقب الامور
 وإذا قد علمت هذه الصفات فاعلم أنها كلها مدوحة فى نظر الدين الاسلامى لما يترتب عليها من
 إسداء الخير الى الناس والعناية بهم لان الدين الاسلامى يرى أن الخير كل الخير فى معاملة الناس
 بالحسن وأن الانسان فى هذه الحياة لم يخلق لنفسه فقط بل عليه واجبات وحقوق يؤدىها للمجتمع
 وهذه الحقوق تختلف باختلاف علاقته بغيره شدة وضعفا وقربا وبعداً . وكل ذلك سياتى بيانه فى
 الجزء الثانى إن شاء الله على أتم وجه . فلنذكر لك هنا بعض ما يترتب على كل صفة منها من الآثار
 النافعة مع ذكر الاحاديث الصحيحة الدالة على فضلها

آثار الرحمة

فاما الرحمة فانه يترتب عليها من الفوائد النافعة للأفراد والمجتمع ما يأتى
 أولا : الكف عن الاعتداء على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . لان رحمة القلوب لا يؤذون
 غيرهم واذا وقع من أحدهم ما يؤذى قهراً عنه فانه يتالم له كل الألم ولا يستريح الا اذا تحلل بمن
 لحقه اذاه . فاذا لم يكن فى الرحمة الا هذا لكفى بها فضيلة يتق بها أشد الاخطار التى يتعرض لها
 يظلم الناس فى الدنيا والآخرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يملئ للظالم حتى اذا
 أخذه لم يفله ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) »
 رواه البخارى ومسلم والترمذى . فالظالم لا بد أن ياخذه الله بظلمه وينتقم منه وان صبر عليه .
 ومعنى قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك) أى مثل ذلك الأخذ والاهلاك المتقدم ذكره فى الآيات
 السابقة لقوم عاد وثمود وآل لوط وغيرهم . (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) فان الله تعالى
 يصبر عليهم ويمدهم فى طغيانهم ثم بعد ذلك ينتقم منهم شر انتقام . فكل فرد أو جماعة يظلمون
 الناس لا بد أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء الظالمين فى دار الدنيا مهما طال الأمد ولعذاب
 الآخرة أشد وأبقى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما المفاس قالوا المفاس فينا من لادرهم له ولا
 متاع فقال ان المفاس من امتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة . ويأتى وقد شتم هذا وقذف
 هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان
 فنيست حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم
 والترمذى . فمن لم يتحلى من حقوق الناس ويرد لهم مظالمهم فى الدنيا كانت حاله فى الآخرة هكذا .
 ان كانت له محسنات ياخذون منها فان وفيت فذلك والا طرح فى النار . وقد ورد فى الحديث

— وسفك دم هذا — ومعنى سفك الدم اراقته فلا يلزم منه ازهاق الروح اذ قد يريق دمه بشج رأسه أو اتلاف عضو منه أما قتل النفس عمداً فإنه لا يبقى معه حسنات فإن الله تعالى قال (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) ولهذا قال بعض أئمة المسلمين إن قاتل النفس بغير حق يخلد في النار كما يخلد الكافر وسواء كان هذا القول صحيحاً أو كان الصحيح أنه لا يخلد خلود الكافرين وأن معنى الخلود طول المكث فإن قول الله هذا يتجلى فيه غضبه على القاتل ويظهر منه شدة وعيده وتهديده إياه وما كان الله ليقول ذلك لعباً بل لأبد من أن يحزى ذلك المحرم الأنيم أسوأ الجزاء ويعاقبه أشد العقاب وكفى به أثماً إن يذكر عقابه كعقاب الكافرين ويجعل جزاءه الخلود في نار السعير وقانا الله السوء بمنه وكرمه

من هذا تعلم أن عاقبة التعدي على الناس وظلمهم شر كبير وبلاء عظيم في الدنيا والآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كانت عنده مظلة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخاري والترمذي

فاحسن ما يفيد المرء في ذلك أن يجتهد في ترضية الناس ويعمل على رد حقوقهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً فإن لم يستطع فعليه أن ينوى سدادها عند القدرة وبطلب منه العفو عما يستحيل عليه الوصول إليه أما التعدي على الأعراض فإنه لا يلزم ذكره مفصلاً لأنه يؤلم صاحبه وربما زاده حقداً وغضباً فلا يصفح أبداً بل الحق أنه يكفي فيه ترضيته من طريق أخرى حتى إذا رضى بطلب منه أن يعفو عنه فيما فرط منه في حقه مطلقاً وسيأتى تمة الكلام في مبحث التوبة في الجزء الثاني

ثانياً . تأدية ما فرضه الله على الإنسان من زكاة مال أو انقاذ نفس معصومة من الهلاك لأن الرحمة لا يستطيعون أن يروا بأعينهم ويسمعوا بأذانهم أن أخوانهم في الإنسانية يتضورون جوعاً ويمشون عراة وهو متمتع بالمال الزائد عن حاجته وحاجة من يعول

ثالثاً . إغاثة الملهوف وإعانة المكروب وقضاء حوائج الناس على قدر ما يستطيع لأن رحمته تدفعه إلى ذلك وبذلك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ويكون من العاملين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قال أرأيت إن لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قال قيل له أرأيت إن لم يستطع قال يأمر بالمعروف أو الخير قال أرأيت إن لم يفعل قال يمسك عن الشر فإنها صدقة » رواه البخاري ومسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه » رواه الطبراني

والحديث الأول يفيد أن الإنسان مكلف بمعونة غيره أما بالمال أو بالعمل أو بالقول فإن كان له مال فإنه يجب عليه أن يخرج منه ما فرضه الله عليه فإن زاد على ذلك فإنه صدقة وإحسان يضاعف الله عليه الأجر فإن لم يكن له مال فإنه لا يصح أن يكون عالة على الغير بل عليه أن يكسب المال بعرق جبينه وعمل يده ليتفجع هو وينفع غيره بقدر ما يتاح له . فإن لم يستطع فعليه أن يعين المكروب ويساعده

في عمله مساعدة بدنية فان لم يستطع فليعمل بلسانه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فان لم يفعل فليكف الناس شره وهذه اقل المراتب وأدناها

اما الحديث الثاني فانه يدل على مقدار فضل قضاء حاجات الناس والسعى في مصالحهم فان من يضي بحاجة أخيه يصكون الله له عوناً في حاجته ومن كان الله له عوناً فانه لن يشقى ابداً ويحفظ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة . اما اذا ضن على الناس بما أنعم الله عليه من جاه ونعم وبخل عليهم بمعونته فان الله يتخلى عنه وبذلك تعرض نعمته للزوال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبراني باسناد جيد . وقال عليه الصلاة والسلام « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » رواه مسلم وغيره

فانظر الى ما تضمنته احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحث على معونة الغير فانها صريحة في ان الانسان لم يخلق لنفسه فقط وأن السعادة في الدنيا ليست عبارة عن الحصول على اكبر نصيب من شهوات البطن والفرج وأوفر حظ من المال والبنين والجاه والسلطان من غير مبالاة بما يصيب من حوله من اذى أو يلحقهم من بؤس وشقاء . كلا بل السعادة الحقيقية في دار الدنيا هي ان يتعاون الانسان مع اخوانه في قطع مراحل الحياة ويمدهم بما اناه الله من مال أو علم أو جاه أو سلطان وهو مع ذلك لا ينسى نصيبه من التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ولا يهمل واجبا من واجباته تعالى . هذه هي السعادة التي ينبغي ان يتنافس فيها المتنافسون ويتبارى في تحصيلها المجتهدون ويتسابق في ميدانها المتسابقون ومن ظفر بهذا في دار الدنيا فقد ظفر بالسعادة الكاملة من نعيم خالد مستمر وملك دائم مقيم في دار الآخرة كما تقدم في معنى السعادة

رابعا . تبعته الرحمة الى مواساة جاره فلا يطيب خاطره أن يرى نفسه يمرح في نعم الله عليه فيأكل انواع الطعام ويشرب لذيق الشراب ويلبس فاخر الثياب الى غير ذلك من انواع اللذات ثم يرى الى جانبه جاره يذوق مرارة البؤس والشقاء فيبيت يطوى على الجوع وحوله صبية عظيم الشقاء بنابه فلم يذوقوا النعيم الدنيا طعما ولم يعرفوا له وصفا لاشك أن الرحاء لا يصبرون على هذا ولا يستطيعون الاغضاء عنه فيؤذون ما فرض الله عليهم نحو جيرانهم البؤساء ويمدون اليهم يد المعونة وذلك من فضائل الاعمال فقد قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع » رواه الطبراني ورواته ثقات ورواه غيره وقال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » رواه مسلم . وقال عليه الصلاة والسلام « خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ورواه غيره الى غير ذلك من الاحاديث الدالة على ضرورة العناية بالجارك كما سيأتى في الواجبات الدينية

خامسا . تبعه الرحمة الى مواساة اليتيم وكفاته ومعونة الارامل والمساكين ومساعدة البؤساء والمضطرين . وذلك من خير أعمال البر وأفضل ما يدخره الانسان لينفعه في دنياه وآخرته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى . ومعناه أن كافل اليتيم له منزلة في الجنة رفيعة لأنه يكون جار النبي صلى الله عليه وسلم وقربا منه وفي هذا الحديث اكبر حث على ايواء اليتيم وتربيته حتى لا يتعرض في هذه الحياة لحن الايام وينشأ عضوا فاسدا في الهيئة الاجتماعية فن يوفق الى كفالة يتيم كان له ذلك الاجر العظيم ما لم يرتكب من الجرائم ما يحول بينه وبين هذه المنزلة فقد ورد في حديث آخر صحيح أنه تكون له هذه المنزلة ما لم يعمل ذنبا لا يغفر

وبالجملة فصفة الرحمة تدفع الى كل الفضائل الانسانية وتقضى على صاحبها بأن يؤدي للناس ما يجب عليهم نحوه وزيادة . ولكن ينبغى أن لا تكون الرحمة سببا في الخروج عن حدود الدين مثلا الحاكم فانه يجب عليه أن يقتص من الظالم وأن يعاقب المجرم فاذا دفعته رقة القلب الى الاغضاء عن السارق مثلا أو ذنب به الى ترك الزاني فانه يكون مذموما كل الذم بل يكون جاهلا بمعنى الرحمة والشفقة لأنه إذا رحم فردا بترك عقوبته فقد قسا على الجماعة وظلمهم ظلما مبيها لأن الجرائم تفسوا بينهم بكثرة المجرمين الذين لا يخافون عقوبة ولا يخشون قصاصا وبذلك تسود الفوضى ويختل الظلم وتعرض الامة بتمامها للفناء ولهذا قال الله تعالى (ولكم في انقصاص حياة يا أولى الالباب) وقال تعالى (ولا تأخذكم بها رافة في دين الله)

وكذلك الشاهد الذى تذهب به رسمته الى الشهادة بنير الحق رحمة بمن اذا شهد عليه بالحق يفلس في تجارته ولا يجد قوت أولاده أو تضيع أرضه التى يعيش منها فان هذا يكون مذموما لان الله تعالى أمر بآداء الشهادة على وجهها بقطع النظر عن فقير وغنى لانه هو وحده يتكفل بامر الفقير وهو أولى به لانه إذا فتح باب الزور هدد النظام وضاعت الحقوق وكثرت الجرائم واضطرب أمن الناس وذلك شر عام عظيم لا يعادله افلاس فرد أو أفراد . فالرحمة الممدوحة هى التى تكفه عن إيذاء الناس وتدفعه الى أن يؤدي ما عليه من الحقوق والواجبات سواء كانت لله أو لعباد الله وقد ذكرنا لك أمثلة ذلك . ولهذا حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحمة ونهى على قساة القلوب فقد قال رسول الله ﷺ « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم وغيرهما وقال صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم من فى الارض لا يرحمه من فى السماء » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وقال عليه الصلاة والسلام « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » من حديث رواه أحمد باسناد جيد . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم صلى الله عليه وسلم « يقول لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود وغيره . وعن عائشة رضى الله عنها قالت جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنكم تقبلون الصبيان وما قبلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم ومعناه أن النبي ﷺ يوجه على هذا ويعرض بأن هذه قسوة مذمومة فهو يقول له وماذا أصنع لمثلك الذى نزع الله الرحمة من قلبه . ولقد وصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالرحمة والشفقة على الضعاف من خاق الله ولو كانوا بهائم فقد روى عن معاوية بن قره عن أبيه رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها فقال «إن رحمتها رحمتك الله» رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة وهو يحذر شفرته فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أتريد أن تمتتها موتات هلا أهددت شفرتك قبل أن تفرجها» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى. ورواه غيره

وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى كما وردت أحاديث في الحث على الرحمة بالخدم وغيرهم فمن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى رضى الله عنه قال «كنت أضرب غلاما بالسطح فسمعت صوتا من خلفي اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا» وفي رواية «قلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى فقال أمالو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»

فانظر الى رحمة رسول الله ﷺ وعطفه على الضعيف وانظر الى طاعة المسلمين له وتأثرهم بأمره ونهيه فان أبا مسعود حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم متأثرا من ضرب الرجل ويحذره بطش ربه وقدرته لم يجد وسيلة يكفر بها عن ذلك سوى عتق ذلك المملوك . وامثال هذا كثير سيرد عليك في الواجبات ان شاء الله

الاحسان

وأما آثار الاحسان فهي الخير الكثير الذى ينفع المحسنين وينفع عباد الله تعالى سواء كان الاحسان بمعنى التفضل والزيادة على الواجب أو كان بمعنى الاتقان أما الاول فظاهر لأن الذى يفعل ما يجب عليه لله وللناس ثم يزيد على ذلك فانه يكون ذا فضل عظيم على نفسه وعلى الناس واما الثانى فهو ينقسم الى قسمين القسم الاول إتقان الاعمال المتعلقة بامور الدنيا من صناعة وتجارة وزراعة ونحو ذلك فالصانع اذا أتقن صناعته وأجاد عمله فانه ينفع نفسه وينفع الناس لأن إتقان العمل الصناعى ينتج أجل الفوائد للجمتمع إذ يوفر على الناس كثيرا من أموالم التى تذهب سدى فى سبيل خلل الاعمال وكذلك يوفر عليهم كثيرا من الوقت الذى يقطعه الجاهل فى معالجة عمله . ويسد عليهم حاجتهم التى يتبعونها من العمل وهو باتقانه يخدم نفسه لأن ثقة الناس به تقوى وإقبالهم عليه يزيد قروج صناعته ويصبح بين الناس ذا سمعة حسنة وهى رأس مال الصانع التى عليها مدار حياته واستمرار عمله . اما الصانع الذى لا يجيد صنعته ويهمل فيها فانه بذلك يفتش الناس ويظلمهم فى أموالمهم ويضيع عليهم وقتهم وربما أضاع عليهم فرصا كثيرة كانوا يتفهمون بها من وراء جودة الصناعة وعدم خللها

وهو بذلك يهدم نفسه ويرفع ثقة الناس به فكسدت صناعته ويعيش أثاساً فقيراً . بخلاف التاجر الذى يتقن العمل فى تجارته ويراقب الله تعالى فلا يكذب ولا يغش ولا يبيع للناس الا أجود الأنواع وأحسنها ولا يغبنهم فى البيع فيرجح منهم زيادة عن غيره ولا يبيعهم ما يظهر فيه عيب فى المستقبل . ولا يضايقهم فى رغباتهم فانه بذلك يخدم نفسه ويخدم أمته أما التاجر الفاش المهمل الذى يغبن الناس فى بيعه وشرائه فبشره بانصراف الناس عنه وافلاس فى العاجل القريب .

وكذلك الزارع الذى يتقن عمله فانه يخدم أمته باخراج ما ينفعهم ويخدم نفسه بالارتفاع بثمرات زرعه . وهو كذا كل من يناط به عمل من أمور الدنيا فانه مكلف باتقانه فى نظر الدين فان أهمل فيه وكان ذلك الاهمال يقضى الى الاضرار بالناس كان حراماً أما إذا لم يضر أحداً فانه لا يساقب عليه عقاب المحرم ولكنه نقیصة لا يرضاها الدين لأن كل فرد لا يصح له أن يرضى بنقص فى عمله وهو يستطيع أن يسده ولا يصح له أن يهمل أمراً ينفع غيره الا إذا عجز عنه . يرشد الى ذلك الحديث المتقدم فى مبحث الرحمة من أنه على كل مؤمن صدقة فانه مكلف باسداء الجليل للناس فإذا عجز كف عن اساءتهم فالكف عن الاساءة أقل مراتب الانسانية

القسم الثانى . أداء ما فرضه الله عليه من حقوقه أو حقوق عباده على الوجه الأكمل فمن أتقن صلاته وصيامه وحجه وأخرج زكاة ماله طبقاً لقواعد الدين وأداها خالصة لوجه الله تعالى بدون رياء ولا سمعة وليس له غرض فاسد من ورائها وإنما يفعلها امتثالاً لأمر ربه وأدى ما فرضه الله عليه من حقوق عباده كبر الوالدين وصلة الارحام والانفاق على الأهل والاقارب ونحو ذلك مما سياتى فانه بلا شك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ولهذا فسر رسول الله ﷺ الاحسان بان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ومن يفعل ذلك فقد كف عن ظلم الناس وظلم نفسه وأسدى الجليل الى نفسه والى الناس وكان من الفائزين

الرفق

وأما آثار الرفق فهى تصرف الامور على الوجه الآتم وعدم التعرض للأخطار والصدمات التى قد تودى به وهذا خير عظيم ينفع المرء فى حياته . روى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية كتاباً يستعجله أمراً ويحضه على اغتنام الفرصة فكتب له معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الاناة وإن المنتبذ مصيب أو كاد يكون مصيباً وإن العجل مخطئ أو كاد يكون مخطئاً . وإن من لا ينفعه الرفق يضره الخوف . ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالى اخرج ابن ابى الدنيا . فقله أن التفهم فى الخير أى فهمه شيئاً بعد شيء فلا يستعجل فيه فيفهمه بدون تأمل . وقوله زيادة رشد أى زيادة علم فلا بضل الصواب لأن الرشيد ضد الغى والضلال فالرشيد هو الذى لا يعجل فى أمره والاناة بالكسر بمعنى التأنى فيما لا ريب فيه أن الرفق فى الامور خير وبركة على الفرد والجماعة فان الاخرق يضر بنفسه ويضر بغيره بمن لهم به

علاقة لهذا قال رسول الله ﷺ «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» رواه البخاري ومسلم وقال ﷺ «الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم وقال ﷺ «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير» رواه الترمذي

واذ قد عرفت أن الرفق يستلزمه الحلم فإن الآثار المترتبة على الحلم من خير المجتمع والافراد تترتب على الرفق وسيأتى بيانها مفصلة في مبحث الحلم

الحلم وكظم الغيظ

الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب . أو احتمال الأعلى الذى من الأدنى وهو يرجع الى الاول لان من احتمل الأدنى من دونه مع القدرة عليه فقد ضبط نفسه عند الغضب ولا يسمى الانسان حليماً الا إذا كان ذلك طبعاً له لا تكلف فيه . فاما ضبط النفس عند الغضب مع التكلف فهو تحلم لا حلم وهو يسمى كظم الغيظ . فاذا تكلف الانسان الحلم بأن كظم غيظه مرة بعد أخرى أصبح الحلم عادة له

وأصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها فيقال كظم القربة اذا مלאها وشد رأسها وكظم الباب سده . شبه به من أمسك نفسه عند امتلائها بالغضب فلا ينتقم من أهاجه ومنه فلان كظم بمعنى ممتلئ حزناً . والغيظ مرادف للغضب الا أن الغيظ لا ينسب الى الله تعالى بخلاف الغضب . وقيل ان بينهما فرقاً وهو أن الغضب يتبعه ارادة الانتقام حتماً أما الغيظ فلا . وعلى كل حال فعنى الكاظمين الغيظ المحتملين الغيظ الذين كففوا انفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه

وقد علمت مما تقدم أن ذلك يكون ممدوحاً إذا لم يترتب عليه اخلال بالدين والا كان جبناً فمن حلم على من يعتدى على دينه أو عرضه أو ماله ولم يكفه عن ذلك نال منتهى الذم نعم قد علمت انه ينبغي لمن يدافع عن الفضيلة أن يضبط نفسه عند الدفاع فلا يسرف في الانتقام ولا يتجاوز الحد المشروع لرد المعتدين والا كان متهوراً ظالمًا فالشجاعة في نظر الدين تستلزم الحلم لانك قد عرفت ان ليس الشجاعة مجرد القوة التي يستطيع بها المرء مواجهة الاخطار بل لا بد معها من ضبط النفس عند الغضب حتى يتمكن من اتباع سنن الدين في الدفاع على الوجه الذى يناء لك فيما تقدم

ما يترتب على الحلم من الآثار والمنافع

يترتب على الحلم آثار جليلة . ومنافع عظيمة يعرف الفرد أو الجماعة قدرها . إذا طغى الغضب فأثار النفوس وأسعر نار الفتنة . فاضطربت الأمور واستحكمت العداوة

والبنضاء واستولى على النفوس حب النزاع والصدام وحب البها الفتك والتدمير وسهل عليها القضاء على الأنفس والأموال والأعراض وعذب لديها تخريب الديار . والاستهانة بالنظام ونسيت ما يحجره العيش والتهور من بلاء دائم وشقاء مستمر . وينتج من نتائج قد تغير مجرى الحياة فتبدل العز ذلاً والسعادة نحساً والريح خسراناً والأمن خوفاً والطمأنينة قلقاً وراحة النفس عذاباً . عند ذلك يعرف الناس فضل الحلم ويكبرون قدر الحليم . فان الحليم هو الذى يدفع بحمله كل هذه الشرور لأنه يستطيع أن ينظر إلى كل أمر من الأمور نظراً صادقا ويقدره تقديراً صحيحاً ويزنه بميزان عادل فلا يستخفه الغضب والطيش فيدفعه إلى المخاطرة ويسوقه إلى ما لا قبل له به . وربما كان زعيم قوم وقائد جماعة فيعرضهم بطيشه إلى الهلكة والدمار . وينقذهم بحمله من مزالق الفناء ومواطن البوار فالحلم خير وقاية تقى مصارع السوء وتحفظ من الوقوع في مواطن الهلاك

ولهذا أمثلة كثيرة بين الجماعة والأفراد . فلنذكر هنا المهم منها ليتضح لك الأمر وتنجلى لك الحقيقة من جميع الجهات .

المثال الأول. الحاكم إذا كان حليماً لا يستغزه الغضب إلى إبرام الأمور قبل الثبوت منها فانه يكون نعمة وبركة على نفسه وعلى أمته لأن الثبوت في الأمور قبل إبرامها يستلزم العدل وإعطاء كل ذي حق حقه وجزاء كل فرد بما هو أهله . وبذلك تسعد أمته وتدوم دولته وترتفع مكانته عند الله وعند عباده . فيرضى عنه ربه . فيستجيب له إذا دعا وبهى له وسائل النصر والظفر على الأعداء . ويدبم عليه نعمة في الدنيا والآخرة كما قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر . والامام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذى وغيرهما . وقال عليه الصلاة والسلام « عبادة يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » من حديث رواه الطبرانى بإسناد حسن . إلى غير ذلك من الأحاديث الكريمة الدالة على فضل الحاكم العادل وما له من المنزلة عند الله تعالى وعلى العكس من ذلك الحاكم الجائر الذى يستغزه الغضب فيحمله على الانتقام من الضعفاء وظلم الأبرياء من غير ثبوت ولا دليل . ويكفى مثل هذا تخويفاً وتحذيراً قول رسول الله ﷺ « إن دعوة المظلوم لا ترد وإن الله تعالى يرفعها فوق السحاب ولا يد أن ينصره ولو بعد حين » فالمظلوم يغضب الله من أجله ويستجيب له دعوته ويتقم له بمن ظلمه في الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وقد تقدم تفصيل ذلك في مبحث العدل

المثال الثانى . زعماء القبائل والعشائر ورؤساء الأسر إذا كانوا حلماء فانهم يرفعون عن أتباعهم كثيراً من الأذى ويدفعون عنهم شر التنازع والخصومات مع بعضهم بعضاً أو مع غيرهم . فان الحليم يمكنه أن يعالج الأمور بالهدوء ويفكر فى الوسائل التى تزيل الضغائن والأحقاد . فيقبض على ناصية الأمور ويصرفها بالحكمة وبذلك يستميل إليه الخصوم وينتبه عن الشر ويأخذ منهم بحمله ولينه ما لم يستطع أخذه بجماهه وقوته فتتجسم مادة الشر ويحل الوئام محل الخصام . ومثل هؤلاء الزعماء القضاة إذا اتصفوا بالحلم . فان القاضى الحليم يستطيع أن يهتدى إلى الصواب ويعرف الحق الذى ينشده . لأن سعة صدره لاستماع كل ما يذكره الخصوم وحمله عليهم حتى يدلوا إليه بكل حججهم ويدينوا له كل

ما يستطيعون من طرق الإثبات . لى من خير الوسائل التى تقبده فى استنباط الحق ومعرفة الزائف من الصحيح . أما اذا كان سريع الغضب لا يصبر على سماع حجة ولا يطبق مناقشة دليل فان خطأه يكون أكثر من صوابه وضرره يكون أكثر من نفعه

المثال الثالث . المربى اذا كان حليماً فانه ينتج أحسن النتائج ويؤدى لامته أجل الخدم وأفضلها لأنه يستطيع بحلمه أن يدين مواضع الضعف من نفس القائم على تربيته فيعالجه بما يناسب حاله حتى يشب صالحاً نافعاً خصوصاً اذا كان قائماً بتأقينه العلم فان ملقن العلم اذا لم يكن حليماً فانه يضيع على من يعمله أحسن الفرص فى حياته لأنه يحرمه من مناقشة الحقائق العلمية التى يتمكن بها من معرفة الخطأ من الصواب والحق من الباطل ويتدرب بها على المناظرة المفيدة للفكر فضلاً عما تتركه حماة المربى من الأثر السىء فى نفس الطالب . فان عدواها تسرى اليه من استاذة ويكون شراً على نفسه وعلى الناس .

المثال الرابع . الزوج مع زوجه . اذا كان كل منهما حليماً فانهما يعيشان عيشة راضية مرضية اذ يغضى كل منهما عن هفوات صاحبه فلا يثيران نزاعاً لا يسر الأمور وأحقر الأسباب خصوصاً اذا كان لهما أبناء تنطبع فيهم أخلاقهما وتنقل اليهم صفاتهما فان فضل الحلم فى هذه الحالة عظيم وضرر الخفاقة شديد لما يصيب الأبناء من نفع الاول وضرر الثانى . فالحلم فى الحياة الزوجية سعادة عاجلة وآجلة وخير عظيم للأسرة بتمامها .

المثال الخامس . التاجر اذا كان حليماً . فان تجارته تكون رائجة . واقبال الناس عليه يكون كثيراً . لان حلمه يرغبهم فى معاملته . أما اذا كان أحق يثور غضبه لاهون الأسباب وأيسر الأمور فيؤذى بلسانه من لم يسوّم سلعته بالثمن الذى يحب أو يمنع عنه السلعة . فلا يمكنه من إعادة النظر اليها أو يخلف الأيمان بأنه لا يبيعها منه . الى غير ذلك مما يفعله كثير من الباعة حماقة وجهلاً فانه من أكبر الأسباب فى كساد تجارتهم لانصراف الناس عنهم ونفرتهم من معاملتهم وقد يفضلون معاملة الحليم حتى ولو كانت سلعته أقل جودة من سلعة ذلك الآخر . فكما أن الصدق من وسائل نجاح التاجر فكذلك الحلم . ومثل التاجر الصانع . فان الصانع الآخر حق تفرض القلوب من حوله ويأبى الناس معاملته خوفاً من شره فلا يعامله أحد ويظل فقيراً بائساً . أما الحليم فانه يكون محباً للنفس يستريح معه الناس فتروج صنعة ويعيش بها سعيداً . فكما أن الكذب سبب فى بوار الصانع وعطلته فكذلك الحماقة والغضب

فالحلم نافع للأفراد والمجموع والرئيس والمردوس والتاجر والصانع والزارع ومفيد للناس أجمعين بشرط أن يستعمل فى موضعه كما ذكرنا آنفاً

(وبعد) فلقد ذكر هنا أمثلة من حلم رسول الله ﷺ ليقتدى به المسلمون . ويهتدى بهديه المسترشدون فانه عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم حلماً كما وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) فمن ذلك ما رواه جابر رضى الله عنه أنه ﷺ « كان يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال فقال رجل يابى الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل فقد خبت اذا وخسرت إن كنت لأعدل فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فانه منافق فقال معاذ الله

أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي» رواه مسلم . وكان رسول الله ﷺ في حرب « فاستظل تحت شجرة بعيداً عن أصحابه وقد علق سيفه بئلك الشجرة . فجاء رجل مشرك فأخذ سيف رسول الله المعاق ووقف على رأسه وفي يده السيف ثم قال للنبي ما يمنعك منى فقال ﷺ الله عز وجل يمنعني منك فدهش الرجل في نفسه وسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف من الأرض وقال من يمنعك الآن فقال الرجل كن خير آخذ قال قل أشهد أن لا إله إلا الله فقال لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك بخلى سبيله فجاء الى قومه فقال جئكم من عند خير الناس» ومعنى هذا الحديث متفق عليه

وروى ابن القيم أن رسول الله ﷺ « كان يقسم تمرأ في عرجونه في يوم شديد الحر فجهم عليه أعرابي فضايقه فضربه رسول الله بعرجونه فقال له الرجل أتضربني يا رسول الله فقال له خذ فاقص فقال له بل عفوت يا رسول الله»

وروى أيضاً أن معاذاً شبح رأس رجل فطالب قومه بالقصاص فراضهم رسول الله ﷺ بمال حتى يعفوا فرضوا به فقال لهم عليه الصلاة والسلام انى سأعان ذلك في ملا من الناس فقالوا نعم فذكره صلى الله عليه وسلم في اجتماع ثم قال لهم هل رضيتم فقالوا لا . فلم يغضب عليهم واحتل بهم مرة أخرى وزاد لهم في المال حتى رضوا فقال لهم انى سأذكر ذلك في جمع فقالوا نعم ففعل ثم قال لهم هل رضيتم قالوا رضينا « فاذا تأملت فيما ذكرنا من تلك الامثلة ترى أن رسول الله ﷺ كان يصفح عن كل ما ليس له أساس بالدين ويعفو حيث يكون للعفو أثر صالح وينسى نفسه الكريمة عند الحق والعدل . فانظر الى عفوه عن الرجل الذى أراد قتله فانه لفت بعفوه نظر الرجل الى مكارم أخلاقه ﷺ . وذهب الى قومه فقال لهم جئكم من عند خير الناس وفي ذلك من توجيههم الى النظر في تعاليمه والبحث فيما جاءهم به من عند ربه ما قد ينتج اسلامهم وهدايتهم وتلك هى النتيجة التى يسعى اليها رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . وكذلك عفوه عن الرجل الذى قال له اعدل يا رسول الله فانه عليه ﷺ بقوله انه اذا اقتص منه كما قال عمر يقول الناس ان محمداً يقتل أصحابه وذلك خطر شديد على الدعوة الى الله لأن الناس ينفرون عنه ويخشون الاجتماع عليه . وهذا هو الذى يبناء لك من أن الحليم الذى لا يستغفره الغضب يستطيع أن يتدبر في عاقبة الأمور وينظر الى ما عساه أن يقع ولو تقديراً فيحكم حكماً لا يكون وراءه ندم على أى حال . وكذلك حلمه مع الاعرابى الذى قال له أتضربني يا رسول الله فانه ﷺ لم يتبادر في غضبه ولم يستنكر من الاعرابى استفهامه الذى فيه مطالبة بحقه ففضى عليه حلمه أن يخضع للحق وأن يقول للأعرابى خذ العرجون واقص منى . ألا ان فى ذلك لابلغ العظمت وأجل المنهل

فهذا رسول الله ﷺ يقتص من نفسه لأنه لطم أعرابياً ضايقه بعرجون مع أنه أرفع قدراً من الملوك وأعلى منزلة من القياصرة . ولقد كان يقول له قومه لو أمرتنا أن نخوض بحراً ما تخلف واحد منا وكاتوا يبايعونه على الموت فهل من مذكر . على أن فى هذا الموقف عظة أخرى ينتجها الحلم وهى المحافظة على الحقوق العامة . والتمسك بالنظم فهو ﷺ يرشد بذلك أمته الى أن الناس سواسية بالنسبة للنظام فلا فرق بين كبير وصغير وعظيم وحقيير فليس لواحد مهما علا قدره أن يعتدى على

غيره ويقلت من العقاب الذي سنه الله لذلك . ولقد بلغ من حلمه عليه السلام أنه لم يضرب قط امرأة ولا خادماً كما ورد في حديث متفق عليه . وقيل له وهو في القتال لو لعنتهم يا رسول الله « فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً » رواه مسلم . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة « قالوا يا رسول الله إن دوساً قد كفرت فادع عليها فقبل هلك دوس فقال اللهم اهد دوساً وأت بهم » ولما آذاه المشركون يوم أحد وكسروا رباعيته وشجوا وجهه وشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم « فقال اني لم أبعث لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة اللهم اغفر لقومي أو اهد قومي فانهم لا يعلمون » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم أنا بشر فأيا مسلم سبته أو لعنته أو جلده فاجعلها مني صلاة عليه وقرية تقربه بها إليك يوم القيامة » رواه مسلم ومعنى هذا الحديث متفق عليه . وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه الا حق وأشار الى لسانه » رواه أبو داود باسناد صحيح . وفي الحديث الذي قبله نهاية الحذر والاحتراس منه صلى الله عليه وسلم فانه يخشى أن تغلب عليه الطبيعة البشرية مرة فتخرجه عن حاله المعهودة من الحلم فيشتم أحداً شتمه أو يضربه ضربة فطلب من الله تعالى أن يجعلها قرينة لمن حصلت له والواقع أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب أحداً يده الا أن يجاهد في سبيل الله وما لعن مسلماً بصرح اسمه أبداً . روى الحاكم ما لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً بذكر اسمه وما ضرب يده شيئاً قط الا أن يضرب في سبيل الله ولا سئل شيئاً قط فتمعه الا أن يسأل مأثماً ولا انتقم لنفسه من شيء الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فيكون لله فينتقم .

ومن أجل ذلك أمر عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو أن يكتب عنه ما يقول في حال الغضب والرضى لانه معصوم عن الزلل واثق من أن الغضب لا يخرجه عن طوره ولا يصرفه عن قول الحق على أي حال .

وقال على كرم الله وجهه كان صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدين فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » . رواه الترمذي

فهذه أمثلة من حلمه صلى الله عليه وسلم وتري من حديث على كرم الله وجهه انه صلى الله عليه وسلم كان يحلم حيث يكون للحلم موضع . اما اذا جحد الحق جاحداً او خرج عن دين الله فاجر او اعتدى عليه معتداً فانه كان عند ذلك يغضب حتى يقوم الحق وتنتصر الفضيلة وتنهزم الرذيلة . وهذا هو معنى الشجاعة التي ذرناه لك فيما مضى

ولاغرو فانه صلى الله عليه وسلم كان الشجعان الناس واحلم الناس فمن تمسك بسنته فقد اهتدى ومن حاد عنها فقد ضل سواء السبيل وكذلك كان حال اصحابه رضي الله عنهم فانهم تخافوا باخلاقه الكريمة ولم يجيدوا عن طريقه القويم قيد شعرة فنصرهم الله على أعدائهم وأعزهم وأعلى قدرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن فنزل على الحر بن قيس وكان عن يديهم عمر وكان القراء اصحاب مجلس عمر فقال عيينة لابن أخيه الحر يا بن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير تستأذن عليه فاذن له عمر فدخل فقال يا بن الخطاب مات عطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر

حتى هم به فقال الحر يا امير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)
وان هذا من الجاهلين . قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وقال له صدقت فكأنما كانت تاراً
فانطقت . وكان عمر وقافاً عند كتاب الله رواه البخارى
وانا نقف مع القارىء عند هذا الحد لاننا لو شئنا أن نتبع ما كانت عليه كرام المسلمين من
الحلم لضاق بنا المقام وحذا لو فهم المسلمون ذلك وعملوا به ليعيشوا مثلهم كراماً في الدنيا ويكونوا
بررة عند الله يوم يبعثون

التواضع

التواضع يقابل الكبر وهو انكسار القاب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخالق وانما ينشأ
ذلك من معرفة الانسان قدر نفسه وقدر ربه لان من يدرك أنه شخص ضعيف فان وأن كل صفة
من الصفات الموجبة للرفعة والكبر في هذه الحياة لا ثبات لها بل هي أعراض زائلة متنقلة ويدرك
أن ربه هو الخالق العظيم المنفرد بالبقاء والكبر وأنه سبحانه سيجزى الذين اساءوا بما عملوا ويحزى
الذين أحسنوا بالحسنى فان قلبه دائماً يكون منكسراً لربه فلا يتمرد عليه باقتراف الجرائم والآثام
وعند ذلك يعامل الناس بالرفق والرحمة وابن الجانب فلا يتكبر على أحد ولا يزهو على مخلوق ولا
يسالى بمظاهر العظمة الكاذبة فلا يحقد على من لم يقف اجلالاً له ولا يعتدى على من يتصدر في مجلس
هو فيه وإن كان دونه منزلة ولا يستكف من مجالسة الفقراء ومخاطبتهم بطيب الكلام ولا يأنف
من أن يستمع نصيحة ممن هو دونه ولا يحتقر احداً من خلق الله الى غير ذلك مما ينشأ لك
في مبحث الكبر

وبذلك تعرف الفرق بين التواضع والضعفة فان الضعة هي الدناءة والخسة وابتذال النفس في سبيل
شهواتها الفاسدة فيقف المرء في مواقف تزدري به من أجل الحصول على منصب أو مال أو جاه
أو امرأة أو غير ذلك فلا يبالي أن يذل لمن هو دونه أو يتماق لمن يهينه أو يقف على باب من يستثقله
ويظهر الاشتمزاز منه وهو لا يبالي بالالحاق عليه والوقوف بين يديه ذليلاً خاضعاً . والتواضع من
صفات النفس الممدوحة والضعفة من صفات النفس المذمومة ولقد ذكرنا لك في مبحث الكبر
أن ليس من الكبر معرفة الانسان قدر نفسه والترفع بها عما يذرى والضابط في ذلك أن كل ما يترتب
عليه مصلحة للأفراد والجماعات فهو حسن ممدوح وما يترتب عليه ضرر وشر فهو سيء مذموم
كما تقدم غير مرة

والتواضع بالمعنى الذى ذكرنا فوائد كثيرة ومنافع جزيلة تعود على الافراد والجماعات بالخير
الكثير فان التواضع محبب الى النفوس قريب من الناس وكلما دنا منهم ارتفعت منزلته عندهم
وعظم قدره في أنفسهم واستفاد منهم وأفادهم وكلما كان المتواضع عظيماً كان تواضعه اكبر أثراً وأكثر
فائدة لان الاشياء تعظم بنسبة من تسند اليه كما ذكرنا غير مرة . ولنورد لك بعض امثلة على ما ذكرنا

المثال الأول . إذا كان المتواضع عالماً فانه بالتواضع يزداد علماً لانه لا يستنكف أن يأخذ الفائدة من دونه . ولا يأتي أن ينقل الحق عن أى مخلوق أما المتكبر فهو كالمغرور فانه كثيراً مانفوته الحقائق العلمية لأنه يأتي أن يأخذ الحق حيث كان . ولذا قيل ضاع العلم بين الحياء والكبر وكذلك إن كان متعلماً فانه بالتواضع يحد عطفاً من معلمه فلا يرضى عليه بمجهود ولا يخل عليه بفائدة لأن التواضع يستلزم الأدب . وما أحسن الأدب من المتعلم مع أستاذه الذى يعصر مخه فى سبيل تنقيفه وتهذيبه فانه بالتواضع له والتأدب معه يبرهن على أنه يعرف قدر العلم ويدرك قيمة المعروف وأنه ممن يحزى الاحسان بالاحسان . أما المتكبر الذى يرم أنفه على من يعلمه أنفة واستكباراً ويحمله الكبر على سوء الأدب مع أستاذه فهو غبي جاهل لا يعرف للعلم قيمة ولا يريد أن يخرج من جهله وذلك مشاهد بين المتعلمين . فأنك ترى المتكبرين على أساتذتهم لا ينفكون عن الجهالة ولا يخرجون عن السخف فضلاً عما يتصفون به من نكران الجليل وجمد المعروف

المثال الثانى . إذا كان المتواضع ذاملاً فانه بمخالطة الناس وعدم الترفع عليهم يعرف البؤساء والمحتاجين ويرى بعينى رأسه ما يصيبهم من الشقاء ويمسهم من الجوع والعري . وما يؤذيهم من ألم الحر والبرد فتألم نفسه لما يصيبهم فيسهل عليه أداء ما فرضه الله عليه للسائل والمحروم ويهون عليه أن ينقذ المكروب ويغيث الملهوف . وفى ذلك فائدة له وللناس لانه بعمله هذا يرضى عنه ربه وخالفه ورضاء الله خير ذخيرة يذخرها الانسان تنفعه فى الدنيا والآخرة لأن من يرضى عنه مولاه العزيز الحكيم لن يصيبه ضيم ولن يمسّه شقاء فضلاً عما يكسبه من قلوب الناس ومحبتهم إياه واحترامهم له وإخلاصهم فى خدمته . وتضافرهم على الدفاع عنه والانتصار له . وبعد هذا كله فانه يستريح من سقاسف الأمور التى يتألم لها المتكبرون وتغلى من أجلها دماؤهم ويطنى غضبهم فيحماهم على العدوان على عباد الله لأن المتواضع لا يعنى بمظاهر العظمة الكاذبة التى ذكرناها آنفاً

المثال الثالث . إذا كان المتواضع ذا جاه فان التواضع يجعل لجاهه معناه . لأن الجاه إن لم يستعمل فى فائدة الجماعة والأفراد فلا يكون له معنى ومن ترفع عن الناس ولم يتواضع لهم فانه لا يدنو منه أحد ولا يتنفع بجاهه محتاج فيظل جاهه قاصراً عليه ويصبح اسماً بدون مسمى ومن يظن أنه متى حصل على ما يسد شهوته وحده من مال أو جاه أو سلطان فقد ظفر بلذات الدنيا ونعيمها فلا يبالي بعد ذلك بغيره شق أم سعد فهو تعس لأن الانسان لا يستقل فى هذه الحياة بل لابد له من التعاون مع غيره وقد فرض الله عليه أموراً كثيرة يؤديها لأهله وأقربائه وجيرانه وأهل مدينته والبيئة التى هو فيها كما فرض عليه إغاثة الملهوف وإنقاذ الأنفس من الهلكة عند القدرة وعمل ما فيه الخير للناس ومن تأخر عن ذلك فهو آثم مجرم كما سيأتى فى الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله . وما أحسن التواضع من ذى الجاه فانه يعظم فى أعين الناس جد العظمة . ويرتفع قدره كل الارتفاع ويكون كمن قيل فيه

دنوت تواضعاً ورفعت قدراً * فشأنك الانخفاض وارتفاع
كذلك الشمس تلو إذ تبارى * ويدنو الضوء منها والشعاع

أما ذو السلطان فان تواضعه يجب أن يكون معتدلاً بالحيلة فلا يفعل ما قد يطمع فيه المحكومين أو يسهل عليهم مخالفة النظام . وذلك يرجع للبيات التي يعيش فيها فان كانت تدرك معنى الواجب وتعرف معنى النظام فان الحاكم يكون في خارج الحكم كغيره كما كان في صدر الاسلام . فان المسلمين يومئذ كان الواحد منهم إذا اقترف جريمة ينم عن نفسه ويطلب أن يقتص منه ولو كان الجزاء يفضى به إلى الاعداد كما حصل من ماعز الذي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إني ذنيت وطلب أن يعدم . ففى مثل هذه البيئة التي تحافظ على القانون من تلقاء نفسها لا يصح للحاكم أن يحتجب عن أفرادها أو يترفع عن مخالطتهم . أما إذا كانت البيئة لا تعرف للنظام قيمة ويرى الواحد منهم أن قرب الحاكم منه فرصة للخروج على النظام وربما اتخذ ذلك ذريعة يؤهم بها غيره إلى أنه قادر على رفع العقاب عن الجاني والحكم على البرى . فيسلب الناس أموالهم كرشوة على هذا الحساب . فان الحاكم يجب عليه أن يحتاط إلى هذه الحالة كل الاحتياط كما قدمنا في مبحث الكبر ويكون معنى تواضع الحاكم حيثندين جانبه والاصغاء لحجج الخصوم ومخاطبة الناس بالادب وعدم الغرور بمنصبه الذي لا بد أن يزول وإقامة العدل بين الناس فيسوى بين الصغير والكبير في الحقوق ومن يفعل ذلك فله أحسن الجزاء عند الله كما تقدم . من أجل ذلك كله حثت الشريعة الاسلامية على التواضع وأمرت به فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة . وأنفق مالا جمعه في غير معصية . ورحم أهل الذل والمسكنة . وخالط أهل العفة والحكمة » رواه البخارى في التاريخ ورواه غيره

وفي الحديث إشارة إلى أن التواضع الممدوح هو غير الضعة التي ذكرناها وهي أن يقف موقفاً يذرى به

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في التواضع ومكارم الاخلاق . فقد روى الحاكم بسند صحيح « أنه أتى للنبي صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيئته فقال هو من عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل من القديد » والقديد اللحم اليابس لأن قريشا كانت تجفف اللحم وتخزنه لوقت الحاجة . وقال ابن عامر « رأيت صلى الله عليه وسلم يرمى الحجرة على ناقة صها . لا طرد ولا ضرب ولا إليك إليك » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وهو حسن صحيح . ومعناه أنه صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد العالمين وإمامهم الا عظم كان يرمى حجرة العقبة كأحد الناس فلا يخلون له الطريق . ولا يطردون الناس ولا يضربونهم ولا يقولون لهم تنحوا إلى جهة وذلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام أكبر تواضع . وروى أبو داود والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يجلس بين أصحابه مخاضاً بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فينوا له دكاناً من طين فكان يجلس عليه » والدكان كما يطلق على الخانوت يطلق على الدكة التي يجلس عليها — المصطبة —

فذلك مثل من تواضعه صلى الله عليه وسلم . فعلى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام ليسعدوا في الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين .

الحياء والعفة

الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وهو صفة من صفات النفس المددوحة لأن اشمزاز النفس عن القبائح يستلزم تركها والانصراف عنها . فالحياء بهذا المعنى من أفضل صفات النفس وأجلها قدراً . وهو مركب من أمرين . الجبن . والعفة . لأن الانتباض عن الشيء يقتضى الاحجام عن فعله كما علمت وذلك أثر الجبن . وترك القبيح أثر العفة . فالحياء المددوح هو ما تركب منها معا . أما انقباض النفس عن الفضائل فإنه لا يسمى حياء بل هو الجبن . فإذا كان المرء مع أحد العظماء الذين يتركون الصلاة ويأتون الذكر فانتبضت نفسه عن فعل الخير وانبسطت لفعل الشر مجازاة لذلك العظيم كان فعله ذلك جبناً لا حياء . ومثل ذلك ما يفعله بعض الناس من مجاملة بعضهم بسماع الغيبة ونحوها فإنه حين مذموم كل الذم . والحياء يستلزم الحجل وليس هو الحجل لأن الحجل حيرة النفس وارتباؤها من فرط الحياء

وأما العفة فهي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط في الشهوة والغضب على الوجه الذي يناء فيها فهي مساوية للعدل لأن من توسط في شهوته وغضبه كان مؤدياً لما يجب عليه من الحقوق لنفسه وغيره سواء كانت متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده وذلك معنى العدل . وبديهي أن العفة تستلزم الكف عن القبائح أما التلذذ بالمباح فقد ذكرنا لك حكمه في مبحث الاقتصاد ومبحث شهوة الفرج وغيرهما وقلنا لك أن العفة لا تستلزم ترك التمتع بنعم الله وطيبات رزقه لأن الله خلقها للناس ليستمتعوا بها ويذكروا نعمة الله عليهم فإذا وجد ما يقتضى هجر اللذات المباحة كما إذا راض نفسه ليصل إلى ادراك حقيقة من الحقائق أو يكون قدوة للبؤساء الذين حرموا من لذات الدنيا أو يكون مثالا لقومه في الاقتصاد أو نحو ذلك فإنه إنما يريد بذلك لذة أرقى وتمتعاً أكبر لأن استمتاع النفس بهذه الامور المعنوية الباقية أكبر وأعلى من استمتاعها باللذات المحسوسة المتقضية كما يناء لك في أول هذا الباب . أما هجر اللذات المباحة وترك التمتع بالطيبات من الرزق لا لغرض سوى أنه يريد به الرهينة فإنه لا يجوز في نظر الاسلام لأن الله أمر الناس أن يأكلوا من طيبات رزقه قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً) فقد أمر الله تعالى باكل الحلال الطيب نعم إذا كان الاستمتاع يفضى إلى الترف والاسواف كما يناء في موضعه فإنه يكون مذموماً .

أنواع الحياء

ينقسم الحياء الى قسمين . حياء من الله . وحياء من الناس وهو بقسميه رأس الفضائل وأساس مكارم الاخلاق لانه يترتب عليه ما يترتب على العدل والعفة ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله » رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء من الايمان والايمان في الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء في النار » رواه أحمد وغيره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل الحياء من الدين فقال بل هو الدين كله » من حديث رواه الطبراني وغيره . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » من حديث رواه البخاري ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء والايمان قرناهما جميعاً فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » رواه الحاكم وغيره .

هذا بعض ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياء وهو كما ترى يتضمن وعد من انصف بالحياء بالجنة ووعد من انصف بضده من البذاء والفحشاء بالنار فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الحياء خير كله وأنه قرن الايمان فاذا رفع الحياء رفع الايمان ثم قال ان الايمان — أى أهل الايمان — في الجنة . وأن البذاء من الجفاء وأهل الجفاء في النار . ولا ريب في أن ذلك من أجل الحكم وأفضل الموعظة فما من أحد يستمسك به ولا يحيد عنه الا عاش في دنياه عيشة راضية مرضية وظفر في آخرته بالسعادة الدائمة والملك المقيم .

آثار الحياء

قد علمت أن الحياء ينقسم الى قسمين حياء من الله وحياء من الناس فاما الحياء من الله فانه يترتب عليه كل الفضائل التي يسعد بها الناس في دنياهم وآخرتهم فان الذي يستحي من الله لا يفعل منكراً ولا يترك واجباً مادام يؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره وأنه لا بد أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بأساءته وأنه سبحانه هو الذي خلقه فسواه وأمدّه بنعمه وفضله على كثير ممن خلقه وأنه مدين له سبحانه في وجوده وبقائه وفنائه وبعثه وأنه محتاج اليه في جميع حركاته وسكناته وأنه اذا تأمل في نفسه وأدرك ما انطوت عليه من دقيق الصنيع وبديع التركيب وعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فلا بد من أن يستحي من عصيان ذلك الخالق ولا بد أن يفعل ما أمره الله به وينتهي عما نهاه عنه وذلك هو الخير كله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ظاهر لان الذي يطيع الله فيما أمر لا يظلم أحداً من عباده ولا ينقص أحداً منهم حقه فيؤقر الكبير ويرحم الصغير وينزل كل واحد

منزله ولا يترك ما يجب عليه نحو أحد . ولا يهمل حقاً من حقوق ربه ومن يفعل ذلك فهو ذو فضل عظيم وخير كثير على نفسه وعلى غيره يعيش في هذه الحياة عيشة راضية مرضية ويحيا حياة هنية طيبة في الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم

وأما الحياء من الناس فهو قسمان ايضاً . الاول أن يستحي المرء من الناس وهو جازم بانه لا يأتي هذا المنكر ولا يفعل هذه الرذيلة خوفاً من الله تعالى وحياء منه أيضاً ولولم يطلع عليه أحد من خلقه وهذا هو الحازم الذي عرف كيف يستفيد من صفة الحياء وبأخذ أجرها كاملاً لأن الحياء انما يمدح من جميع جهاته إذا ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين في جميع الاحوال . الثاني أن يترك القبيح حياء من الناس بحيث لو لم يطلع عليه أحد لفعله وهذا وإن كان لم يأخذ أجره كاملاً ولكنه يرجي منه الخير وينجح فيه العلاج لأنه مادام الحياء موجوداً في نفسه وما دام لا يفعل القبائح بين الناس فانه يسهل تذكيره بعظمة ربه وجلاله إن كان مؤمناً وتعليمه ان الله أولى وأحق بأن يستحي منه لأنه هو القادر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو بكل شيء عليم فليس من الحزم أن يستحي الانسان من الناس ولا يستحي من ربه . وليس من العقل أن يضع ثواب ترك القبيح بانصرافه عن ملاحظة خالفه ومراقبة ربه

أما الذي يجاهر بالعصيان ولا يستحي من الله ولا من الناس فهو من شر ما منيت به الفضيلة لأن المعاصي داء سريع الانتقال لا تلبث عدواه أن تسرى الى النفوس الضعيفة فيعم شرها وينفقم خطيئها فضلاً عما في المجاهرة من انتهاك حرمة الفضيلة والقضاء عليها فشره على نفسه وعلى الناس عظيم وخطره على الفضائل كبير فيجب على جماعة المسلمين أن لا يتركوا أولئك الذين يجاهرون بارتكاب الموبقات يعيشون بينهم بل يجب على كل واحد أن يبذل مجهوداً في رددهم عن غيهم بكل ما يستطيع من نصيحة وغيرها . وخير علاج للقضاء على هؤلاء مقاطعتهم وعدم مخالطتهم واحتقارهم في مجالسهم والانصراف عن حديثهم حتى يرجعوا عن غيهم ويكفروا عن المجاهرة بجرائمهم . ومن الأسف أن المجاهرة بالعصيان قد فشت في زماننا بدون حياء من الله ولا من الناس وأصبح الزاحم على الشهوات القاصدة والذات المحرمة شائماً والتسابق في ميدان القبائح شاملاً فلا شاب ينزجر ولا شيخ يرعوى ولا رجل تدركه الغيرة . ولا امرأة يغلب عليها الحياء وذلك آفة فناء الأمم وهزيمتها في كل شأن من شؤونها قائماً الأمم تحيا حياة طيبة بالتمسك بالفضائل ونعيش عيشة سعيدة باجتنب الرذائل فإذا انتهكت المحارم وغلبت الشهوات وضاع الحياء فإذا يرتجى بعد ذلك من عيش وراءه يحفظ الله وعقابه ومقته وعذابه ألا إن ذلك هو الهلاك والخسران كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً ترك منه الحياء » من حديث رواه ابن ماجه

فها أنت ذا ترى النساء خرجن عن كل معنى يطلبه الحياء فيخرجن في كثير من المدن عاريات الصدور كاشفات الأذرع يعرضن زينتهن التي لا يحل الاطلاع عليها إلا للحارم من الذين ذكرهم الله على كل غاد ورائح ولا يباين أن يختلطن بالرجال اختلاطاً معيماً مذرباً ويكلمن النسا على مرأى ومسمع من الناس بدون أن يحظر على بال واحدة منهن شيء من الحياء الذي كان شعار آبائهن وأمهاتهن من قبل . ولا يعرفن للعفة التي عليها صيانة الشرف وحفظ الذرية معنى ولا يدركن أن هذا العمل

يقضى على بناتهم واخوتهن وأقربائهن شر قضاء لأن الشبان الذين يجدون حاجتهم من أولئك العاهرات ينصرفون عن الزواج ويكتفون بالسفاح فتبور الفتيات ويصبحن عاطلات معرضات للخنا والفساد فأى شر بعد هذا الذى يفعلنه هؤلاء الفاجرات وأى ضرر بعد هذا الذى يلحقنه بنظام العمران وأى فساد بعد ذلك الفساد الذى يقضى على الادب والفضيلة ويعرض الفتيان والفتيات لأسوأ المحن وشر البلاء كما ينسا ذلك فى مبحث الزنا واللواط . ألا ان ذلك لما تسيل من أجله العبرات وتذوب من أجله الاكباد . وبما يصاعف البلاء ويزيد فى المصيبة أننا قدمنا بقوم يظنون أن الفضيلة كل الفضيلة فى الاقتداء بغيرهم من الامم التى أتيج لها من القوة المادية ما يكون لها به السلطان على الضعاف فلا ينفكون عن تحريض النساء على الخروج عن الآداب باسم الحرية والمدنية ومنهم من يبالغ فى النكاي بالفضيلة فيجعل التهلك فى أرذل حالاته فضيلة من الفضائل وعلماء العلوم التى يجب أن تطلب ومن ذلك — الرقص — فانه أصبح عند هؤلاء فنا من الفنون التى يجب على المرأة أن تتعلمه وما عليها من بأس أن تحاصر من تشاء من الشبان وتلصق جسمها بجسمه وما عليها من حرج اذا وضعت سوانها على سوانته على مرأى ومسمع من بعليها ان كان لها بعل وما عليها من عار اذا اختلت بذلك الشاب الذى رقص معها فى أى وقت شاءت . فهل بعد ذلك من فضيحة تقضى على الفضيلة شر قضاء الا نبؤنا أيها الظرفاء المتعلمون هل هذه الحالة هى التى تقيد المرأة فى حياتها المنزلية المستقبلية فتعلم منها كيف تسهر على تربية ابنائها وبناتها تربية تنفعهم وتنفع قومهم هل هذه الحالة هى التى تعلم المرأة كيف تصون عرضها وتحفظ نفسها وتكون مثالا حسنا لبناتها وبنيتها . هل هذه الحالة هى التى تقضى على المرأة باحترام زوجها وعدم التطلع الى غيره ايا كان حاله فتدوم بينها الالفة وتستمر علاقة الزوجية مصونة عن العبث أو هى على العكس من كل هذا تمر المرأة على اللهو والخلاعة والانصراف عن تدبير منزلها وتلفت نظرها الى غير زوجها ان خالت فيه ميزة من جمال أو مال أو نحوهما وتكون مثالا سيئا لاسرتها وعارا على ذويها . لعلمكم تقولون ان التربية الاخلاقية شوء والفنون الجيلة شئ آخر فمن كانت مصونة لا يؤثر فيها ذلك شيئا . وهذا هو الذى نعييه عليكم ونؤاخذكم به لانكم بذلك تجهلون يئسكم التى تعيشون فيها وتحكمون على قومكم بغير أخلاقهم وطباعهم جهلا منكم بصفات النفوس وطبائع الناس بل هو جهل أو تجاهل بالمشاهد المحس — المحسوس — الذى لا ينبغي أن يجهله أحد منكم . فكم رأينا أن التهلك جرّ الى فساد كثير من الاسر وأضاع حياة كثير من القبائل وقاد كثيرا من الفتيات والفتيان الى المجاهرة بالفسق والخروج على أهلهم وذويهم . وكم رأينا مصارع الفضيلة على مسارح الرقص . وكم شاهدنا حرمة الآداب تنمك فى سبيل ذلك التهلك الذى يسمونه مدنية وحرية . وكم جرّ ذلك من أمراض أخلاقية وبدنية على الفتيان والفتيات . فهل تخفى ذلك على هؤلاء الذين يقولون ان التهلك والخلاعة والمجون لاعلاقة لها بالخنا والفساد ألا ان ذلك لجهل عظيم فان أسباب الشر تنتج الشر وأسباب الخير تنتج الخير فمن يتمسك بأسباب الفساد يلق الفساد بلا نزاع .

وأعجب من هذا وأشد مصيبة أنهم يتوسلون فى اغراء النساء على الخروج عن الآداب بأن المرأة شريكة الرجل فى الحياة فلا يصح أن يكون هو طليقا حراً وهى رهينة منزلها وأسيرة مخدعها

ويستدلون على انحطاط الأمة وعدم تقدمها في المدنية بعدم رقي المرأة وجهلها. وفي هذا غاية العجب فإن هؤلاء كما أنهم يعتقدون أن الفساد وانتهاك حرمة الفضيلة والخروج على الآداب والأخلاق سبب في رقي الأمم وسعادتها فيأثمها الناس بربكم قولوا لنا ما للرق وما لرقص النساء على المسارح وتبرجهن في الطرق ومغازلة الرجال والشبان ما للرق وما تعرض عفاف المرأة وصيانة عرضها للفساد. ما لرق الأمم وخروج المرأة عن كل قيد من قيود الحياء. ومن قال إن الرجل طليق لأخرج عليه فيما يأتيه من الأعمال لا ريب في أن الرجل كالمرأة تماماً في جانب الفضيلة والزينة فما هو محرم عليه محرم عليها وما هو واجب عليه واجب عليها فكما لا يحل لها أن تضع عفافها كذلك لا يحل له. وكما يحرم عليها اجتناب الوسائل التي تفضي إلى ارتكاب الجرائم والمواقف كذلك يحرم عليه اجتنابها فإذا قلنا للمرأة لا تبرجي ولا تنتهكي حرمة الفضيلة ولا تخاطبي من يطمع في عفافك وتجنبي وسائل الفساد كذلك نقول للرجل غص بصره عما لا يحل لك واجتنب كل ما يؤدي الناس في أعراضهم واحذر أن تطمع في سلب عفاف امرأة لا تملك عصمتها ولا تتوصل بأي وسيلة تفضي إلى ذلك وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة) فلا فرق بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية إنما لكل منهما وظيفة يؤديها في هذه الحياة كاملة ولكل منهما طبيعة يترتب عليها آثار غير طبيعة الآخر وعلى كل فرد من الأفراد سواء كان رجلاً أو امرأة أن يتمسك بكل ما يترتب عليه صالح ويتجنب كل ما يترتب عليه سوء فالشريعة إنما تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنهى عن التمسك بالأسباب التي توصل إلى ذلك. فإذا وجد بين الناس من يقول إن الفحشاء والزنا لذات لا يصح تركها هؤلاء قد خرجوا عن موازين الإنسانية وأصبحوا كالأنعام لا هم لهم إلا اللذات فلا يغارون على أعراضهم ولا يخافون على بناتهم ونسائهم كما ينال في مبحث الزنا. وهؤلاء لا فائدة من إرشادهم ولا جزاء لهم إلا أن يبدهم الله من المجتمع ويحفظه من شرهم. وبعد — فإن الإسلام قد أمر النساء أن يتعلن ما لهن وما عليهن من الحقوق والواجبات فمهما أمكن ذلك بالآداب والحشمة والوقار وعدم التعرض للفساد كان ضرورياً ولقد كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين من أعز الأمم قدراً وأرفعهم مكانة وكانت نساء المسلمين يومئذ مهابات مثقفات متمسكات بكتابات الله تعالى فلا يتبرجن ولا يتهنكن ولا يرقصن على المسارح ولا يطمعن أحد في عفافهن فهل كان ذلك جوداً قضى بتأخير المسلمين وانحطاطهم أو كان المسلمون يومئذ من أعز الأمم قدراً وأعلى مكانة وقد قهروا أشد الأمم يومئذ بطاشاً وأكبرهم قوة فهزموا الفرس والرومان وقضوا عليهما قضاء برماً بسبب تمسكهم بالفضائل الدينية وتجنّبهم الرذائل الأخلاقية وصيانة أعراضهم ونسائهم من الفساد فن كان مسلماً يؤمن بالله ورسوله فليقتد بهؤلاء الكرام البررة وإلا فليعرض للهلاك والدمار في الدنيا والآخرة وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

هذا بعض ما يجاهر به النساء من العصيان والخروج عن الآداب والحياء أما الرجال فانهم لا يبالون بمهاجمة النساء وتحريضهن على الفساد واغرائهن على الاستمرار على حالهن بدون خوف على نسائهم وبناتهم كما تقدم في مبحث الزنا وهم مع ذلك لا يبالون من معاقرة الخور جهاراً ولا يستكفون عن

كسب المال من أى طريق كان ولو كان فيه هلاكهم وفضيحتهم ولا يستحيون من الغش والخديعة والميسر والزور ولا يباليون بارتكاب الجرائم علانية بدون حياء ولا وجل وهذا غاية الفساد ونهاية الضلال فلا هم يتأثرون بالمواعظ ولا هم يزدجرون بالحوادث ولا هم يخافون من عقوبات دنيوية وامراض جثمانية ولا هم يخشون عذاب الله وعقابه يوم لا ينفع مال ولا بنون فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصبر

هو من أجل صفات النفس وأعلاها تدرأ فقد أتى الله تعالى عليه في أكثر من سبعين موضعاً من كتابه العزيز ووردت أحاديث كثيرة في البحث على الصبر ومدح الصابرين كما سيرد عليك أما حقيقة الصبر لغة فهي حبس النفس عن الجزع أى منعها من الاستسلام له كي لا يترتب عليه فعل ما لا ينبغي وليس الغرض منه طرخ الجزع رأساً لأنه أمر طبيعي لا يمكن الإنكار عنه وظاهر أن المعنى اللغوي قاصر على الصبر عند المصائب . أما في نظر الدين فهو أعم من ذلك لأنه حبس النفس عن الجزع ومنعها عن محارم الله . وإلزامها بأداء فرائضه يدل لذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله . وصبر على محارم الله . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى وقد رواه ابن أبي الدنيا من حديث علي كرم الله وجهه ويمكن أن يجعل الصبر بالمعنى اللغوي شاملاً للأمور الثلاثة لأن حبس النفس عن الجزع لازم لمنعها عما تنوق إليه من اللذات والشهوات فإذا ما منعها عن شهوة محرمة محبوبه لديه جزعت لذلك فمنعها عن الجزع على الشهوة المحرمة هو الصبر وكذلك هو لازم لأداء الفرائض والتكاليف لأن فيها مشقة على النفس فمن داوم على أدائها تجرع نفسه من المشقة فحبسها عن الجزع لذلك هو الصبر . على أن حبس النفس عن الجزع عند المصيبة مختص باسم الصبر فلا يطلق عليه اسم آخر فالصبر على المصيبة يضاده الجزع والملاح . وأما منع النفس عن الشهوات المحرمة فإنه يطلق عليه اسم الصبر وغيره فمنعها من شهوة البطن والفرج أو المال المحرمة كما يسمى صبراً يسمى أيضاً عفة ومنعها عن الجزع عند لقاء العدو كما يسمى صبراً يسمى أيضاً شجاعة ويقابله الجبن . ومنعها عن التعدى على الغير عند ثورة الغضب كما يسمى صبراً يسمى أيضاً حلمًا وشجاعة كما تقدم يسانه ويقابله انتدمر والطيش . ومنعها من افشاء حديث لم يؤذن في افشائه كما يسمى صبراً يسمى كتمان السر . ومنعها من الاسراف في اللذات الضارة كما يسمى صبراً يسمى زهداً ويقابله الشره ومنعها من الغرور بالثروة والمال كما يسمى صبراً يسمى ضبط النفس ويقابله البطر . وهكذا فكل شيء أمر الله به أو نهى عنه فتلقيه الانسان بالقبول والرضى ظاهراً وباطناً وعمل به ان كان أمراً واجتنبه ان كلن نهياً فهو صبر وان كان له اسم آخر ولهذا قد ورد في بعض الآثار ان الصبر هو الدين كله

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه ثبات باعث الدين أمام باعث الهوى . فأما باعث الدين فهو قدرة العقل على قهر الشهوة والغضب وهذه القدرة تحصل له من النظر في قضايا الدين والعمل بها . وأما باعث الهوى فهو الشهوة والغضب لأنهما بطغيانهما يقودان المرء إلى ما لا يقره الدين ولا يرضاه العقل فإذا ثبت العقل أمام الشهوة والغضب وقام بوظيفته على الوجه المطلوب فلا يجعل لهما عليه سلطاناً ولا يسمح لهما بالطغيان فينقاد لهما صاغراً بل يكون هو الأمر الناهي فيسلك بهما سبيل الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط فانه بذلك يستطيع أن يظفر بالصبر على حرمان الله وطاعته وأن يحبس نفسه عن الجزع عند المصيبة فلا يستفزها الجزع إلى قول أو عمل ما لا يرضاه دينه مهما كان لنفسه فيه إثم . ومن ذلك الصبر على إيذاء الناس إياه فانه إذا أغضبه أحد بقول أو عمل فإن غضبه لا يطغى عليه فيجعله على تعدى حدود الله بل يكظم غضبه حتى يجرى على سنن الدين من القصاص العادل أو العفو . وكان فيه مصيصة كل شئ في تقدم . وقد ورد في الكتاب الكريم ما يشير لذلك قال تعالى (ولمن انصبر بعد ضيقه فأولئك ما عندهم من سهل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . فقله مقاوم الحق في كل حين العادل . وإذا صبر على الإساءة وغفر لمن أساء إليه ذنبه فإن ذلك من الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل أحد لشرفها كما يأتي قريباً .

هذا وقد فسر الصبر بتفاسير كثيرة غير هذا . منها أنه الثبات على الكتاب والسنة . ومنها أنه ترك الشكوى . ومنها أنه هو الاستعانة بالله . وقال بعضهم الصبر أن لا تفرق بين حال النعمة والحنة مع سكون إلى طرفيهما . وقال بعضهم هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل غير ذلك وما قدمناه لك هو أجمعها ويقرب منه تعريفه بأنه الثبات على الكتاب والسنة لأن من ثبت عليهما فقد صبر على المصائب وعلى أداء الطاعات واجتناب المحرمات

واعلم أن اظهار البلوى . إما أن يكون لله تعالى كما قال أيوب عليه السلام (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وهذا لا ينافي الصبر . وإما أن يكون لغير الله تعالى فإن كان لحاجة كشرح العلة للطبيب أو بيان المظلمة لمن يقدر على رفعها فانه لا ينافي الصبر أيضاً مادام راضياً بقضاء الله تعالى فلا يضجر ولا يتبرم مما ينزل به من البلاء . فإن اشتكى لغير الله بدون فائدة تبرماً وضجراً لم يكن من الصابرين ولم يستفد من مصيبيته سوى عذاب الدنيا وسيئاً عن ضجره من قضاء الله يوم القيامة خصوصاً إذا كانت شكواه مصحوبة ببعض العبارات الجريئة على الله تعالى فانه يكون من أتعس الحق لأنه بذلك يشكو الاله القادر الذي يرحم للعبد الضعيف الذي لا يغني عنه شيئاً

أقسام الصبر

قد علمت أن الصبر في نظر الدين ينقسم إلى ثلاثة أقسام . صبر على الطاعة . وصبر على المعصية . وصبر على المصيبة . وهذا التقسيم بالنسبة لما يتعلق به الصبر . وقد ينقسم باعتبار القوة والضعف

الى ثلاثة أقسام أيضا . لأن سلطة العقل ان كانت كاملة بحيث يتغلب بها دائما على الشهوة والغضب كان الصبر في هذه الحالة على أتم حالاته . وانما يصل الى هذه المرتبة الصديقون المقربون . وان تفهقرت سلطة العقل أمام الشهوة والغضب في معظم الأحيان كان الصبر في أسفل درجاته . وهذه حالة الغافلين الذين تملكهم شهواتهم وخلت قلوبهم من عظمة خالقهم . وان كانت الغلبة بين المتنازعين سجالاتا بأن تغلبت سلطة العقل مرة . وتغلبت سلطة الشهوة مرة أخرى كان الصبر في وسط حالاته وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر شينا عسى الله أن يتوب عليهم لأن في جهاد الشهوة وقهرها في كثير من المواطن رجوعاً الى الله تعالى وهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة فيقبل الحسنات ويعفو عن السيئات

آثار الصبر

ومنافعه

لأرب في أن الصبر بجميع أقسامه ممدوح في المواطن كلها الا في المواطن التي تنتهك فيها حرمان الدين . والفضيلة . ويخذل فيها الحق فان الصبر في هذه الحالة يكون جبنا . فالصبر حسن جميل سواء تعلق بأمر خطير أو حقير ولكنه يكون أجمل شأنا وأعظم أجراً اذا كان متعلقا بمصيبة عظيمة كفقد ولد نافع . أو كان متعلقا بشهوة لم تستطع النفوس البشرية أن تكف عنها بسهولة . كما اذا دعت امرأة ذات مال وجمال لنفسها فصبر على شهوته وقال انى أخاف الله . ومثل هذا قد اختصه الله بميزة عظيمة وهي أن يكون في ظله يوم لا ظل الا ظله . كما تقدم في الحديث .

ومن هذا تعلم أن ماورد من التفاضل بين الصبر وهو أن الصبر على أداء الفرائض أقل درجة من الصبر على المحرمات وأن الصبر على المحرمات أقل درجة من الصبر على المصائب . ينبغى أن يحمل على مايناه لك . لأن التفاضل في الواقع انما يكون بالنسبة لعظام الأمور التي تظهر فيها تضحية الشهوات ويتجلى عندها نبات العقل ومثانة الدين . على أن الصبر على صفات الأمور قد يكون له فضل عظيم لأن النفس اذا تعودته فانه يسهل عليها الصبر على عظام الأمور . فالصبر كله خير كما ستعرفه فيما سند كره لك مفصلا

فاما القسم الأول . وهو الصبر على المصيبة فانه يتناول الصبر على موث الاحباب من الاهل والأصدقاء كما يتناول الصبر على البؤس والفقر وضياح الأموال ولقاء الاعداء في ميادين القتال ونحوها . والصبر على السقم والوجاع . وإيذاء الاهل والجيران وغيرهم واحتمال الآلام كالضرب الشديد والمرض العظيم والجراحة ونحوها . وقد أثنى الله على الصابرين عند المصائب وأعد لهم جزاء حسنا وأجرأ كبيرا .

قال تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)
فالبأساء . الفقر والبؤس . والضراء المرض . والبأس القتال . فعنى الآية وأمدح الصابرين في حال

الفقر والمرض وحين قتال الاعداء . ولقد وصفهم الله بأنهم الصادقون في إيمانهم بربهم الموقنون باليوم الآخر فلا يبالون بمحادثات الدنيا الزائلة . المنتقون في أعمالهم . وكفى بذلك مدحاً من رب العزة الذي بيده ما مكنوت كل شيء . وقال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فن ابتلاه الله تعالى بنقص في ماله أو منعه شيئاً من شهوات الدنيا ولذاتها وعجز عن تحصيله بالوسائل المشروعة أو قبض إليه نفساً عزيزة لديه أو أخافه من عدو فانه لادواء له الا الصبر على ما أصابه . فاذا صبر المبتلى على مصيبته وعمل بقول ربه عز وجل فقد هانت عليه البلوى وضاع أثرها فاستراح من عذابها في الدنيا وفاز في الآخرة بالجزاء الحسن .

فالفقير الذي لا تبهره المناظر الكاذبة . ولا يذهب بلبه متاع الحياة الدنيا وزينتها ولا يحزنه مالا يستطيع الوصول إليه من ذلك المتاع الفاني بل يطمئن قلبه الى ما قدر له في هذه الحياة من تعب ونصب ويرضى بما قسم له فلا يستخط ولا يفعل حراماً فانه لا بد أن يجعل الله له من أمره فرجاً في حياته الدنيا . كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من ذمته من حيث لا يحتسب) وهو في رحمة الله ورضوانه يوم الخلود . أما الفقير الذي يزين له الشيطان والهوى ما في أبدي الناس ففسد قلبه بالوساوس الضارة والاماني الكاذبة والاحلام الباطلة فيحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يبالي أن يتمسك بأي وسيلة من الوسائل المخرمة في الوصول الى شهوة لن تغني عنه شيئاً ولن تسد عنه فقره لهو من أنعم خالق الله وأضلهم وأشقاهم لانه بعمله هذا يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

وكما أن الفقير محتاج للصبر على فقره . فكذلك الغني محتاج للصبر على غناه لانه مكلف بحقوق وواجبات لا يسهل على النفس فعلها من زكاة مال وإغاثة الملهوف وإنفاق من غير تبذير ولا تقدير الخ ما تقدم في مباحث المال والا كان بطراً يعرض صاحبه للدمار . وكذلك من يصبر على فقد عزيز لديه فان مصيبته تهون عليه في الدنيا وله على ذلك الجزاء في الآخرة . فن مات له حبيب كان من واجبه أن يرجع الى الله تعالى وأن يعلم أن كل شيء في هذه الحياة صائر الزوال فليس من الحكمة أن يخرج المرء عن آداب دينه ويعرض نفسه لسخط ربه من أجل مصيبة مهما عظم خطبها . لان الانسان لم يخلق في هذه الحياة الا هدفاً للمصائب ورمية للأحزان وليس هو وحده الذي خص بالمصائب بل كل الناس في ذلك سواء أولهم وآخرهم كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم . يتسلم الله تعالى بأكبر المصائب وأشد المحن من ألم ومرض وموت . ومتى كان الحكم عاماً كان الصبر عليه أهون . وليس من اللائق بالمسلم أن يغفل عن هذه الحقائق ويفعل ما لا يقره الدين ولا يرضاه العقل من لطم الوجه وشق الجيب والنطق بعبارات الكفر والهديان . وقد يستخف الجزع بعض ضعاف النفوس فيرتكبون الجرائم من حيث لا يشعرون . وقد يذهب عقل بعضهم ويصبح مجنوناً فان كل ذلك غفلة عن نظام الله في خلقه وطمع في المحال فان المنية لن تترك أحداً وأن الضيم والشقاء في هذه الحياة لادافع له . ويعجني في ذلك قول بعضهم :

من رأيت المنون خلدن أم * من ذا عليه من أن يضام خفير
نعم ان الجزع أمر طبعى فى الانسان كما ذكرنا ولكن الذى يكلف به المرء انما هو الكف
عن فعل مالا يليق والتسالىة بمصائب الناس وأرزائهم والتأدب بأداب الدين فاذا وجد بعد ذلك
أنرا للجزع والحزن فى نفسه فانه لا يؤأخذ عليه لانه بكرن قد فعل ما هو داخل تحت اختياره .
على أن من يعلم أنه هالك لامحالة وأنه لا بد أن يرجع الى ربه ويأحق بمن مات اما عاجلا أو آجلا
فان حزنه يذهب سريعا وجزعه ينتهى فوراً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يتصبر يصبره الله » من حديث رواه البخارى ومسلم
ومعناه أن من يتكلف الصبر ويعمل بوصايا الدين الواردة فى شأنه فان الله يمنحه الصبر ويسهل له
تحصيله . وكذلك من يصبر عند الخوف من لقاء العدو فانه يستطيع بالصبر أن يثبت فى نهاية أمره
وأن لا يضيع شجاعته من أجل خوفه وفزعه فيخدم بذلك دينه وأمته ويظفر بثناء الناس ورضاء الله
فى الدنيا والآخرة .

فأجر الصابرين عظيم فى الدنيا والآخرة كما يستفاد من الآية الكريمة فانها تبشرهم
بأمر ثلاثة .

أولها : صلوات الله عليهم والصلوة من الله على عباده الرحمة وهو الكثير الشائع عند
أهل اللغة وقد تطلق على المغفرة والثناء وهو المناسب هنا حتى لا يتكرر مع قوله تعالى (ورحمة) .
ثانيها الرحمة . وقد عرفت بما تقدم انها بالنسبة لله تعالى صفة تناسب ذاته التى ليس كمثله شئ وبها
ينعم الله على عباده بنعمه فى الدنيا والآخرة فيمددهم بما يحتاجون اليه فى حياتهم الاولى ويمحو عنهم
سيئاتهم ويدخلهم جناته فى الحياة الآخرة . ثالثها الاهتداء . وهو الفوز بالمطالب الدنيوية
والآخروية والى ذلك يشير قول سيدنا عمر رضى الله عنه - نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين -
يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة . وبالعلاوة الهدى . رواه الحاكم وغيره . والعدل بكسر العين الحل
الذى يوضع على البعير مقابل حمل آخر . فاخلان هما العدلان والعلاوة بكسر العين ما يوضع فوق
الحملين فهو قد شبه الصلاة والرحمة بالحملين وشبه الاهتداء بالعلاوة التى فوقهما . ومتعلق الدشارة
محذوف مجمل . أى بشرهم يامن يتأتى منه البشارة باحسن البشائر وأجائها وقد نصله الله تعالى بقوله
(أولئك عليهم صلوات) الخ

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال أخبر الله عز وجل
أن المسلم اذا سلم لأمر الله فاسترجع عند المصيبة . كتب له ثلاث خصال من الخير . الصلاة من الله
والرحمة . وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرجع عند المصيبة
جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفا يرضاه » رواه الطبرانى . وعن أبى موسى رضى الله
عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة قبضتم ولد
عبدى فيقولون نعم فيقول قبضتم رة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك

واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد » رواه ابن حبان في صحيحه .
ورواه الترمذى

وروى في الصحيح أن الرميصاء أم سليم لما مات ولدها من زوجها ابى طلحة فقالت لما دخل لا يذكر أحد ذلك لآبى طلحة قيل فلما جاء وسأل عن ولده قالت هو أسكن ما كان فظن أنه عوفى وقام وأكل وشرب ونزيت له وتطيت له فنام معها وأصاب معها فلما أصبحت قالت له احتسب ولدك فذكر ذلك لآبى عليه السلام فقال « بارك الله لكما في ليلتكما فجاءت بولد هو عبد الله بن أبى طلحة فأنجب ورزق اولادا قرؤوا القرآن منهم عشرة كملا وروى جابر بن عبد الله أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فإذا بالرميصاء امرأة ابى طلحة »

فانظر الى الجزاء العظيم فلقد نالت أجرها في الدنيا بما رزقها الله من بنين نجباء وستكون في جنات النعيم يوم القيامة لأن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيها وقوله صدق لاشك فيه وهو الصادق الأمين في كل حال . وكذلك من يصبر على مرض يصيبه فإن الله تعالى يشبه عليه ويكفر عنه من سيئاته سواء كان قليلا أو كثيرا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيئاته رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرطهما ورواه غيرهما وقال عليه الصلاة والسلام ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله له بها من خطاياها رواه البخارى ومسلم . وقال عليه الصلاة والسلام إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقبلا صحيحا رواه البخارى وغيره وقال عليه السلام إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منها الجنة يريد عينيه رواه البخارى وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام إن الله ليبلى عبده بالسقم حتى يكفر عنه ذلك كل ذنب رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما

ولاريب في أن ذلك الجزاء منوط بالصبر والعمل على ما يرضى الله تعالى وقد ورد في بعض الاحاديث الصحيحة أن الله تعالى يبدل الصابر على المرض الذى لا يشكو فيه لموتده عافية خيرا مما كان عايبا فإذا قبضه اليه ادخله الجنة . وكل هذا دليل على عظم قدر الصبر على المصيبة في النفس والولد والمال وعلى علو منزلة الصابرين عند ربهم وعلى ما يدخره الله لهم من الجزاء الاوفى فان من شئى عليه ربه في كتابه الكريم ويشره برحمة منه ومغفرة واهتداء . ويخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعته لهو جدير بأن يكون من المقرين الذين لا خوف عابهم ولا هم يحزنون . وكذلك الصبر على أذى الناس وظلمهم اذا كان لا يستطيع الانتصار منهم أو كان يستطيع ردهم والانتصار منهم ولكنه غفى عنهم وغفر لهم إذا كانت العفو يصلحهم ولم يكن الذنب متعلقا بعرض أو دين كما تقدم غير مرة فمن صبر على ظلم الناس وإيذائهم فإن الله تعالى كفيل بنصره في الدنيا والآخرة وقد مدح الله الصبر في هذه الحالة فقال تعالى (لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)
الابتلاء بمعنى التجربة التى تعلم بها حقيقة لم تكن معلومة محال على الله تعالى فعنى لتبلون لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الصبر والثبات على الحق وإن كان لا يخفى على الله خافية من أمركم

في حاضرهم ومستقبلهم والابتلاء في الأموال بالفرائض التي فرضها الله عليهم وبما يحتاجها من الحوادث وفي الأنفس بالقتل والأسر والجراح وفقد الأهل والأحباب والمخاوف وغير ذلك وقوله - من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - هم اليهود والنصارى - ومن الذين أشركوا - هم كفار العرب - أذى كثيرا - كالطعن في الدين وتخطئة من آمن والافتراء على الله تعالى ورسوله وقوله تعالى - فان ذلك من عزم الأمور - مأخوذ من قولهم عزمتم على الأمر إذا عقدت القلب على فعله ووطنت النفس عليه ويصح نسبة العزم إلى الله تعالى على أن يكون بمعنى الإرادة ومنه قولهم عزمات الله تعالى بمعنى إرادته فعزم الأمور أي الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل عاقل لما فيها من الشرف والمكانة الرفيعة وقال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا) وقال تعالى وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وفي هذه الآية دلالة على أن من قدر على أن يتصبر لنفسه فعليه أن لا يتجاوز حقه فيعاقب باكثر مما عوقب به وإذا صبر وترك القصاص لهو خير له إذا كان يترتب عليه خير . أما إذا كان يترتب على العفو شر فان القصاص يكون لازما كما تقدم

وأما القسم الثاني وهو الصبر على المعاصي فانه لازم لسعادة الانسان في دنياه وآخرته فان الله سبحانه نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا في هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين لا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ولا يعتدى أحدهم على غيره في ماله وبدنه ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون في الأرض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ولا يقذف ولا يشهد الزور ولا يؤذى به أحدا من خلق الله ولا ينطق بالفحش ولا يمزح إلا بالحق ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ولا يجادل بالباطل . ولا يخاصم ليقطع حق غيره فانه بذلك يتقى آفات اللسان التي تفضي بالمرء إلى الهلاك في الدنيا والآخرة . ومن يصبر على حفظ فرجه فلا يستعمله إلا فيما أحله الله له فقد نجا من شر غوائل الزنا واللواط وكان آمينا على سلامة عرضه وحفظه من الضياع . ومن صبر عند غضه فلا يبطش بيده ولا يهجو بلسانه ولا يحقد بقلبه فقد سلم من مظالم خلق الله تعالى وكان مسلما حقا كما قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ومن صبر على ما لا يملكه من الشهوات واللذات فقد نجا من ألم الحسد والحقد وظفر بسكون النفس وراحتها وهكذا في كل ما نهى الله عنه سواء كان متعلقا بحقوقه أو حقوق عباده

وأما القسم الثالث وهو الصبر على أداء ما فرض الله تعالى فهو مرتبط بالصبر عما نهى عنه فانه سبحانه قد أمر عباده بالفضائل ونهاهم عن الرذائل قال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فمن صبر على عبادته تعالى من صلاة وصيام وحج فقد طهر قلبه وتنزه عن الفحشاء . ومن صبر على إيتاء الزكاة وبر الوالدين وصلة الأرحام ومواساة البؤساء وإعانة الفقراء وتربية الأيتام وأداء حقوق الجوار والإحسان إلى الناس وغير ذلك

من الواجبات والحقوق التي سيأتي بيانها في الجزء الثاني ان شاء الله فانه بذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من عنائها ويظفر في الآخرة بالسعادة الكاملة من ملك دائم ونعيم مقيم من أجل ذلك كان الصبر من أحسن صفات النفس وأعظمها ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » من حديث رواه البخاري ومسلم . وقال تعالى (وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وقال تعالى (واصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

اصلاح خطأ

وقع أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية لا تخفى على حضرات القراء . ولكننا رأينا إثبات المصحح منها هنا إتماماً للفائدة .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٩	٤	طبيعى	طبيعية
٣٦	٣٠	مدخوا	خدموا
٣٧	٢١	شقاؤها	شقائها
٤٣	١٣	بذلك آثما	بذلك يكون
« «	١٤	يكون يكون	يكون
٥٠	٢٨	لم يجرى	لم يجر
٥٢	١١	وإن كانت	إن كانت
٦٢	١٤	منعهم	منهم
٦٣	٧	عشر ألف	عشر ألفاً
« «	٢٨	نسكفيكه	نسكفيكه
٦٤	١	لامر	الامر
« «	٤	من نشته	نشأته
٦٥	١	لايثنى	لا يثنى
٧٣	١٥	المسيهجة	المستهجنة
٧٤	١٢	أضرب للسهم	أضرب للهام
٧٥	٨	الحلقة	الحلقية
٨٢	١١	الميراث	المرانة
٨٥	٢٧	داخل	داخلان
١١٣	٢٠	الدواء	الدوائر
« « ٤	٢٣	المغرورون	المغرورين
١٢٣	٤	يخطر	يحظر
١٢٦	٢٣	عليها	عليهما
١٢٧	١٥	العالين	العادين
« « «	١٧	السريرة العلانية	السريرة والعلانية
١٥١	٣٠	ماهم وما عليهم	ماهن وما عليهن

سقط من صحيفة (٥٩) سطر (١٧) كلمات « والذي نفسى يده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله »